السنة الثانية (المحرم سنة ١٣٥٥ هـ - أبريل سنة ١٩٣٦ م) الجزء الرابع

صحيفة دار العلوم

ص ا ح ١٩٣٤ ع

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

تصدرها "جماعة دار العلوم"

كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات "صحيفة دار العلوم" في جميع مدارسها

المدير

محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير

محمد علي مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير

ترسل إلى مساعد التحرير

محمد مهدي علام

المفتش بوزارة المعارف

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي بيومي

المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوي

في القطر المصري	لغير الطلبة	٢٠ قرشا
	للطلبة ومدرسي المدارس الأولية	١٢ »
خارج القطر		٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد	....	٥ قروش

المطبعة الرحمانية بمصر

أبو الطيب المتنبي

بعد ألف سنة

الجزء الأول

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

الخطب الجلل

فزعت مصر ، ورُوِّع الوادى الأمين ، وجزع الشرق ؛ حين نعى الناعى الملك العظيم ، حامى حمى النيل ، وسليل إسماعيل ، وفرع الدوحة العلوية المباركة ، المغفور له « فؤاد الأول » ملك مصر .

لقد وقف فى ساح القصر ، وجلس إلى المذياع ، خلق لا يحصى عددهم ، واجفة قلوبهم ، خاشعة أبصارهم ، يبتهلون إلى الله فى ضراعة وذلة ، أن يمن على المليك المحبوب بالشفاء ، وأن يسبغ عليه نعمة العافية ، وارتقبوا البشير يطل عليهم من شرفات القصر ، والمذياع يذيع البشرى فى الملأ ، وطال على هذه الحال ارتقابهم ، ولاحت لهم بارقة الأمل ، ولكن ما كادت هذه البارقة تملأ أرجاء النفوس ، والقلوب تستقر بين الجوانح ، حتى أعلن الطب عجزه ، وصاح الناعى : «مات صاحب الجلالة» .

وانتشر الخبر فى الآفاق ، فذهل الناس ، وشملهم جوى الحزن ، وغشيهم من هول المصاب ما غشيهم ؛ فذابت نفوسهم حسرة ، وتفتتت قلوبهم أسى ؛ وجفت المآقى ، وتقرحت الأجفان ، ثم رجعوا إلى الله ، فخضعوا لقضائه ، ورضوا بحكمه وتلفتوا حولهم ، علّهم يجدون ما يخفف لوعتهم على المليك الراحل ؛ وإذا صوت يدوّى فى الفضاء ، ويخترق طباق السماء ، ينادى فى الناس : « يحيا صاحب الجلالة الملك فاروق الأول » فسكنت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، ونادوا جميعا من أعماق صدورهم :

« مات المـــلك ! . . . فليحى المـــلك ! » .

محمد على مصطفى

دمعـــة دار العلوم

على الفقيد الكريم ، والملك العظيم ، المغفور له
صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول

للشاعر الكبير الأستاذ علي الجارم بك

جَلَلٌ هزَّ كُلَّ ركنٍ وهَدَّا ومصابٌ رمى القلوبَ فأرْدَى
كلُّ صدرٍ به أنينٌ ووجــدٌ مُرْسِلٌ خلفه أنيناً ووجـــدا
عبراتٌ من ساكبٍ ليس تَرْقَا ووَجِيبٌ من خافقٍ ليس يَهْدَا
ونشيجٌ أقضَّ من مضجعِ الليـــل ، وماجَتْ له الكواكبُ سُهدا

✡✡✡

فزِعَتْ مصر فَزْعةً طار فيها كلُّ عقل عن الرشاد وندَّا
هرِعت ساعةَ الوداع تُفيض الد مع بَحْراً ، وتُرْسلُ الشوقَ وَقْدَا
أمَّـــةٌ هالها المصابُ ، فهامت تستحثُّ الخُطَا شيوخا ومُرْدَا
خرجت من خِبائها كلُّ خَوْدٍ لم تُقَنِّعْ رأساً ، ولم تُخْفِ خدّا
أعْجَلَتْهَا مصيبةُ الوطن المَفْــجُوعِ أن تختبي وأن تتردَّى
زُمَرٌ تلتقي على الحُزْنِ واليأْ س ، وحَشدٌ باكٍ يزاحم حَشْدَا
وَبِحارٌ من الأناسيّ ماجت مُزْبِداتٍ ، يَجِشْنَ جَزْراً ومَدَّا

وجبالٌ تســـير فى يوم حَشر كلُّ فِنـدٍ تراه يتبع فِنـدا
فوقَ سطحِ البُيوت كالنمل ، فانظر ثم إياكَ أن تحاولَ عَـــدًّا
كل بيت قد عاف أحجارَه الصُّـــمَّ ، وأضحى دما ولحماً وجلدا
والميــــادينُ كلها أم تُزْ جَى كما تُـكْدَسُ السحائب رُبْدَا
فإذا شئْتَ أن ترى الأرض أرضاً كنْتَ ممَّن يحاولُ الأمرَ إدَّا
نَفَسٌ واحـدٌ جميعاً ، وقلبٌ لفؤادٍ يَئِزُّ شوقاً وصَهْدَا
ودعاء يمر بالصـدر برْقاً فإذا انسابَ منـه أصْبَح رعـدا
وخشوعٌ من الجلال تَراءى وجَلالٌ من الخشوع تبـدّى
حَملوهُ ، وَإنَّمَا حملوا آ مالَ شعبٍ بزهرها الغضِّ تَنْدَى
حَملوا حامىَ الحقيقـةِ والدِّ ين كما تحملُ الملائك عهـدا
حَملوا كوكباً أشعَّ على مِصـ رَ سنًى مُبصِراً وهدياً وسعدا

✡ ✡ ✡

ما على الدهر مرةً لو توانَى أو على الدهر مرة لوْ تَهـدَّا ؟
لفحت ريحُـه أزاهيرَ آما لٍ مَلأْنَ الوجودَ مِسكا ونَدًّا
وعَـدت كفُّه على دوْحـةٍ كا نت تَمُدُّ الظلال فى مصرَ مَدًّا
وجـدت مصرُ فى ذَراها سَلاماً وطوت فى ظِلالها العيشَ رغدا
قد نَعِمْنَا فرداً به كان عصراً وفقدنا عصراً به كان فردا
دولةٌ أهدت الكواكبَ نوراً وأنافتْ على الكواكبِ بُعْدا

علَّمَتْ كل مالكٍ : كيف تُرْعَى أمَمٌ حاطها الملوكُ وتُهْدَى

✿✿✿

رفع الشرقُ رأسَه بفؤادٍ ونضا عنه يأسَه ، فاستَجدَّا
ومضى يسبقُ الخواطر وثبًا وجرى يُجْهِد الأمانىَّ وَخْدَا
وأتت كلُّ أمة ترتجى مصرَ وداداً ، وتنهَل العلم وِرْدَا
كعبةٌ حجّت الوفودُ إليها تستحثُّ الركاب وفداً فوفدا
حفزتها لعرشِ مصرَ أمانٍ بنشيد الوَلاء والحبِّ تُحدَى
فرأت حزمَ جاهدٍ لن يُبارى ورأت جُهدَ حازمٍ لن يُحدَّا
أبصَروا المُلْكَ فى جلالةِ معناه يُباهِى السماءَ عِزًّا ومجدا
أبصَروا دولةً ومُلكاً كبيراً ومِراساً يُعيِي الزمانَ وجُهدا
همةٌ تَفْرَعُ النجومَ وعزمٌ سلَب السيفَ حدَّه والفِرِنْدَا
ومضاءٌ فى الحادثات برأىٍ فضحَ الصبحَ نورُهُ وتحدَّى
يستمدُّ الإلهامَ من عالِمِ الغيب ، وأجدِرْ بمثلِه أن يُمَدَّا

✿✿✿

دفع الشعبَ للسبيل فكانت من سَنَا هدْيِه أماناً ورُشدا
مُلهِباً عزمَه إذا اجتاز غوراً مستحِثًّا إذا تسلّق نجْدا
كلما خار أجزأت بَسمةٌ منه ، فمدَّ الخُطا حثيثاً وجدّا
ومضى كالقضاء يهوِى لِمرماه جريئا ، مجمَّع القلب ، جَلدا

يَبْهَرُ الصخرَ أن يَرَى منه صلْداً ... آدِمىٌّ الرُّواء يقرَع صَـلْدا
لا يُبالى ـ إذا سعى للمعالى ـ ... خبَط الشوكَ أم توطّأ وَردا !
وفؤادٌ أمَامَه خـيرُ هادٍ ... قاد للغاية البعيدة جُنـدا
كان للمُقـدِمين رُوحاً وقلباً ... ولركب السارين كَفًّا وزَندا
لو دعاهم إلى النجوم لساروا ... خلفَه يُزْمِعون للنجم قصـدا
وإذا اليأس مسّهم كان عَطفاً ... وسـلاماً على القـلوب وبَردا
نظرةٌ منه تبعث الأمَـل الوا ... نِى وتُحيِى منه الذى كان أودٰى

✡ ✡ ✡

كان دِرعاً لمصرَ إن جَارَ خَطْبٌ ... وصِماماً لأمنِها إنْ تعـدّٰى
ساس بالحكمة البلادَ ، فكانت ... من عوادى الخطوب دِرعا وسدًّا
فهو إن شاء صيّر الغِمْدَ سيفًا ... وإذا شاء صـيَّرَ السيف غِمْدَا
قد أعدَّته رحمـةُ الله للحكـ ... ـم كريمًا مباركاً ، فاستعدَّا
ورعَى اللهَ فى الرعيـة والمُلْـ ... ـكِ ، فوفّى حقّ الإله وأدّى
أينما سرت مَشرِقًا تلقَ شكرا ... أو توجهْت مَغربا تلقَ حمـدا
وإذا الله رام إصلاح شعبٍ ... سلك القائدُ الطَّريقَ الأسـدَّا
إنما النـاس بالملوكِ ، وأعلى الـ ... ـمُلْكِ شأوًا ما كان حُبا ووُدًّا

✡ ✡ ✡

ردَّ بالحزم كلَّ خطبٍ سوى المو ... ت ، وللموت صولةٌ لن تُرَدا

والفتى فى الحيـاة رهْنٌ عَوادٍ لا يَرٰى دونَ مُلتَقَاهُنَّ بُدًّا
حَكَم الموتُ فى الأنام فسوَّى لم يَدَعْ سيّداً، ولم يُبقِ عبـدا
بينما يَسحَقُ النمِّـــــالَ تراه باسطا كفَّه ليقنِص أُسْدَا

✡✡✡

يا مليكى، والحزنُ يطحَن نفسى كلما قلت: خَفَّ، قال: سأَبْدا!
أينَ عِزُّ المُلكِ الذى كان للآ مالِ فى سُوحِه مَراحٌ ومَغْدٰى؟
أينَ تلك الهباتُ للعلم تُزْجٰى كلُّ رِفْدٍ فيها يزاحم رفدا؟
أينَ أين القُصَّاد فى ساحة القصـ ـر، وأين الصلات تُعْطٰى وتُسْدٰى؟
أين ذاكـ الجبِينُ يَنْضَحُ نُوراً أين ذاكـ الحديث يَقطُر شَهْدَا؟
قد فقدناه والمُصابُ جليـلٌ وجميلُ العزاء بالحرِّ أجدٰى
نحن لله راجعون، وكلٌّ بالغٌ فى مَجَالةِ العُمر حدًّا
غـيرَ أن الفتٰى يغالبـه الدَّمْـــــعُ، فلا يستطيع للدمْعِ صدًّا
كلُّ مهدٍ يَصيرُ من بَعْدِ حينٍ ـ قصُرَ العمر أو تطاول ـ لحدا

✡✡✡

قد ملأْتُ الوجودَ شدوًا بمدحيـ ـك، وهل غيرُ مِزْهرى بك أشدٰى؟
خالداتٌ من الجـلائل أوْلَت شِعْرِىَ المُزْدهِى بوصفك خُلدَا
كتب الله أن يعودَ رِثاءً وبُـكاءً يُدْمى العيونَ وكَمْدا
قـد نظمتَ العُلا قلادةَ درٍّ فنظمتُ الدموع أرثيـك عِقْدا

☆☆☆

أملُ الشعبِ فى خليفتِكَ الفا روقِ أحيَا آمالَه وأجدَّا
قرأ الشعبُ فى ملامحه الغُرِّ سطورَ المُنى ، وأبصر جَدّا
ورأى فيه نبعةَ المجدِ والنُّبلِ أبًا مُفرَدَ الجلالِ وجَدّا
لم يجد للعُلاَ سِواهُ مثيلاً ولبدر السماء إلاَّهُ نِدَّا
رحمةُ اللهِ للمليكِ المُسَجَّى ورعتْ عينُه المليكَ المُفدَّى

على الجارم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لمدير الصحيفة

نحمد الله الذى بيده ملكوت كل شىء، ونصلى على نبيه الكريم، ونستمدمنه (تعالى) المعونة على ماسنضطلع به من واجب فى إدارة الصحيفة، ونستلهمه الصواب فيما يجرى به قلمنا، ويفيض به فؤادنا، ويتجه إليه أملنا، فى خدمة الثقافة واللغة وآدابها، وفى تحقيق الغايات النبيلة التى مهد أبناء دار العلوم السبيل إليها، وفى إتمام بنائها بمعونة الله وتوفيقه، وصدق العزيمة، والإخلاص فى الحق، والتعاون على جليل المقاصد.

ونسأله (جل شأنه) أن يسدد خطانا، ويوثق عرا التآلف بيننا، ويرشدنا إلى أقوم سبيل.

(وبعد) فإنا نقدم لدار العلوم وأبنائها وجماعتها، وسائر شعبها، وجميع قراء الصحيفة، أجمل العزاء فى فقيدها ورئيسها المرحوم (أبو الفتح الفقى) ونضرع إلى الله أن يتغمده برحمته، وأن يجزيه الجزاء الأوفى، على ما بذل من جهود فى سبيل الخير والإصلاح، وما انطوت عليه نفسه من كريم الخلال، فقد كان - رحمه الله - قوى الإرادة فى هدوء، شديد البأس فى تجمل وتلطف، نشيطا فى حزم وروية، دءوبا فى أناة وهوادة. فلم يدخر وسعا فى النهوض بأعباء جماعة دار العلوم، وكان فى حَله وترحاله داعيا إلى الحق، حافزا همم إخوانه إلى صالح الأعمال.

وكان لهذه الصحيفة عمادا فى الإدارة والتحرير، فاحتمل أعباءها، وغذاها برأيه وقلمه، وسار بهمة فتية، ونفس قوية، فى طليعة العاملين

من إخواننا ، يضرب لهم المثل فى النشاط والإخلاص ، حتى أثمرت الجهود ، وخطت الصحيفة خطوات مباركة ، وأصبحت من أعذب مناهل الثقافة فى البلاد .

تسلم - رحمه الله - زمام الصحيفة فى مراحلها الأولى ، فدعم أساسها ، ووطد أركانها ، وسنتبع خطاه ، ونترسم أثره - إن شاء الله - مطمئنين .

وقد ظل الفقيد عماد الجماعة ، ومحور شعبها المختلفة ، حتى وافته منيته ، فكانت الفاجعة أليمة ، وشمل الأسى الجماعة ورجالها ، ودار العلوم وأبناءها ؛ وقد تجلى الوفاء للفقيد فى حفلات التأبين الرائعة ، التى أقيمت فى جهات عدة ، وأوقات متفرقة ، وفى كلمات الرثاء التى فاضت بها القلوب . وسننشر كل ذلك فى ملحق خاص إن شاء الله .

وقد شرفتنى جماعة دار العلوم بإسناد إدارة الصحيفة إلىّ ، وإنى لعاجز عن أن أوفيها حقها من الشكر على هذه الثقة الغالية ، وأتقدم لتسلم إدارة الصحيفة ، وثقتى بالله تملأ قلبى ، وأملى فى همة إخوانى يزيدنى يقينا ووثوقا بالنجاح ، واطمئنانا إلى السير فى طريق معبد ، نصل منه إلى أسمى الغايات بإذن الله .

ولقد يكون من بواعث الرجاء ، أن الصحيفة قد نالت فى هذه الفترة القصيرة من حياتها مكانة تدعو إلى الاغتباط ، فقد كانت مسرحا للأقلام الرصينة ، والعقول الراجحة من أبناء دار العلوم ، فى فنون اللغة والأدب ، والفلسفة والتربية والتعليم ، وغير ذلك ، مما كان خير دليل على ما لدار العلوم وأبنائها من أثر محمود ؛ ولسنا نريد أن نزكى أنفسنا ونطرى إخواننا ؛ ولكننا نسوقها كلمة حق وإنصاف للعاملين من إخواننا ، ونشكر للكتاب والشعراء منهم عظيم همتهم ، وصادق جهودهم وغيرتهم ، وقدرتهم على النهوض بصحيفتهم ، التى هى عنوان نشاطهم ، ورمز نبوغهم .

وإنى أقدم للقراء هذا العدد من الصحيفة والذى يليه ، وقد جعلناهما - من بين الأعداد - ذخيرة أدبية خاصة بذكرى المتنبى بعد ألف سنة .

والمتنبى شاعر عبقرى سار ذكره فى الآفاق ، وأثار شعره اهتمام الأدباء والعلماء ، وملأ مجامع الأدب ومحافله .

ومن الحق أن ينال النابغون قسطهم من الإشادة بذكرهم ، والتنويه بمآثرهم ، ونواحى العظمة فى حياتهم . ففى هذا وفاء بحق الراحلين، وإغراء بالمحامد ، وقدوة حسنة للأجيال الحاضرة والقادمة .

وقد قام أبناء دار العلوم بنصيبهم من هذا الواجب ، فجالت أقلامهم فى أفانين المتنبى ، ومناحى حياته البيانية والعقلية والأدبية والتاريخية ؛ ويرى القراء فى هذا العدد ، وفى العدد التالى ، طائفة من المقالات التى جادت بها قرائحهم . وإنا نقدم لهم جزيل الشكر ، ونرجو أن يسدد الله خطانا ، ويوفقنا للخير والرشاد .

نجيب هناء

ذكرى المتنبي

لرئيس التحرير

كانت « جماعة دار العلوم » من أسبق الناس تفكيرا فى الاحتفاء بذكرى المتنبي بعد انقضاء ألف سنة على وفاته ، وقد أرادوا أن يقيموا له مهرجانا عظيما يدعون إليه أعيان البيان ، ورجال الأدب ، ومصاقع الخطباء ، وزعماء الشعر ، وقادة الفكر ، من كل إقليم ينطق أهله بالضاد . ولكن جرت أمور وحدثت أحداث ، تعذر عليهم معها أن ينفذوا مشيئتهم على النحو الذى أرادوه .

وكأنما أراد الله لأبناء دار العلوم ألا يحيدوا عن سنة أسلافهم ، ولا يخرجوا عما اصطلح عليه قادتهم منذ عهد طويل ، من خدمة اللغة العربية وآدابها ، وتقدير كتابها وشعرائها ، بكل ما أوتوا من الوسائل فى غير زهو ولا صخب ، وفى غير رياء ، ولا دعاية للنفس ؛ فتحولت جهودهم إلى تلك الدراسة العميقة ، الهادئة المتعة ، التى تعدّ بحق طابع الباحثين من العلماء ، فقرءوا ديوان المتنبي ـ وما كان واحد منهم يجهله ـ وتناولوه ببحث واسع ، فبدت لهم منه نواح جديدة ، أرسلت أقلام كتابهم ، فجرت إلى غاية يقصر عن دركها سواهم ، وأوحت إلى شعرائهم بالأغاريد ، فانبعثت نغما حلوا يملأ الآفاق ويطرب النفوس .

كنا على أن نجعل هذا العدد وحده فى ذكرى المتنبي ؛ ولكن المقالات التى اجتمعت لنا ، كانت أكثر مما يتسع له عدد واحد ؛ ولما كنا حراصا على ألاّ يحرم الأدب العربى وقراء الصحيفة ثمرة هذه البحوث الناضجة ، رأينا أن تكون هذه المقالات فى عددين متلاحقين .

وكنا رأينا ـ بادئ الأمر ـ أن نضع خطة للبحث منظمة ، بتخير النواحى التى ينبغى أن تشملها الدراسة ، وأن نطلب من زملائنا الكتابة فى هذه النواحى ، ثم عدلنا عن هذا الرأى ، حتى تجرى كل نفس على سجيتها ، ويكتب كل أديب فى الناحية التى يراها هو جديرة بجهوده ، وترتب على انتهاج هذه الخطة أن جاءتنا المقالتان

والثلاثة فى موضوع واحد ، أو مايشبه أن يكون موضوعا واحداً لباحثين مختلفين، وكنا بهذا جد مغتبطين ، فإن الموضوع الواحد يقدم للقارىء فى صور متعددة ، ومن وجهات نظر مختلفة ، فيكون أمتع للنفس ، وأدخل فى باب البحث ، إذ يعرض كل كاتب رأيه ، ويسوق الأدلة ، ويبسط الحجج لتأييده ؛ ومن ذلك نجد لهذه المقالات طابعا يميزها عن سواها ؛ هو أنها دراسة شخصية عميقة لشعر المتنبى ، فى كثير من حرية الرأى، وصراحة القول. فهنيئا للأدب العربى بهذه الثروة الجديدة ، وهنيئاً للمتنبى بأبناء دار العلوم ؛ فقد أشادوا بذكره فى محافل الأدب ، وكانوا رواة شعره ، ورسلَه إلى الناس جميعا .

لقد احتفلت كلية الآداب من الجامعة المصرية بذكرى المتنبى، وأقامت رابطة الأدب العربى مهرجانا عظيما ، أدت به واجب الوفاء لشاعر عبقرى أثرى بشعره الأدب ؛ وإنه ليسرنا أن نسجل هنا ـ اعترافا بأقدار الرجال ـ أن أبناء دار العلوم كانت لهم جولات موفقة فى هذين الحفلين ؛ فكان من بينهم أربعة من خيرة الباحثين فى الحفل الذى أقامته الجامعة ، وأربعة من اللُّسن المقاول فى مهرجان رابطة الأدب العربى .

أولئك آبائى ؛ فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا ـ يا جرير ـ المجامع !

محمد على مصطفى

المتنبي

بقلم شاعر الريف محمود حسن اسماعيل
طالب بدار العلوم

مِزْمارُ جنٍّ بتيهِ الـكَوْنِ مَفْقودُ ... تَصَرَّعَتْ بَعْدَ ما غاب الأناشيدُ
مُغَلَّفٌ في جُيوب الغَيْبِ ، لَجَّ بهِ ... في سَرْمَدٍ مِنْ ظلال الموت تَخْليدُ
تساءلَتْ عنه أرْواحُ الفلاَ ، ومَضَتْ ... تضجُّ من وَحْشةٍ فيها الْجلاميدُ
وأسْبَلَ النَّجْمُ أجْفاناً مُحيَّرَةً ... أمَضَّها من عذاب الْبَيْن تَسهيدُ
مَطْروفةً مِنْ غُبار الدَّهْرِ ، أتْعَبَها ... طُولُ التَّمَلِّي ، وإمْعانٌ ، وتَفْنيدُ
تَرَصَّدَتْ مَوْكِبَ الدُّنْيا، فأزْعَجَها ... أنْ شَلَّ خُطْوتَها في الذَّرِّ تأْييدُ
فأرعشَتْ في الدُّجى أهْدابَها خَبَلاً ... كأنَّما غابَ في سَوْدائها عُودُ !
وَضاعَفَتْ عِلَّةَ الأنسام سَفْرتُها ... جَوَّابةً .. حَظُّها في السَّيْر مَنكودُ
تَمُرُّ بالدَّهْرِ حَيْرَى .. ما تُهامِسُهُ ... إلاَّ ويُرْمِضُها من فِيهِ تنكيدُ
تقولُ : هذا عجيجُ اللَّحْن مُحْتَدِمٌ ... تَرِنُّ في جَرْسِهِ السَّارى الأَغاريدُ
وأين - يازهْرُ - نايٌ كَانَ مُلْهِمَهُ ... ماأسْكَرَ الكونَ من نَجْواهُ ترديدُ ؟
هذا النَّشيد فمُ الدُّنيا يُرَدِّدُهُ ... فأَيْنَ من سِحْرِهِ القيثارُ والعودُ ؟
فطَرَّحَ النَّوْرُ أكْماماً مُخَبَّلَةً ... وقَصَّفَتْ نَفْسَها مِنْهُ الأماليدُ
وذابَ في مَهْدِهِ عِطْرٌ يُؤَرِّجُهُ ... وغابَ مِنْ خَدِّه سِحْرٌ وَتَوْريدُ
وَاهْتزَّ هِزَّةَ أوَّاهٍ ، يُرَنِّحُهُ ... في سَوْرَةِ الذِّكْرِ إِعانٌ وَتَوْحيدُ

وَقالَ: كمْ مرّتِ الأَجْيالُ عابرةً ... ولَحْنُهُ في فمِ الأجْيالِ غِرِّيدُ
لـكنَّها وَجمتْ مِثْلِي، وقد سُئِلَتْ ... وغال تبْيانَها عِيٌّ وتبْليدُ!
وإذْ بعاصفةٍ هوْجاءَ قد صعِقتْ ... لِهَوْلها الجِنُّ، والآطام، والبيدُ
كأنَّها هيْجَةُ الأقدار، مُذْعَصَفَتْ ... ماطاقَها في شِعابِ الأرض موْجودُ
مِنْ مَزْجِ عبْقَرَ قد هبَّتْ مُجَلْجِلَةً ... كأنَّها مِنْ عُتاةِ الْجِنِّ تَهْديدُ
في قلبها نغمٌ. إنْ رَقَّ؛ تحسَبُهُ ... تأويهةً رَدَّها في اللَّيْلِ مَعْمودُ
وإنْ قسَا، فقلوب الناسِ واجفةٌ، ... والأرْضُ لاهِفَةٌ، والكونُ رِعْديدُ
ألقتْ على الزَّمنِ المجْنونِ حِكْمَتَها ... فراحَ يهْذَى بها شَيْخٌ ومَوْلودُ
وأطْرَبتْ مسْمَعَ الدُّنْيا بنَغْمتِها ... كأنَّما نفخَ المِزْمارَ «داوُدُ»
تُلَقِّنُ الفَرِقَ الهيَّابَ سوْرَتَها ... فيغتَدِي وَهْوَ في الْهيْجاءِ صِنْديدُ
صَهْباءُ ماجاورَتْ كأسًا، ولا شُرِبَتْ! ... ولا اسْتَقَلَّ بها في الكَرْمِ عُنْقودُ!
ما زال نَدْمانُها حيْرانَ تَسْكِرُهُ ... ضَلالَةٌ عَنْ مَجانِيها وتشْريدُ
حتى أتى «حَلَبَ» الشَّهْباءَ مُنْتَشِيًا ... وجسْمُهُ من ضَنَى التَّسْيارِ مَهْدودُ
فراعَهُ مارأى من سِحْرِ مَشْهدِها.. ... الخَمْرُ أخْيِلَةٌ، والعقْلُ راقودُ
ومِزْهَرٌ «الْمُتَنبِّي» عازفٌ هزِجٌ ... مُعَلَّقٌ بأَواسِي النَّجْمِ مَشْدودُ
يُفَجِّرُ اللَّحْنَ، إمَّا رَنَّ صادِحُهُ ... خَرَّتْ على وجْهِها مِنْ سِحْرِهِ الصِّيدُ..
فزمزمَتْ شفتاه بُرْهَةً، ومَضَى ... والْقَلْبُ من سَكَراتِ اللَّحْنِ مفْئودُ
يقول: لا تحشدوا عِيداً لذِكْرَتِهِ ... فكل لَحْنٍ شَدَا مِنْ نَايِهِ عِيدُ!

محمود حسن اسماعيل

أبو الطيب المتنبي

نظرات سريعة فى حياته

للدكتور احمد ضيف
الأستاذ بدار العلوم

ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الشهير بالمتنبى ، بالكوفة فى محلة يقال لها « كندة » وإليها ينسب ، وكانت ولادته سنة ٣٠٣ هـ .

وكانت الكوفة مقر علماء اللغة العربية ، وبلاد العراق محط العلم و العلماء ، فمال المتنبى إلى تعلم اللغة العربية ، وأكب على القراءة والدرس ، وكان ذكى الفؤاد قوى الحافظة ؛ فوعى كثيرا من رسائل اللغة ومفرداتها ، وحفظ كثيرا من أشعار العرب وكلامهم ، وأحاط بغريب مفردات اللغة إحاطة تامة .

ذكر ابن خلكان ، أن أبا على الفارسى ، قال له يوما : « كم لنا من الجموع على وزن فِعلى » فأجابه المتنبى : حجلى وظربى . قال أبو على : « طالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا فلم أعثر على شىء » . وقد كان من حبه لمعرفة صحيح اللغة ، أنه ذهب إلى البادية لتعلمها ، ومعرفة الصحيح منها . قالوا : « كان أبو الطيب وهو صبى ينزل فى جوار الكوفة ، وكان محبا لأهل العلم ، وصحب الأعراب فى البادية . وجاءنا بعد سنين بدويا قحا ، وتعلم القراءة والكتابة ، فلزم أهل العلم والأدب ، وأكثر من ملازمة الوراقين ، فكان علمه من دفاترهم . » .

وهذا يدل على مقدار حبه للقراءة والدرس ، ويروون عنه أنه كان قوى الحافظة حتى لقد كان يطيل النظر أحيانا فى الكتاب ، فاذا طواه حفظه وعلق بذهنه ، وهذا ـ على ما فيه من المبالغة ـ يدل على قوة الحافظة لديه .

* * *

وكان أبو الطيب منذ صباه ذا نفس طامحة ، وآمال واسعة ، يرى نفسه فوق النفوس : فطمح إلى أقصى ما يطمح إليه إنسان .

خرج به أبوه إلى بادية « كلب » بالشام فتوسموا فيه هناك الذكاء، وبهرهم بفصاحة شعره، وبلاغة قوله، حتى ظن أنه بذلك قد فاق البدو الخلص.

ثم وجد أن الاضطراب سائد فى أنحاء المملكة الإسلامية، وأنه قد يصير الصعلوك أميرا، والسوقى حاكما؛ فأراد أن يكون أحد كبار الحكام، أوأن يكون أميرا من الأمراء. فقالوا: « إنه ادعى النبوة، واشتهر أمره فى ذلك حتى لقب بالمتنبى. » وذكروا عنه أنه عارض القرآن الكريم بكلمات مسجعة، كما رووا عنه أنه قال: « والنجم السيار، والفلك الدوّار، والليل والنهار، إن الكافر لفى أخطار، امض على سننك، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين؛ فإن الله قامع بك زيغ من ألحد فى الدين، وضل عن السبيل. »

ويروون عنه قصة طويلة، هى أشبه بأسطورة واختلاق، فى ادعائه النبوة، ويقولون: إنه اتبعه جماعة من أهل الشام. وآمن به أناس كثيرون.

وقالوا: إنه كان يدعى أن الأرض تطوى له، وإنه كان يجوب الصحارى، ويقطع الرمال، ويعرف مهاب الرياح، ونسبوا إليه كثيرا من الأفعال والأقوال التى يظهر أنها مختلقة عليه؛ لبعد صدورها من عاقل مثله، قالوا: « ولما اشتهر أمره، وذاع ذكره، وخيف من زعامته، خرج عليه لؤلؤ (أمير حمص من قبل الإخشيد)، وقبض عليه ابن على الهاشمى فى قرية يقال لها « كوتكين » ووضع فى رجله وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف وسجنه. وبعد مدة استتابه وأطلقه. »

ولما خرج من السجن اتصل بكثير من الأمراء، منهم أبو العشائر الحسن بن على ابن حمدان والى أنطاكية. فمدحه بقصائد تعد من غرر كلامه؛ منها قصيدته الشهيرة التى بدأها بقوله:

أَتُرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِى الْمَآقِى

ثم اتصل بسيف الدولة بن حمدان أمير حلب والجزيرة، وقدمه إليه أبو العشائر، وأثنى عليه؛ فعرف سيف الدولة قدره، وحسن موقعه عنده، فقربه، وأجازه الجوائز الثمينة، ومالت نفسه إليه وأحبه. وصاحب أبو الطيب سيف الدولة فى غدواته وروحاته وحروبه، ومدحه بمدائح سار ذكرها فى كل مكان،

ورفعت من أمر سيف الدولة ؛ فزادت منزلة أبى الطيب من نفسه ، وقدمه على غيره حتى وغرت صدور حاسديه عليه ، وحقد عليه منافسوه فى الحظوة لديه ؛ وشعر المتنبى بذلك ، فصار يوجه نظر الأمير إلى مقاصد هؤلاء الوشاة ، ويلتجىء إليه فى التخلص من وشاياتهم ويذكر ذلك فى شعره ، كما قال وهو يمدحه :

أَزِلْ حَسَدَ الْحُسَّادِ عَنِّى بِكَبْتِهِمْ ... فَأَنْتَ الَّذِى صَيَّرْتَهُمْ لِى حُسَّداً

وقال :

وَلِلْحُسَّادِ عُذْرٌ أَنْ يَشِحُّوا ... عَلَى نَظَرِى إِلَيْهِ، وَأَنْ يَذُوبُوا

فَإِنِّي قَدْ وَصَلْتُ إِلَى مَكَانٍ ... عَلَيْهِ تَحْسُدُ الْحَدَقَ الْقُلُوبُ

وكان لأبى فراس الحَمْدانى اليد الطولى فى إثارة غضب سيف الدولة على أبى الطيب ، لحقده عليه ، حتى لقد كان ينقد شعره ؛ ويرميه بسرقة المعانى فى حضرة سيف الدولة ، وكان أبو الطيب يعرّض به فى قصائده ، ويرميه بسهام كلامه أثناء إنشاده بحضرة الأمير ؛ فلما أنشد المتنبى سيف الدولة قوله :

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِى ... وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

قال أبو فراس : فما أبقيت للأمير ، إذ وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة ؟ ؟ تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك ، وتأخذ جوائز الأمير ! وذكر له الشعر الذى سرق منه . وهكذا كان يتعقب أبا الطيب ؛ ليحط من قدره .

ومع شدة إعجاب سيف الدولة بالمتنبى ؛ لم يطق صبرا على ما كان به من كبر وإعجاب بنفسه ، وزاد من ذلك وشاية الواشين . ثم حدث أن جرت مناقشة فى مسائل لغوية ، بين أبى الطيب وأبى عبد الله بن خالويه النحوى ، بحضرة سيف الدولة ، فقال المتنبى لمناظره : اسكت ويحك ؛ فإنك أعجمى ؛ فمالك وللعربية ؟ فأخرج ابن خالويه من كمه مفتاحا وضرب به وجه المتنبى ، فسال الدم على وجهه وثيابه ، ولم ينتصر له سيف الدولة ، فغضب أبو الطيب وفارقه ، وسار إلى دمشق سنة ٣٤٦هـ

وقد كان مدح المتنبي لسيف الدولة، وظهوره هو نفسه بمظهر الزعماء، ثم شيوع أمره بين الناس - مما أثار عليه حقد الحاقدين والحاسدين والمنافسين له، حتى عزموا على التنكيل به. فما رووه في ذلك أنهم كانوا يطاردونه في كل مكان ينزله، وما زالوا به حتى وقع في يد ابن علي الهاشمي، في قرية يقال لها كوتكين فوضع في رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف وسجنه. وقد بقي المتنبي في السجن زهاء سنة ثم أطلق سراحه. أو أنه وفد باللاذقية سنة ٣٢١ هـ على معاذ بن اسماعيل وأخبره بادعائه النبوة، فأخبر بذلك والي حمص، فقبض عليه وسجنه. والروايات مضطربة في ذلك. والمفهوم أن سجنه كان من أجل ميوله وخروجه على الإمارات القائمة، ومن حقد الناس عليه وخوفهم منه.

ولما علم به كافور الإخشيدي (حاكم مصر إذ ذاك) - وكانت دمشق تحت حكمه - استدعاه إلى مصر؛ فرحل إليه، فأكرمه كافور، وطالبه بمدحه، فمدحه كما كان يمدح سيف الدولة، ووضعه في صف الاشراف والنبلاء، مع أنه عبد خصي، وذلك لحاجة في نفسه. ثم طلب إليه أن يوليه (صيدا) من بلاد الشام، أو غيرها من بلاد الصعيد، فأبى كافور عليه ذلك، خوفا من أن يخرج عليه ويستقل بالحكم، وقال: «إن الذي ادعى النبوة لجدير بأن يخرج على مثلي». فوقعت الوحشة بينهما حتى أقام كافور عليه الأرصاد والعيون، فانتهز ابو الطيب الفرصة. ورحل من مصر إلى بلاد فارس، ومدح عضد الدولة بين بويه الديلمي، وابن العميد، ونال منهما الجوائز العظيمة. ثم خرج إلى الكوفة، فعرض له جماعة فيهم «فاتك ابن أبي جهل» فقاتلوه هو ومن معه حتى قتل هو وابنه (محسّد) في «النعامية» بالقرب من بغداد، وكان ذلك لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ٣٥٤ هـ.

***

وقد كان عصر المتنبي - كما هو معروف - عصر اضطراب سياسي وعقلي، ففيه كان انقسام الدولة الاسلامية إلى ممالك وإمارات كثيرة، وقد شغلت الميول والأهواء عقول المسلمين، فكثرت المذاهب والآراء الفلسفية والسياسية والاجتماعية. وظهرت حرية الرأي ومسائل الالحاد، وألبس ذلك كله لباسا دينيا،

ودب دبيب التفرقة بين المسلمين . وكان الشعراء يجيئون ويروحون بين هؤلاء وهؤلاء . وأثرهم ظاهر فى السياسة والاجتماع ، يعتز بهم الأمراء والحكام ، ويتنافسون فى الاختصاص بهم . وكان أبو الطيب من أسبق من جلى فى ميادين الشعراء ، مع ما كان يحمله فى نفسه من إباء وكبرياء ، يرجع إلى صغره ، ومعاشرته لأولاد الأشراف الذين كان يرافقهم فى معاهد التعليم فى الكوفة . فقد قالوا : إنه كان يختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة وتلقّى معهم العلم . ولم يعرف عن المتنبى أنه تلقى العلم فى معاهد معروفة ، ولا درس دراسة منظمة . ولا كان من كبار العلماء أو الفلاسفة فى علم من العلوم ؛ سوى ما كان معروفا عنه من التعمق فى فنون اللغة العربية ، كما سبق ، ولكن مما لاشك فيه . أن انتشار العلوم الفلسفية اليونانية وعلوم الاجتماع ، ونضج الثقافة العربية الاسلامية فى تلك الأيام ، وكثرة الجدل والمناقشات فى المسائل السياسية والدينية — كان له أثر عظيم فى نفس أبى الطيب . وكان بطبعه ذكى الفؤاد ، حاضر الذهن ، قوى الذاكرة ، صفى القريحة ، فوعى من كل ذلك شيئا كثيرا ، وألم بكثير من تلك المسائل ، حتى أصبح ذا ثقافة واسعة ، واطلاع عظيم .

ولكنه استعان بكل ذلك على تغذية شعوره ونفسه الطامحة ، وتقوية ملكة النقد فى نفسه ، حتى أصبح من الغلاة فى ذلك .

***

ليست حياة المتنبى حياة شاعر أديب فحسب ؛ بل حياة رجل سياسى ، أو رجل من أصحاب الاطماع والنفوس الكبيرة والآمال الواسعة . كان يعتقد بحق أنه أجدر من غيره بالاستئثار بالملك ، وإدارة الشؤون العامة ، واكتساب جاه عظيم ، وسلطان كبير ؛ لشدة ذكائه ، وقوة إدراكه ، ورجحان عقله ، وسداد رأيه . وزاد فى طموحه ما كان يراه : من ضعف هؤلاء الحكام من عرب وعجم ؛ واضطراب فى الادارة والسياسة ، واحتقارُه لهؤلاء الناس جميعا ، بين حاكم ومحكوم . ألم يكن أحق بالحكم والزعامة من ذلك العبد الخصىّ (كافور) ؟ ألا يكون أقدر على سياسة الدولة من مثل هؤلاء الحكام ، الذين لا يفهمون ، ولا يعون من سياسة الأمم

سوى السلب والنهب والبطش ؟؟ وهل هذه الأمم التى يقودها مثل هؤلاء الجهلة، يكون فيهم من يضارعه عقلا وسدادة رأى وحكمة وحصافة ؟؟. ثم ما هذا الحظ العاثر الذى ينزل بمثله إلى هذا الدرك؟ وما هذا القدر العجيب الذى يرفع من هو دونه إلى أعلى المراتب ؟؟

هذه الهواجس وأمثالها ـ مما لاشك فى أنها تملأ رأس المتنبى وتستولى على عقله ـ هى التى أملت عليه معانى شعره، وهى التى حفزته ودفعته لأن يبثها فى كلامه. وهى التى هيأت نفسه وأعدتها لأن تكون نفسا متشائمة، مبتئسة صاخبة هذا الصخب، ثائرة ناقمة من العالم وما فيه، حقوداً أحيانا — بل كثيرا — على الناس والوجود وأحوال الاجتماع. ذلك لأنه كان يرى نفسه فوق النفوس، فينظر إلى الناس نظرة احتقار وازدراء، ويطمح إلى أقصى ما يطمح إليه انسان.

وكانت هذه الصفات النفسية والخلقية هى كل شعر المتنبى، أو أن شعر المتنبى هو كل ذلك.

وليس ما يمتاز به شعره من قوة التفكير، وكثرة النظر فى أحوال الناس والحياة، ناشئا من القراءة والدرس كما قلنا، أو معرفة كلام الحكماء والفلاسفة ـ بقدر ما هو منبعث من نفسه، وما تمتلىء به من الحوادث التى وقعت له أو شاهدها، وما كانت تمليه عليه ميوله وأطماعه، وما كان يرمى إليه فى حياته.

وهذه النفس الكبيرة الطامحة، التى دفعته إلى التعبير عما يجول بها، هى التى جعلت شعره فى هذه المنزلة، وهى التى جعلت هذا الشعر حقيقة لا خيالا، وصورا من صور الأحوال النفسية لا صناعة ولا تعملا. والحقيقة — أيا كان مصدرها — إذا اتجهت إلى القلب نالت منه وسكنت فيه؛ لأن هذه الآلام والأطماع والميول، آلام وأطماع وميول لكثير من النفوس البشرية. وهى حنين مرجع، وأنين مبثوث فى قلوب الشعراء، تكشف بها عن غيرها من النفوس البشرية، ولكن ليس كل شاعر قادرا على أن يرسمها رسما جذابا ساحرا، يملك النفوس ويستولى على العقول. وليست بلاغة الشعر فى سبك العبارة ودقة الصناعة اللفظية وحدها، بل فيما يبثه الشاعر بين عباراته من نفثات صدره، وبما

يجول بنفسه، ومن ذلك الروح السرى الخفى المعنوى الذى يمتلكه الفنى وحده فى رسم الحقائق وإبرازها، لأن الشاعر الفنى يرمى إلى غرضين: غرض فنى صرف، وهو ما يدعو إلى الجمال الذى يجلب السرور والاعجاب للقراء، بارتياح النفس إلى المعاني الجزلة، والألفاظ المختارة، وتناسق العبارة، وحسن الأسلوب، وتأنق التراكيب. وغير ذلك مما ذكره العرب ونقادهم من أنواع المعانى والبيان والبديع. وهذا الجزء الفنى من البلاغة، هو أحد أركانها وأكبر دعائمها؛ إذ بدون ذلك لا تعد البلاغة من فنون الجمال فى شىء.

والغرض الثانى هو الحقيقة المنطوية فى غضون ذلك الكلام، التى يكشف بها الفنى عن كثير من المعانى الخفية فى النفوس، وأسرار الكون، وحقائق الموجودات، والآراء الاجتماعية والفلسفية، وصور الناس والإنسانية. فغرض الشاعر أن يتسرب فى النفوس، ويستولى عليها بجمال الافتنان، ويجذبها إليه بأسلوبه وبيانه، ويهذبها ويثقفها بمعانيه؛ ليرشدها إلى حقيقة من الحقائق الانسانية. ولقد يدرك الفنى ما لا يدركه غيره، لأنه دقيق الإدراك، قوى الملاحظة، سريع الخاطر، تخترق نفسه الحجب، فيرى ما لا يراه غيره، لذلك يمكن أن يكون مساويا للفلاسفة أو الحكماء، فى الإفاضة على الإنسان من أسرار الكون وحقائق الوجود.

ولا شك فى أن أبا الطيب المتنبى من هؤلاء الشعراء.

٭٭٭

لقد اشتهر أبو الطيب بأنه شاعر الحكمة، وقال عنه الأدباء: إنه وصاف للحروب ابتدع فى وصفها وأجاد رسم صورها، كما نظم الحكم والأمثال. والحقيقة أنه جعل شعره مظهرا من مظاهر التفكير الإنسانى، وصورة من صور العقول المفكرة، فأودعه جل ما يجول بالفكر ويمر بالخاطر: من أثر النظر فى الحياة وأحوالها، والناس وأخلاقهم. ولكنه مزج ذلك كله بميوله وأخلاقه. ويكاد يكون كل معنى ذكره فى شعره مصبوغا بتلك الصبغة الخلقية الشخصية، ظاهرة فيه أهواؤه وأغراضه: من نقمته على الدنيا ومن فيها، واستعظامه قدر نفسه والحط من شأن غيره.

ومع أنك تجده شاعراً، فيلسوفا، كبير النفس، عالى الهمة: تجده قد نزل بنفسه فمدح وتملق، واحتمل ما قد يكون من جراء ذلك من كذب صراح، أو ما يجعله عرضة للطعن فى أخلاقه؛ كما يرى ذلك من مدحه وذمه لشخص واحد؛ حيث يرتفع به مرة إلى السماء، وينزل به أخرى إلى الدرك الأسفل: كما فعل فى مدائح كافور

ولكنه مع ذلك، شاعر فذ فى أسلوب التفكير وانتحائه منحى جديدا فى الشعر العربى منبعثا من نفسه الفياضة، المملوءة بالمعانى النفسية والاجتماعية، لا بالأخيلة والألفاظ. وتجد ذلك فى كل أنواع شعره. وكثيرا ما تغلب هذه النزعة عليه، فإذا مدح خيل أحيانا أنه لا يريد بكلامه مدحا، وإنما يتخذ ذلك وسيلة لينفس بها عما فى نفسه ويكشف عما بها، وكأنه نسى أنه يمدح إنسانا يرجو منه الخير أو العطاء، بل يشكو الزمان وأحواله، ويذم الناس والحياة، ويغضب من الأقدار، وتجول نفسه جولات فى كل معنى من هذه المعانى، وقد نسى موقفه واستسلم لنفسه الهائجة الثائرة الناقمة. فإذا أفرغ جعبته من ذلك، رجع إلى المدح وقد هدأت نفسه، وأخذ يكيل الثناء لممدوحه كيلا: كما قال يمدح المغيث بن على بن بشر العجلى:

فُـؤَادٌ مَا تُسَليهِ الْمُدَامُ ... وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ
وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ ... وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَامُ
وَمَا أَنَا مِنْهُمُو بِالْعَيْشِ فِيهِمْ ... وَلَـكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
أَرَانِبُ غَيْرَ أَنَّهُمُ مُلُوكٌ ... مُفَتَّحَةٌ عيُونُهُمُ نِيَامُ
بِأَجْسَامٍ يَحَرُّ الْقَتْلُ فِيهَا ... وَمَا أَقْرَانُهَا إِلاَّ الطَّعَامُ
وَخَيْـلٍ مَا يَخِرُّ لها طَعِينٌ ... كَأَنَّ قَنَا فَوَارِسِهَا ثُمَامُ
خَلِيلُكَ أَنْتَ، لاَمَنْ قُلْتَ خِلِّي ... وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالْـكَلاَمُ
وَلَوْ حِيزَ الْحِفَاظُ بِغَيْرِ عَقْلٍ ... تَجَنَّبَ عُنْقَ صَيْقَلِهِ الْحُسَامُ
وَشِبْهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ ... وَأَشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ

وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إلاّ ذُو مَحَلٍّ تَعَالَى الْجَيْشُ وَانْحَطَّ الْقَتَامُ
وَلَوْ لَمْ يُرْعَ إلاّ مُسْتَحِقٌّ لِرُتْبَتِهِ أَسَامَهُمُ الْمُسَامُ

ويصف لك الخلق المذموم المعروف فى الناس، ويشرح لك موقفه وهو يريد أن يرشد العالم إلى ما يجب اتباعه فيقول:

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
يُحِبُّ الْعَاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِي وَحُبُّ الْجَاهِلِينَ عَلَى الْوَسَامِ
وَآنَفُ مِنْ أَخِي لِأَبِي وَأُمِّي إذَا مَا لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الْكِرَامِ
أَرَى الْأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيرًا عَلَى الْأَوْلَادِ أَخْلَاقُ اللِّئَامِ
وَلَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ بِأَنْ أُعْزَى إلَى جَدٍّ هُمَامِ
عَجِبْتُ لِمَنْ لَهُ قَدٌّ وَحَدٌّ وَيَنْبُو نَبْوَةَ الْقَضِمِ الْكَهَامِ
وَمَنْ يَجِدُ الطَّرِيقَ إلَى الْمَعَالِي فَلَا يَذَرُ الْمَطِيَّ بِلَا سَنَامِ
وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

وينعى على الانسان أمله فى الحياة، وينكر على طبيعته الزهد. ويتهمه بعدم القناعة إلا عند العجز، وهو يظهر جلده وتحمله لأعباء الحياة، ويصور نفسه زاهدا فى الدنيا، أو متحملا لأشد أعبائها فيقول:

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا؟ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إلَى الْوِصَالِ
نَصِيبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ
رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فَصِرْتُ إذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

وَهَانَ ، فَمَا أُبَالِي بالرَّزَايَا لأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بأَنْ أُبَالِي

وينكر بعض أخلاق الناس فيرسمها فى كلامه ، ويعقب عليها برأيه ، كأنه حكيم يقول الحكمة . فيكون كلامه مثلا سائرا كقوله :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمُ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا ؟

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا

مُضِرٌّ ، كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

ويرثى ، فتراه ينظر نظرات بعيدة فى الحياة وأحوال الناس ، ويضع الرفيع فى كلامه أمام الوضيع ، والعامة والخاصة فى ميزان واحد ، ويذكّر الإنسان بنهاية هذه الحياة ومآل الناس فيها ، ويتعمق فى الخيال ، ويغلظ فى القول ، ويقسو فى إبراز المعانى ، حتى يحملك على الزهد واحتقار الدنيا ؛ فيقول :

نَحْنُ بَنُو الدُّنْيَا ، فَمَا بَالُنَا نَعَافُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ

تَبْخَلُ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا عَلَى زَمَانٍ هُنَّ مِنْ كَسْبِهِ

فَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَوِّهِ وَهَذِهِ الْأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ

لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ

يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ مِيتَةَ (جَالِينُوسَ) فِي طِبِّهِ

وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمْرِهِ وَزَادَ فِي الْأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ

وَغَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي سِلْمِهِ كَغَايَةِ الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ

فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فُؤَادُهُ يَخْفِقُ مِنْ رُعْبِهِ !

وليس فى وسعنا الآن أن نقول كل شىء عن المتنبي وشعره ، فنكتفى بذلك .

احمد ضيف

نشأة المتنبى

للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار
ناظر مدرسة عثمان ماهر باشا
(والأستاذ بدار العلوم سابقا)

نسبه : اختلف النسابون فى نسبه ، فقيل هو أبو الطيب أحمد بن الحسين ابن الحسن بن عبد الصمد الجعفى الكندى الكوفى المعروف بالمتنبى الشاعر المشهور .

وقيل هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار

لا أعلم فى شعراء الاسلام رجلا تناوله الناس من العلماء والأدباء بالتحليل لنفسه ، ونقد شعره وتقريظه ، كأبى الطيب المتنبى ، وأبى العلاء المعرى . وفى كل جيل تظهر لأهل الأدب مباحث فى نواحيه المختلفة ، وآراء ومذاهب فيه وفى شعره وفنونه التى طرقها وشهر بها . وقد مضى على وفاته ألف سنة ، والناس لم ينتهوا فى شأنه إلى أمر يحسن السكوت عليه . وسوف تمر الف سنة والف سنة وذكر المتنبى جديد ، والبحث فى نفسيته وعقليته وعواطفه وميوله وحكمته وشجاعته وغزارة علمه متواصل ومتدارك ، وسيسمع غيرنا بعدنا آراء أدباء زمنهم فيه وفى شئونه ونواحيه المختلفة ، بكيفية لم تطرق أسماعنا ولم يعرفها من قبلنا . فان الرجل بحق ترك فى الناس دويا هائلا كما قال

وَتَرْكُكَ فِى الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تَدَاوَلُ سَمْعَ المرْءِ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ

وإنى لأرى من الأثرة أن ينفرد أبو العلاء المعرى بأن الناس يكررونه ليفهموه ، فقد شاركه فى هذا الوصف الذى يدل على العبقرية والنبوغ الفائقين أبو الطيب المتنبى إذ يقول المعرى :

يكررنى ليفهمنى رجال كما كررت معنى مستعادا

وعلى ذكر أن الناس يكررون المتنبي ليفهموه أقول: إنى رأيت كتابة لأحد الأدباء وقد تكلم على ما ذكره بعض الشعراء فى أبيات، من أن أبا المتنبى كان يبيع الماء فى الكوفة، فوقف ذلك الأديب يتساءل، من أين جاءت للمتنبي هذه النزعة العالية، نزعة التطلع إلى الإمرة، وتبوء عرش الملك وقد نبت فى بيئة وضيعة، وامتهن مهنة وضيعة، وهى بيع الماء، وليس من شأن من كان كذلك أن تنزع به همته إلى معالى الأمور؟ وإنى أجيب ذلك الأديب الفاضل بما يأتى:

أولا: بأنه أخذ قول خصوم المتنبي حجة عليه وبرهانا ثابتا، لا يقبل النفى، دون أن يقدم ذلك الهاجى، أية حجة على ما رمى به المتنبي، من أن أباه كان يبيع فى الكوفة الماء؛ فكان من حقه أن يتثبت قبل أن يقطع.

ثانيا: أنى لا أرى ما رأى، من أن بيع الماء أمارة من أمارات المهانة؛ فقد يكون احتراف بيع الماء إنما نشأ عن نزعة كبرياء، وعلو فى النفس، عزفت به عن الوقوف موقف الذلة، يسأل كريما أو بخيلا يعطى أو يمنع. وقد تذكرت (والشىء بالشىء يذكر): أنه كان يوجد فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، رجل يسن السكاكين والمقاصّ بالأجر، على مسن له؛ وكان اسمه عبد المجيد السنان؛ وكان الرجل إذا فرغ من عمله، وحصل رزقه، يخلع ملابس الاعتمال، ويلبس عمامة عراقية، وملابس تشبه ملابس العلماء فى اسطنبول، ويجالس العلماء الفضلاء، ويباحثهم فى بعض مباحث علم الكلام، ويظهر بمظهر المتفوق الفالج بالحجة. فوقع إلى المنصورة واتصل بمفتيها، الشيخ محمد راضى الكبير، وكان عالما فاضلا. ووُجد السنان فى مجلس لمدير الدقهلية، المرحوم خليل عفت باشا. فقال له الباشا: إذا كنت على شىء من العلم، فلماذا تحترف حرفة سن السكاكين، وهى حرفة حقيرة؟ فقال له: إنى بهذه الحرفة أكسب عيشى بعمل يدى؛ وأكرم نفسى عن أن أقف ببابك، أو بباب غيرك سائلا، فيعطينى أو يردنى.

وغضب الباشا على المفتى، لانتصاره لهذا الرجل؛ فكتب إلى نظارة الحقانية أن المفتى يروج آراء رجل زنديق، ينشر الإلحاد فى مديرية الدقهلية؛ فما كان من نظارة الحقانية إلا أن رفتت المفتى، دون تحقيق ولا تبين. وجاء المفتى وقابل ذوى

الحل والعقد ، فعين مدرسا فى الأزهر ، وعرف له القائمون على الأزهر فضله ، وأجرى عليه مالا ينقص عن مرتبه الذى كان يتقاضاه ، وقد كتب الشيخ السمهودى من علماء المنصورة كتابا كبيرا فى التشنيع على الرجل السنان ، وعلى المفتى ، انتصاراً لخليل عفت باشا .

وشاهدى فى ذلك : جواب عبد المجيد السنان لعفت باشا ، فليس احتراف الحرفة التى يعتبرها الناس مهينة بالدال على هوان محترفها ، ولا بالذى يطفىء نزوات النفس إلى معالى الأمور ـ وقد كان كناس يكنس الشوارع وينفى عنها الأذى وينشد .

وأكرم نفسى : إننى إن أهنتها وحقك ـ لم تكرم على أحد بعدى

فسمعه إنسان فقال : له الويل ؛ وأى هوان تكرم نفسك عنه ، وأنت على هذه الحال ؟ فقال له الكناس : أكرمها عن الوقوف على باب بخيل مثلك .

وبعد هذا . فان أبا الطيب قد أجاب ذلك الأديب بقوله :

وَكَمْ مِنْ غُلَامٍ عَلَّمَ المجدَ نفسَهُ ! كَتَعْلِيمِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنَ وَالضَّرْبَا

من قصيدته التى مطلعها :

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ ، وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا

فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا

نشأ المتنبى بالكوفة ، وقدم الشام فى صباه ، واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها ، وكان من المكثرين من نقل اللغة ، والمطلعين على غريبها وحوشيها ؛ لا يسأل عن شىء إلا استشهد عليه بكلام العرب من النظم والنثر ؛ حتى قيل إن الشيخ أبا على الفارسى ، صاحب الايضاح والتكملة ، قال له يوما : كم لنا من الجموع على وزن فِعلى؟ فقال المتنبى فى الحال : حجلى ، وظربى . قال الشيخ أبو على : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا فلم أجد .

كان المتنبى خصب الذهن ، سريع الخاطر ، جزل الألفاظ ، غواصا على المعانى ،

والحكم، ينظمها ويسيرها فى الناس؛ وغزله جيد على قلته؛ أما وصفه للأشياء الطبيعية أو المرئية والابل والصحارى والجبال والحرب والطعان، فيأتى، من وراء الغاية

كان المتنبى متبرما بالزمن الذى لم يساعفه على بلوغ مراده، وبملوك زمانه؛ لأنه كان يراهم دونه فى الفهم والعلم وسائر المواهب التى تكون بها السيادة، وقد تبنكوا فى العروش، وعصبت برءوسهم التيجان، وأطلقت أيديهم فى الأموال التى يجبونها من الرعية، ويده صفر من كل ما أوتوا؛ وكان متأففا من شعراء دهره الذين يحقدون عليه، ويغمطونه حقه، ويذمونه بألوان المذام، ويحقرون أصله، وهو تارة يحقر شأنهم ويلغى ذكرهم (كما ألغيت فى الدية الحوارا) وتارة يسم آنافهم بهجوه، ولا ينظر إليهم إلا من عل.

فمن قوله فى شعراء دهره:

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّى ... وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالَا ؟

وقوله:

خَلِيلَىَّ إِنِّى لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ ... فَلِمْ مِنْهُمُ الدَّعْوَى وَمِنِّى الْقَصَائِدُ ؟

فَلَا تَعْجَبَا ، إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ ... وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدُ

ومن قوله فى حساده:

أَزِلْ حَسَدَ الْحُسَّادِ عَنِّى بِكَبْتِهِمْ ... فَأَنْتَ الَّذِى صَيَّرْتَهُمْ لِى حُسَّدَا

وقوله:

بَلَغْتُ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ النُّورِ رُتْبَةً ... أَنَرْتُ بِهَا مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ

إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُو بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ ... أَرَاهُ غُبَارِى ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : الْحَقِ

وَمَا كَمَدُ الْحُسَّادِ شَيْئًا قَصَدْتُهُ ... وَلَكِنَّهُ مَنْ يَزْحَمِ الْبَحْرَ يَغْرَقِ

وقوله:

وَمَا لِكَلَامِ النَّاسِ فِيمَا يَرِيبُنِى ... أُصُولٌ ، وَلَا لِلْقَائِلِيهِ أُصُولُ

أُعَادِى عَلَى مَا يُوجِبُ الحبُّ للفتى ... وَأَهْدَأُ ، والأفكارُ فِيَّ تجولُ

وقوله :

أَفِى كُلِّ يومٍ تَحْتَ ضِبْنِى شُوَيْعِرٌ ... ضَعِيفٌ يُقَاوِينى ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ ؟

لِسَانِى بِنُطْقِى صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ ... وَقلبِى بِصمْتِى ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ

وَأَتْعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لاَ تُجِيبُهُ ... وَأَغْيَظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لا تُشَاكِلُ

والذى يدل على قدر المتنبى وفضله، وبلوغه الغاية التى لا يدانيه فيها أحد من خصومه (مهما علوا وكرموا) ممن عاصروه أو عاشوا بعده إلى يومنا الحاضر. أنهم وسموه بكل أنواع العيوب ، ونسبوا إليه ما قدروا عليه من التيه والكبر ، والبخل والحرص على المال ، وضعة الأصل ، والتقلب فى المبادىء والأخلاق . ومع ذلك كله ، لم تنس الأيام الناس ذكره ، ولم تمنع الأدباء من التمثل بأبياته ، والاستشهاد بما سير فى الناس من أمثال ، وما أشاعه فيهم من الحكم الغالية ، والنصائح العالية ، وشعره فى المدح والقدح سلوة كل منشد ، وأغنية كل غريد مردد . فهو جديد على مرور الأيام ، وكرور الأعوام ، لم تُبْلِ الأيام جدته ، ولم تخلق ديباجته ،

ولم يزل الناس ، يفتخر الواحد منهم ، بأن يقول : قال أبو الطيب كذا ، أو قال المتنبى كذا ، ويأتى بالدرر اليتيمية من أقواله ، يفصل بها عقود مدحه أو قدحه. ولا نجد أحدا يقول : قال شيوخ ابن خلدون ، أو قال فلان أو فلان من خصومه والشانئين له ، والزارين عليه من أهل جيله أو من بعدهم.

ولقد أدركنا المرحوم الشيخ احمد أبو القزح ، شاعر دمنهور فى القرن التاسع عشر ، وهو إذا نظم شطر بيت أعجبه معناه أو بيتا راقه حسنه ، قام واقفا متبخترا وهو يقول : والله ما قال مثله المتنبى ، وهو لا يأبه لغيره ، ولا يجرى لسانه بذكر أحد من حساد المتنبى والحاقدين عليه إهانة لهم ، وتنزيها لشعره أن يقاس بشعر أحد سواه .

وأما قوله فى الملوك و تكبره عليهم ، فقد جاء فى ذلك قوله :

وَجَنَّبَنِي قُرْبَ السَّلَاطِينِ مَقْتُهَا ... وَمَا يَقْتَضِينِي مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّسْرُ
وَإِنِّي رَأَيْتُ الضُّرَّ أَحْسَنَ مَنْظَرًا ... وَأَهْوَنَ مِنْ مَرْآى صَغِيرٍ بِهِ كِبْرُ

و قوله :

مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ غَدًا ... وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ

وقوله :

فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً ... فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ
وَتَضْرِيبُ أَعْنَاقِ الْمُلُوكِ وَأَنْ تُرَى ... لَكَ الْهَبَوَاتُ السُّودُ، وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ

و قوله :

وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ ؛ وَمَا ... تفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبٌ ... وَلَا عُهُودٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَمُ

ولقد علم الخاص والعام ، أن أبا الطيب كان متقلبا فى أخلاقه ، لا يصبر على طعام واحد ، ولا يتحاشى أن يذم بعد مدح ، وأن يطرى بعد قدح ، ولكن هل كل ذلكم يصرف وجوه الناس عن شيء مما فى قوله من الأدب؟ لا، بل كان كل ذلك حاديا للناس على التقاط الحكمة من أصداف أقواله ، مغريا لهم بالازدياد من النهل من معينه ، والاعجاب بما تضمنه قوله من صنوف الأغراض فى كل باب ؛ يشهدون له بالبراعة فى كل باب طرقه . وأما الناظرون إلى الأخلاق النفسية والفضائل المكتسبة والفطرية ، فقليلون فى جنب من يعجبون بأقواله على أى حال صدرت، وفى أى غرض وردت .

عبد الوهاب النجار

ثقـــافة المتنبي

بقلم على النجدى ناصف

مفتش المعارف بلوى

لما ترعرع المتنبي ، واشتد عوده ، دفعه أبوه إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ؛ فتعلم فيه دروس العربية شعرا ولغة وإعرابا (١) . وليس فى الكتب التى بين أيدينا ما يشير إلى أنه حفظ القرآن الكريم ، بل إن فى بعضها ما يساعد على ترجيح أنه لم يكن يحفظه ، ولا ينشط لقراءته . حدث على بن حمزة البصرى أنه ابتلى من المتنبى خصالا بعضها ذميم ، والآخر حميد ؛ فمن خصاله الذميمة أنه لم يكن يصلى ، ولا يقرأ القرآن (٢) .

نعم ، فى غير موضع من شعره إشارات إلى بعض قصص القرآن : مثل قوله :

لَوْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ ... لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ ـ صِرْنَ شُمُوسَا

أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازَرَ سَيْفُهُ ... فِى يَوْمِ مَعْرَكَةٍ ـ لَأَعْيَا عِيسَى

أَوْ كَانَ لُجُّ الْبَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ ... مَا انْشَقَّ حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوسَى

وقوله :

لِمَنْ مَالٌ تُمَزِّقُهُ الْعَطَايَا ... وَيُشْرَكُ فِى رَغَائِبِهِ الْأَنَامُ؟

وَلَا نَدْعُوكَ صَاحِبَهُ فَتَرْضَى ... لِأَنَّ بِصُحْبَةٍ يَجِبُ الذِّمَامُ

تُحَايِدُهُ كَأَنَّكَ سَامِرِىٌّ ... تُصَافِحُهُ يَدٌ فِيهَا جُذَامُ

(١) خزانة الادب : ٢ : ٣٠٣ (٢) الصبح المنبى : ١ : ٧٧ بتصرف .

وقوله :

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فى مَسَامِعِهِ ... قَمِيصُ يُوسُفَ فِى أَجْفَانِ يَعْقُوبِ

ولكن ذلك لا ينهض وحده دليلا على حفظه القرآن ، فقد يكون كل ما قاله فى هذا الباب مجرد أثر من آثار ثقافته ودراسته ، بل من آثار بيئته الخاصة (١) ونشأته الإسلامية ليس غير .

وبعد أن استوفى حظه من الكتاب ، خرج إلى البادية ، فلبث سنين فى أهلها يعيش بينهم ، ويأخذ عنهم اللغة والبيان(٢). ولعله كان يعنى منازله بالبادية كلها أو بعضها فى قوله :

دَرَّ دَرُّ الصِّبَا ! أَأَيَّامَ تَجْرِ ... رِ ذُيُولِى بِدَارِ (أَثْلَةَ) ، عُودِى

وقوله :

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ (الْعُذَيْبِ وَبَارِقٍ) ... مَجَرَّ عَوَالِينَا ، وَمَجْرَى السَّوَابِقِ

وَصُحْبَةَ قَوْمٍ يَذْبَحُونَ قَنِيصَهُمْ ... بِفَضْلَةِ مَا قَدْ كَسَّرُوا فِى الْمَفَارِقِ

وَلَيْلاً تَوَسَّدْنَا (الثَّوِيَّةَ) تَحْتَهُ ... كَأَنَّ ثَرَاهَا عَنْبَرٌ فِى الْمَرَافِقِ

فإذا صح ذلك يكون الشاعر لم يمعن فى البادية ؛ لأن هذه الأماكن غير بعيدة من الكوفة ، فدار أثلة ، والعذيب ، وبارق مواضع بظاهر الكوفة . وبين الثوية والكوفة ثلاثة أميال(٣) .

وكان وهو فى الكوفة يغشى مجالس العلماء والأدباء ، ويختلف إلى الوراقين ، يروى نفسه الظامئة ، ويستوفى حظه من الثقافة والتهذيب . ولسنا نعرف من أساتيذه فيها إلا أستاذين اثنين : حدث البغدادى عن أحدهما ، قال : كان المتنبى

---

(١) كانت جدته تقية صالحة ، ويظهر أنها كانت تقرأ ، كما يفهم من قوله :

تعجب من لفظى وخطى كأنما ... ترى بحروف السطر أغربة عصما

(٢) الصبح المنبى : ١ : ٦ (٣) شرح العكبرى : ١ : ١٩٤ ، ١ : ٤٣٦

فى صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة ، من المتفلسفة ، فهوسه وأضله كما ضل(١) وقد بحثت طويلا عن أبى الفضل المذكور ، مستنيرا بما ذكر البغدادى من سماته ، فلم أعثر له على عين ولا أثر .

وأما الآخر فأبو الحسن ، المعروف بالناشىء الأصغر ، أحد الشعراء المصنفين . وقد حدث عن نفسه ، قال : كنت بالكوفة سنة ٣٢٥ ، وأنا أملى شعرى فى المسجد الجامع بها . والناس يكتبون عنى . وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم ، وهو بعد لم يعرف ، ولم يلقب بالمتنبى ، فأمليت القصيدة التى أولها :

بِآلِ مُحَمَّدٍ عُرِفَ الصَّوَابُ ‏ ‏ ‏ وَفِى أَبْيَاتِهِمْ نَزَلَ الْكِتَابُ

وقلت فيها :

كَأَنَّ سِنَانَ ذَابِلِهِ ضَمِيرٌ ‏ ‏ ‏ فَلَيْسَ عَنِ الْقُلُوبِ لَهُ ذَهَابُ

وَصَارِمُهُ كَبَيْعَتِهِ بِخُمٍّ ‏ ‏ ‏ مَقَاصِدُهَا مِنَ الْخَلْقِ الرِّقَابُ(٢)

فلمحته يكتب هذين البيتين ، ومنهما أخذ ما أنشدتمونى الآن من قوله :

كَأَنَّ الْهَامَ فِى الْهَيْجَا عُيُونٌ ‏ ‏ ‏ وَقَدْ طُبِعَتْ سُيُوفُكَ مِنْ رُقَادِ

وَقَدْ صُغْتَ الْأَسِنَّةَ مِنْ هُمُومٍ ‏ ‏ ‏ فَمَا يَخْطِرْنَ إِلاَّ فِى فُؤَادِ(٣)

وروى أبو الحسن العلوى أن وراقا كان يجلس إليه المتنبى ، قال : ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان ، فقلت له : وكيف ؟ فقال : كان اليوم عندى ، وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعى (سماه الوراق ، ونسيه أبو الحسن) يكون نحو ثلاثين ورقة ؛ ليبيعه ، قال : فأخذ ينظر فيه طويلا ، فقال له الرجل : يا هذا ، أريد بيعه ، وقد قطعتنى عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه من هذه المدة فبعيد . فقال له : إن كنت حفظته فما لى عليك ؟ قال : أهب لك الكتاب . قال : فأخذت الدفتر من يده ، فأقبل يتلوه على إلى آخره ، ثم استلبه فجعله فى كمه ، وقام ،

(١) خزانة الادب : ٢ : ٣٠٦ (٢) خم : مكان

(٣) معجم الادباء : ٥ : ٢٣٩ ، و ٢٤٠ -

فعاق به صاحبه ، وطالبه بالثمن ، فقال : ما إلى ذلك سبيل ؛ قد وهبته لى . قال : فمنعناه منه ، وقلنا له : أنت شرطت على نفسك هذا للغلام . فتركه عليه (١) .

وتعد هذه النادرة من أعدل نوادر الأذكياء ، وأدخلها فى باب المعقول ، إذا قيست بنظائرها ، مما يروى عن أمثال عبد الله بن عباس ، وبديع الزمان الهمذانى . وأبى العلاء المعرى ، وغيرهم من الأذكياء المشهورين . وهى على أى حال دليل على أن الغلام كان ألمعيا لقِنا ، فإن الناس أحرى ألا يعزوا وقائعها إليه إلا إذا آنسوا منه سرعة الحفظ ، وصحة القريحة

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا حتى يروا عنده آثار إحسان

وفى بلاد الشام خرج المتنبى إلى البادية أيضا ، فشافه الأعراب ، وبلغ غايته من اللغة والبيان . وكانت اللغة يومئذ لا تزال صحيحة فى البادية ، وكان علماء اللغة يغتنمون قدوم الفصحاء من أهلها ليحاوروهم فى أساليبها . ويستأنسوا بسليقتهم فى تقرير قواعدها ، واستبانة الصواب فيما استبهم من مسائلها (٢) .

وكان المتنبى محبا للقراءة ، مشغوفا بالكتب : يجمعها ، ويحافظ عليها . حدث وكيل داره بحلب ، قال : كان المتنبى يقبل على دفاتره كل ليلة للدرس والقراءة . وقد لا ياوى إلى فراشه إلا بعد منتصف الليل (٣) . وليس ذلك بكثير ولا مستغرب من الذى يقول :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِى الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِى الزَّمَانِ كِتَابُ

وقال أبو نصر الجبلى فى قصة مقتله : « . . . ووافانى المتنبى ، ومعه بغال موقرة بكل شىء من الذهب والفضة والطيب والتجملات النفيسة ، والكتب الثمينة والآلات . . وكان أكثر إشفاقه على دفاتره . لأنه كان قد انتخبها ، وأحكمها قراءة وتصحيحا (٤) . . . »

---

(١) تاريخ بغداد : ٤ : ١٠٣ (٢) وفيات الأعيان : ١ : ٦٣٥ ، ومعجم الأدباء : ٥ : ٢٨ (٣) الصبح المنبى : ١ : ٧٩ ، ٨ بتصرف . (٤) الصبح المنبى : ١ : ٢٣٥

وصدق أبو نصر ، فقد رأينا ابنه محسدا يفلت وحده من مقتلة أبيه ، ثم لا يكاد يذكر كتبه . ويتمثل له مبلغ حرصه عليها . حتى ينقلب راجعا فى غير روية ولا وعى ، لعله يستنقذها ، فيقتل دونها مع المقتولين .

وقال صاحب إيضاح المشكل : « وكان المتنبى يحفظ ديوانى الطائيين ، ويستصحبهما فى أسفاره . . فلما قتل توزعت دفاتره فوقع ديوان البحترى إلى بعض من درس على » ، وذكر أنه رأى خط المتنبى وتصحيحه فيه (١) .

وقال ابن خلكان فى ترجمة ابن الرومى « . . وكان شعره غير مرتب ، ورواه عنه المتنبى ، ثم عمله أبو بكر الصولى ، ورتبه على الحروف ، وجمعه أبو الطيب (٢) . »

وهؤلاء الشعراء الثلاثة ـ كما لا يخفى ـ من أبعد شعراء العربية صيتا ، وأزكاهم قريحة ، وأكرمهم نتاجا ، وأبرعهم فنا . وما منهم إلا صاحب شأو بعيد ، هو فيه الفارس المجلى ، ومبتدع طريقة فى صناعة الشعر ، يتفرد وحده بالإحسان فيها إلى الغاية القصوى فجملة شعرهم تعد بحق خلاصة الشعر العربى كله ، وأحفل معارضه بآثار البراعة والنبوغ : وبحسبك أن يسهم فيه حبيب بفنه الرائع ، وفكره الدقيق ، وحكمه العالية : والوليد بخياله السرى ، وتصويره الأنيق ، ولفظه الرشيق : وابن الرومى بمعانيه المخترعة ، وتوليده العجيب ، واستقصائه البالغ .

ولم تكن هذه الجملة على ضخامة قدرها وجلالة خطرها ـ كل ما يحفظ المتنبى من الشعر ، لأن الرجل ـ كما علمت ـ كان سريع الحفظ . مشغوفا بالقراءة والتحصيل وسترى فيما نسوقه اليك من أنباء تعلمه ومناظراته أنه كان يحفظ لأبى نواس ، وكثير . والعدوانى . ونذكر هنا أنه كان يكبر شعراء الجاهلية ، ويرى فى أشعارهم المثل الأعلى للشعر قال :

لاَ تَجْسُرُ الْفُصَحَاءُ تُنْشِدُ هَا هُنَا ... بَيْتاً ، وَلَـكِنِّى الْهِزَبْرُ الْبَاسِلُ
مَا نَالَ أَهْـلُ الْجَاهِلِيَّةِ كُلُّهُمْ ... شِعْرِى، وَلاَ سَمِعَتْ بِسِحْرِى بَابِلُ

---

(١) خزانة الأدب : ٢ : ٣٠٦ (٢) وفيات الأعيان : ١ : ٢٤٢

وقال يشيد بفضل النابغة :

سَمِعْتُكَ مُنْشِداً بَيْتَىْ زِيَادٍ نَشِيداً مِثْلَ مُنْشِدِهِ كَرِيمَا
فَمَا أَنْكَرْتُ مَوْضِعَهُ وَلَـكِنْ غَبَطْتُ بِذَاكَ أَعْظُمَهُ الرَّمِيمَا

فلا جرم أنه كان يحفظ لشعراء الجاهلية أيضا ؛ وأنه كما حفظ للعدوانى لم يفته أن يحفظ لامرىء القيس والنابغة وزهير ومن اليهم من شعراء الجاهلية المقدمين . على أننا نلمح فى أنحاء من شعره شواهد غير قليلة تنبث هنا وهناك ، وتشير إلى أنه كان يحفظ لجمع كبير من الشعراء فى كل عصر من العصور .

ثم إنه كان فى كل بلد رحل إليه يلتقى بالعلماء للدرس والمناظرة ، ويقصده الطلاب للرواية والأخذ . فنى حلب لقى طائفة جليلة من أعيان العلماء والأدباء ؛ كابن خالويه ، والفارسى ، وابن جنى ، وأبى فراس ، والرفاء ، والنامى ، وغيرهم . ووقعت له مع كثير منهم مجالس ومجاولات فى مسائل شتى فى العلم والأدب .

روى الطرائفى أن ابن جنى كان يحضر الكثير عند المتنبى فى حلب ، ويناظره فى شىء من النحو (١)

وحدث العكبرى أن المتنبى حضر يوما مجلس سيف الدولة ، وبين يديه ترنج وطلع ، وهو يمتحن الفرسان ، فقال لابن شيخ المِصِّيصة (٢) : لا تتوهم هذا للشرب ، فارتجل المتنبى ثلاثة أبيات ، مطلعها :

شَدِيدُ الْبُعْدِ مِنْ شُرْبِ الشَّمُولِ تُرُنْجُ الْهِنْدِ ، أَوْ طَلعُ النَّخِيلِ

فأنكر عليه ابن خالويه ترنج ، وقال : المعروف أترج ، فاستشهد أبو الطيب برواية أبى زيد أنهما مقولان (٣) .

وقال صاحب وفيات الأعيان فى ترجمة الفارسى : وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة ، وكان قدومه عليه فى سنة ٣٤١ ، وجرت بينه وبين أبى

(١) معجم الأدباء : ٥ : ٢٥ (٢) مدينة على ساحل البحر الرومى ، تجاه طرسوس (وفيات الأعيان : ١ : ٤٧) (٣) التبيان : ٢ : ٧٥ .

الطيب المتنبي مجالس [١] . وقال فى ترجمة النامى : « . . . وله مع المتنبي وقائعُ ومعارضات فى الإنشاء . . [٢] » .

وحدث صاحب الصبح المنبي ، قال : حضر المتنبي مجلس أبى أحمد بن نصر البازيار ، وزير سيف الدولة ، وهناك أبو عبد الله بن خالويه النحوى ، فتماريا فى أشجع السلمى . وأبى نواس البصرى ، فقال ابن خالويه : أشجع أشعر ، إذ قال فى هرون الرشيد ، رحمه الله تعالى :

وعلى عدوك يابن عم محمد رصدان : ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعته ، وإذا غفا سلت عليه سيوفَك الأحلام

فقال المتنبي : لأبى نواس ما هو أحسن فى بنى برمك ، وهو :

لم يظلم الدهر إذ توالت فيهم مصيباته دراكا
كانوا يُجيرون من يعادى منه ، فعاداهمُ لذاكا [٣]

وفى مصر كان المتنبي يختلف إلى جامع عمرو ، فيتسابق النـاس إلى لقائه ؛ لمساجلته ، أو الأخذ عنه ، سواء فى ذلك الوطنى المقيم ، والأجنبى العابر .

حدث ياقوت فى معجمه ، قال : أخبر بعض العلية أن الخطيب أبا الوليد بن عسال حج ، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي ، واستشرف ، ورأى أن لقيته فائدة يكتسبها ، وحلة فخر لايحتسبها ، فصار إليه ، فوجده فى مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلا ، ثم قال : ألا أنشدنى لمليح الأندلس ، يعنى ابن عبد ربه ، فأنشده :

يالؤلؤا يسبى العقول أنيقا ورشاً بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت . ولا سمعت بمثله درا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرتَ إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يامن تقطع خصره من ردفه مابال قلبك لا يكون رقيقا ؟

(١) وفيات الأعيان : ١ : ١٦٣ (٢) وفيات الأعيان : ١ : ٤٦
(٣) الصبح المنبي : ١ : ٦٣ ، و ٦٤

فلما أكمل إنشاده، استعاده منه، ثم صفق بيديه، وقال: يا بن عبد ربه، لقد يأتيك العراق حبوا [١]. وقال أبو الحسن المهلبي النحوى: وقع بينى وبين المتنبى كلام فى قول العدوانى:

يا عمرو، إلا تدعْ شتمى ومنقصتى أضربْك حتى تقول الهامة اسقونى

وذلك أن المتنبى قال: إن الناس يغلطون فى هذا البيت، والصواب اشقونى. من شقأت رأسه بالمشقأة، وهو المشط. قال المهلبى: فقلت له: أخطأت من وجوه: أحدها أنه لم يرو كذلك، والآخر أنه يقال: شقأت بالهمزة، وأيضا فإنى أظنك لا تعرف الخبر فيه، وما كانت العرب تقوله فى الهامة: إنها إذا لم يثأر بصاحبها لاتزال تقول: اسقونى، فإذا ثأروا به سكن كأنه شرب الدم [٢]

ونحن نستبعد أن يقع المتنبى فى هذا الخطأ البين؛ لأن خبر الهامة عند عرب الجاهلية شائع مشهور، والرجل لاشك كان واسع الرواية، خبيرا بمواقع الكلام.

ولما ورد بغداد كان الطلاب يؤمونه حيث يقيم، فيروون شعره، ويقرءونه عليه [٣]. وفيها وقعت المذاكرة المشهورة بينه وبين الحاتمى [٤]. ووقعت كذلك مناظرة بينه وبين أبى الفرج الأصفهانى، بمجلس المهلبى، فى قول كثير:

---

(١) معجم الأدباء: ٢: ٧١ (٢) مات المهلبى بمصر سنة ٣٨٥. معجم الادباء: ٥: ٨١، ٨٢ (٣) تاريخ بغداد: ٤: ١٠٢ (٤) خلاصتها أن المتنبى حين قدم بغداد، كان يتعاظم على أدبائها، ولا يجرؤ أحد منهم على مقارعته، أو التغيير عليه. فاستاء معز الدولة ووزيره المهلبى. ورأى الحاتمى أن لا مناص له من مساجلته. والمغامرة فيما اهتابه غيره، ذيادا عن كرامته، وكرامة إخوانه، والتماسا لرضا الامير ووزيره، فقصد إلى المتنبى، فلم يحسن المتنبى لقاءه، فاغتاظ الحاتمى، وأخذه باللوم أخذا عنيفا، ثم أقبل على شعره ينقده، ويكشف عن معايبه. فعرض المتنبى أمثلة من شعره المستجاد وافتخر بها، فاتهمه الحاتمى بسرقتها ودل على المآخذ التى نقل عنها، ثم انتقلا إلى محاورة قصيرة فى اللغة، لم يلبثا بعدها أن تصالحا. هذا مجملها كما يقول الحاتمى، وتراها مبسوطة فى: معجم الادباء: ٦: ٥٠٤ - ٥١٨، والصبح المنبى: ١: ١٤٤ - ١٧٣ وفيات الاعيان: ١: ٦٤٦

سقى الله أمواهاً عرفت مكانها جُراباً، ومَلْكُوماً، وبَذَّرَ، فالغَمْرَا

أنشدوه جراما بالميم، فقال المتنبي: هو جرابا. وهذه أمكنة قتلتها علما، وإنما الخطأ وقع من النقلة، فأنكره أبو الفرج. ورواية سيبويه، ومحمد بن كيسان النحوى (جرابا) بالباء، كما يقول المتنبي (١).

وفي أرجان، قرأ عليه ابن العميد ديوان اللغة الذى جمعه، وكان يتعجب من حفظه، وغزارة علمه (٢).

وفي شيراز كان الأدباء يغشون مجلسه للدرس والمناظرة، وقراءة شعره عليه، أو نقله عنه (٣). حدث الربعي، قال: كنت يوما عند المتنبي بشيراز، فقيل له: أبو على الفارسى بالباب، وكانت تأكدت بينهما المودة. قال: بادروا إليه، فأنزلوه. فدخل أبو على، وأنا جالس عنده. فقال: يا أبا الحسن. خذ هذا الجزء، وأعطانى جزءا من كتاب التذكرة، وقال: اكتب عن الشيخ البيتين اللذين ذكرتك بهما، وهما:

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَا وَمَشَايِخٍ كَأَنَّهُمُ مِنْ طُولِ مَا التَثَمُوا مُرْدُ

ثِقَالٍ إِذَا لاَقَوْا، خِفَافٍ إِذَ دُعُوا، كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا، قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا(٤)

هذا وصف ثقافة المتنبي، كما رأيناها بمطارحها من بطون الكتب. ولا يسعنا إلا الإقرار بأنه وصف قاصر، لا يسلم من النقص فى بعض نواحيه. فليس فيه مثلا إحصاء للعلوم والفنون التى درسها. أو ألم بأطراف منها، ولو أنه من المفهوم أن رجلا كالمتنبي جد حقيق ألا يفوته شيء من أنواع العلوم والفنون التى ازدهرت فى عصره، يأخذ منها بحظوظ قد تتفاوت بتفاوت الحاجة والملابسات.

فلنرجع إذا إلى شعره، نلتمس فيه سداد هذه الحاجة؛ إنه بها كفيل. فإذا نحن أخذنا فيه من الناحية اللغوية رأينا أكثره فخم الألفاظ. متين التراكيب، محكم الأساليب، ومن ذلك قوله:

---

(١) خزانة الادب: ٢: ٣١٠، ومعجم الادباء: ٦: ٤١٨

(٢) خزانة الادب: ٢: ٣١١ (٣) الصبح المنبي: ١: ٩٠ (٤) الصبح المنبي: ١: ٢١٢، ٢١٣

أُطَاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ
وَحِيداً . وَمَا قَوْلِى كَذَا وَمَعِى الصَّبْرُ ؟

وَأَشْجَعُ مِنِّى كُلَّ يَوْمٍ سَلاَمَتِى
وَمَا ثَبَتَتْ إلاَّ وَفِى نَفْسِهَا أَمْرُ

تَمَرَّسْتُ بِالآفَاتِ حَتى تَرَكْتُهَا
تَقُولُ : أَمَاتَ الْمَوْتُ ، أَمْ ذُعِرَ الذُّعْرُ ؟

وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْأَتِىِّ كَأَنَّ لِى
سِوَى مُهْجَتِى ، أَوْ كَانَ لِى عِنْدَهَا وِتْرُ

دَعِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا
فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

وَلاَ تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً
فَمَا الْمَجْدُ إِلاَّ السَّيْفُ ، وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ

وَتَضْرِيبُ أَعْنَاقِ الْمُلُوكِ ، وَأَنْ تُرَى
لَكَ الْهَبَوَاتُ السُّودُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ

وَتَرْكُكَ فِى الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا
تَدَاوَلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ

ونصادف فى كثير من قصائده ، ولا سيما الأراجيز ـ غرابة فاشية ، تتحول بعض الأحيان إلى معاظلة جافية ، وترخص فى اصطناع الحوشى النافر ، ولو لم

يكن ثمة حاجة داعية ، ولا ضرورة ملجئة . قال يصف فرسا تأخر الكلأ عنه بوقوع الثلج :

كَأَنَّمَا الطُّخْرُورُ بَاغِي آبِقِ ... يَأْكُلُ مِنْ نَبْتٍ قَصِيرٍ لَاصِقِ (١)

كَقَشْرِكَ الْحِبْرَ مِنَ الْمَهَارِقِ ... أَرُودُهُ مِنْهُ بِكَالسُّوذَانِقِ (٢)

بِمُطْلَقِ الْيُمْنَى ، طَوِيلِ الْفَائِقِ ... عَبْلِ الشَّوَى ، مُقَارِبِ المَرَافِقِ (٣)

رَحْبِ اللَّبَانِ ، نَائِهِ الطَّرَائِقِ ... ذِى مَنْخِرٍ رَحْبٍ ، وَإِطْلٍ لَاحِقِ (٤)

مُحَجَّلٍ ، نَهْدٍ ، كُمَيْتٍ ، زَاهِقِ ... شَادِخَةٍ غُرَّتُهُ ، كَالشَّارِقِ (٥)

كَأَنَّهَا مِنْ لَوْنِهِ فِي بَارِقِ ... بَاقٍ عَلَى الْبَوْغَاءِ ، وَالشَّقَائِقِ (٦)

وَالْأَبْرَدَيْنِ ، وَالْهَجِيرِ الْمَاحِقِ ... لِلْفَارِسِ الرَّاكِضِ ، مِنْهُ الْوَاثِقِ (٧)

خَوْفُ الْجَبَانِ فِي فُؤَادِ الْعَاشِقِ

كَأَنَّهُ فِي رَيْدِ طَوْدٍ شَاهِقِ ... يَشْأَى إِلَى الْمَسْمَعِ صَوْتَ النَّاطِقِ (٨)

وقال فى المدح :

جَفَخَتْ ــ وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا ــ بِهِمْ
شِيَمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَغَرِّ دَلَائِلُ (٩)

---

(١) الطخرو : اسم الفرس (٢) المهارق : جمع مهرق : الصحيفة ، معرب .

(٣) مطلق اليمنى : يريد أن لونها يخالف قوائمه الثلاث. الفائق : مفصل رأس العنق

(٤) نائه الطرائق : عالى الاخلاق شريفها . إطل لاحق : خصر ضامر .

(٥) زاهق : متوسط بين السمين والمهزول ، الغرة الشادخة : التى ملأت الوجه ولم تشتمل على العينين . (٦) البوغاء : التراب : الشقائق : جمع شقيقة : الارض فيها رمل وحصى . (٧) الأبردان : الغداة والعشى . وخوف مبتدأ خبره للفارس

(٨) الريد : حرف الجبل . يشأى : يسبق (٩) جفخت : تكبرت وفخرت . وبهم متعلق بجفخت ، وشيم فاعله .

وقال فى الغزل :

أَرَكَائِبَ الْأَحْبَابِ ، إِنَّ الْأَدْمُمَا

تَطِسُ الْخُدُودَ ، كما تَطِسْنَ الْيَرْمَعَا(١)

وقال فيه أيضا :

لَوْ عَدَا عَنْكِ غَيْرَ هَجْرِكِ بُعْدٌ لَأَرَارَ الرَّسِيمُ مُخَّ الْمَنَاقِى(٢)

وقال فى الرثاء :

وَلَّى وَكُلُّ مُخَالِمٍ وَمُنَادِمٍ بَعْدَ اللُّزُومِ ـ مُشَيِّعٌ وَمُوَدِّعُ(٣)

ونحن فيما أسلفنا من الشواهد لم نؤثر باختيارها قصيدة على أخرى ، ولم نرد بإيرادها توضيح غامض ، أو إثبات مشكوك فيه ، فحيثما تقرأ فى ديوانه تلق الدلائل متظاهرة ، تشهد بسعة روايته . وغزارة محفوظه ، إلى الغاية التى لا يدركها إلا قليل . وإنما أردنا مجرد المشاكلة ، ورعاية المساواة بين النظائر فى إزجاء شواهدها جهد ما نستطيع .

وإذا أخذت فى شعره من ناحية الدلالة على مبلغ صاحبه من العلوم اللسانية والفقهية ـ تبينت ولعا بصياغة المشتقات ، وبصرا بأوزانها ومواضع استعمالها ، لا يخطىء جادة الصواب ، كقوله فى المدح :

أَعَزُّ مُغَالِبٍ كَفًّا وَسَيْفًا وَمَقْدُرَةً ، وَمَحْمِيَةً ، وَآلَا

وَأَشْرَفُ فَاخِرٍ نَفْسًا ، وَقَوْمًا وَأَكْرَمُ مُنْتَمٍ عَمًّا ، وَخَالَا

يَكُونُ أَحَقُّ إِثْنَاءٍ عَلَيْهِ عَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِيهَا مُحَالَا

وَيَبْقَى ضِعْفُ مَاقَدْ قِيلَ فِيهِ إِذَا لَمْ يَتْرُكْ أَحَدٌ مَقَالَا

---

(١) تطس : تدق . اليرمع : حجارة بيض صغار ، رخوة . (٢) أراد : أذاب . المناقى : جمع منقية ، وهى السمينة فى عظامها نقى ، وهو المخ . (٣) المخالم المصادق .

فَيَابْنَ الطَّاعِنِينَ بِكُلِّ عَضْبٍ ... مِنَ الْعَرَبِ الْأَسَافِلَ وَالْقِلالا
أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّي ... وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالا ؟
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلالا !

ورأيت إحاطة بارعة بقواعد النحو والصرف، ولبَاقة بينة فى اصطناع القواعد والمصطلحات الفنية، من نحوية كقوله :

تُفِيتُ اللَّيَالِي كُلَّ شَيْءٍ أَخَذْتَهُ ... وَهُنَّ لِمَا يَأْخُذْنَ مِنْكَ غَوَارِمُ
إِذَا كَانَ مَاتَنْوِيهِ فِعْلاً مُضَارِعاً ... مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ

وقوله :

يَتَفَزَّعُ الْجَبَّارُ مِنْ بَغَتَاتِهِ ... فَيَظَلُّ فِي خَلَوَاتِهِ مُتَكَفِّنَا
أَمْضَى إِرَادَتَهُ، فَسَوْفَ لَهُ قَدٌ، ... وَاسْتَقْرَبَ الْأَقْصَى، فَثَمَّ لَهُ هُنَا

وقوله :

وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي جَيلٍ سَوَاسِيَةٍ ... شَرٍّ عَلَى الْحُرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَى بَدَنِ
حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمُ خِلَقٌ ... تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِي اسْتِفْهَامِهَا بِمَنِ

وصرفية، كقوله :

فَعَاشَا عِيشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيَا ... بِضَوْئِهِمَا، وَلَا يَتَحَاسَدَانِ
وَلَا مَلَكَا سِوَى مُلْكِ الْأَعَادِي ... وَلَا وَرِثَا سِوَى مَنْ يَقْتُلانِ
وَكَانَ ابْنَا عَدُوٍّ كَاثَرَاهُ ... لَهُ يَاءَيْ حُرُوفِ أُنَيْسِيَانِ(١)

(١) أنيسيان : مصغر إنسان . يريد : عد ويكاثرك بابنيه ، كأنيسيان : زادته الياءان حروفا ، وصغرته معنى .

وخطية كقوله :

كَمْ وَقْفَةٍ سَجَرَتْكَ شَوْقًا بَعْدَ مَا غَرِيَ الرَّقِيبُ بِنَا ، وَلَجَّ العَاذِلُ
دُونَ التَّعَانُقِ نَاحِلَيْنِ كَشَكْلَتَىْ نَصْبٍ ، أَدَقَّهُمَا ، وَضَمَّ الشَّاكِلُ

وقوله :

جَرَى الْخُلْفُ إِلاَّ فِيكَ ، أَنَّكَ وَاحِدٌ وَأَنَّكَ لَيْثٌ ، وَالْمُلُوكُ ذِيَابُ
وَأَنَّكَ إِنْ قُويِسْتَ ، صَحَّفَ قَارِئٌ ذِيَابًا ، فَلَمْ يُخْطِئْ ، فَقَالَ : ذُبَابُ.

وفقهية ، كقوله:

بَلِيتُ بِلَى الأَطْلاَلِ ، إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا
وُقُوفَ شَحِيحٍ ، ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهْ
كَئِيبًا ، تَوَقَّانِى الْعَوَاذِلُ فِي الْهَوَى
كَمَا يَتَوَقَّى رَيِّضَ الْخَيْلِ حَازِمُهْ
قِفِى تَغْرَمِ الْأُولَى مِنَ اللَّحْظِ مُهْجَتِى
بِثَانِيَةٍ ، وَالْمُتْلِفُ الشَّىْءَ غَارِمُهْ

وآنست توفيقا عجيبا فى استخدام التعليلات البلاغية ، والاستعانة بها على بلوغ غاية الإجادة فى الافتنان ، وحسن التأثير ، كقوله :

نَحْنُ أَدْرَى ، وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْدٍ أَطَوِيلٌ طَرِيقُنَا ، أَمْ يَطُولُ ؟
وَكَثِيرٌ مِنَ السُّؤَالِ اشْتِيَاقٌ وَكَثِيرٌ مِنْ رَدِّهِ تَعْلِيلُ

وقوله :

وَقَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً وَسِرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مَوْلاَهَا
وَمَنْ مَنَايَاهُمُ بِرَاحَتِهِ يَأْمُرُهَا فِيهِمُ وَيَنْهَاهَا

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضُدَ الدّوْلَةِ فَنَّا خُسْرُو شَهَنْشَاهَا
أَسَامِيًا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةً ذَكَرْنَاهَا

وأما إذا أخذت فيه من ناحية الاستدلال على مقدار حظه من سائر العلوم ، فسترى فلسفة عالية فى مثل قوله ، يحلل بعض أخلاق سيف الدولة ، ويلتمس الأسباب السياسية والنفسية لتمرد بعض قبائل العرب وخروجهم عليه :

وَفِيكَ ـ إِذَا جَنَى الْجَانِي ـ أَنَاةٌ تُظَنُّ كَرَامَةً ، وَهِيَ احْتِقَارُ
وَأَخْذٌ لِلْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِى بِضَبْطٍ لَمْ تُعَوَّدْهُ نِزَارُ
تَشَمَّمُهُ شَمِيمَ الْوَحْشِ إِنْسًا وَتُنْكِرُهُ ، فَيَعْرُوهَا نِفَارُ
وَمَا انْقَادَتْ لِغَيْرِكَ فِى زَمَانٍ فَتَدْرِى : مَا الْمَقَادَةُ وَالصَّغَارُ ؟
فَأَقْرَحَتِ الْمَقَاوِدُ ذِفْرَيَيْهَا وَصَعَّرَ خَدَّهَا هَذَا الْعِذَارُ

وقوله فى فلسفة الموت :

إِلْفُ هَذَا الْهَوَاءِ أَوْقَعَ فِى الْأَنْـ ـفُسِ : أَنَّ الْحِمَامَ مُرُّ الْمَذَاقِ
وَالْأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ وَالْأَسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ

وقوله ، وقد ألم بفعل الوهم ، وقوة تأثيره فى النفس :

وَثِقْنَا بِأَنْ تُعطِى ، فَلَوْلَمْ تَجُدْ لَنَا لَخِلْنَاكَ قَدْ أَعْطَيْتَ مِنْ قُوَّةِ الْوَهْمِ

وترى علما بقواعد الديانات ، وأسرار المذاهب فى مثل قوله عن المجوسية :

يَا أُخْتَ مُعْتَنِقِ الْفَوَارِسِ فِى الْوَغَى
لَأَخُوكِ ثَمَّ أَرَقُّ مِنْكِ وَأَرْحَمُ
يَرْنُو إِلَيْكِ مَعَ الْعَفَافِ وَعِنْدَهُ
أَنَّ الْمَجُوسَ تُصِيبُ فِيمَا تَحْكُمُ

وقوله عن المانوية :

وَكَمْ لِظَلاَمِ اللَّيْلِ عِنْدِىَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

وقوله يشير إلى الخلاف بين منكرى البعث ، والمؤمنين به فى خلود الروح :

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لاَ اتِّفَاقَ لَهُمْ
إِلاَّ عَلَى شَجَبٍ ، وَالْخُلْفُ فِى الشَّجَبِ
فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً
وَقِيلَ تَشْرَكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِى الْعَطَبِ

وقال يذكر الدهريين ، والمعطلة ، والقائلين بقدم العالم :

أَلاَ فَتًى يُورِدُ الْهِنْدِىَّ هَامَتَهُ
كَيْمَا تَزُولَ شُكُوكُ النَّاسِ وَالتُّهَمُ
فَإِنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِى الْقُلُوبَ بِهَا
مَنْ دِينُهُ الدَّهْرُ ، وَالتَّعْطِيلُ ، وَالْقِدَمُ

وقوله يذكر النواصب :

إِذَا عَلَوِىٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إِلاَّ حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ

وترى علما بالتنجيم ، فى مثل قوله ، يذكر بعض الكواكب ، ويشير إلى دلالة كل منها ، فى رأى قدامى المنجمين :

وَإِنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ تَرَانِى فَتَعْدِلَ بِى أَقَلَّ مِنَ الْهَبَاءِ
وَتُنْكِرَ مَوْتَهُمْ ، وَأَنَا سُهَيْلٌ طَلَعْتُ بِمَوْتِ أَوْلاَدِ الزِّنَاءِ

وقوله :

أَنَا صَخْرَةُ الْوَادِى إِذَا مَا زُوحِمَتْ وَإِذَا نَطَقْتُ فَإِنَّنِى الْجَوْزَاءُ

وقوله:

لَوْ كَانَ مِنْكَ لَكَانَ أَكْرَمَ مَعْشَرًا زُحَلٌ - عَلَى أَنَّ الكَوَاكِبَ قَوْمُهُ -

وقوله:

وَلَمْ يَخْشَ وَقْعَ النَّجْمِ وَالدَّبَرَانِ نَفَى وَقْعَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ بِرُمْحِهِ

وعلما بالجغرافية فى قوله:

جُودًا، وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا كَالْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا

وقوله:

تَكَسَّبُ الشَّمْسُ مِنْكَ النُّورَ طَالِعَةً

كَمَا تَكَسَّبَ مِنْهَا نُورَهَا الْقَمَرُ

والتاريخ فى مثل قوله:

وَشَفَى رَبَّ فَارِسٍ مِنْ إِيَادِ (١) أَشْمَتَ الْخُلْفُ بِالشُّرَاةِ عِدَاهَا

رَةِ حَتَّى تَمَزَّقُوا فِي الْبِلَادِ وَتَوَلَّى بَنِى الْيَزِيدِيِّ بِالْبَصْـ

وَكَطَسْمٍ وَأُخْتِهَا، فِى الْبِعَادِ وَمُلُوكًا كَأَمْسِ، فِى الْقُرْبِ مِنَّا

وقوله:

وَمِنْ قَوْلِ سَامٍ - لَوْ رَآكَ - لِنَسْلِهِ

فَدَى ابْنَ أَخِي نَسْلِي، وَنَفْسِي، وَمَالِيَا.

والحساب فى قوله:

رَدَّ الْإِلَهُ نُفُوسَهُمْ وَالْأَعْصُرَا وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ، كَأَنَّمَا

(١) الشراة: الخوارج. سموا أنفسهم بذلك: يعنون أنهم اشتروا أنفسهم من الله بالقتال.

نُسِقُوا لنَا نَسَقَ الْحِسَابِ مُقَدَّماً وَأَتَى (فذلك) إذْ أتيْتَ مُؤَخَّراً[1]

والمنطق فى مثل قوله، وقد جاء ببعض ضروب الشكل الأول :

فدًى لكَ مَنْ يُقصِّرُ عَنْ مَدَاكَا فَلاَ مَلِكٌ إذاً، إلاَّ فَدَاكَا

وَلَوْ قُلْنَا : فدًى لكَ مَنْ يُسَاوِى دَعَوْنَا بِالْبَقَاءِ لِمَنْ تَلاَكَا

وقوله كذلك :

إذَا خَافَ مَلْكٌ مِنْ مَلِيكٍ ،أَجَرْتَهُ وَسَيْفَكَ خَافُوا ، وَالْجِوَارَ تُسَامُ

وقوله ، وقد أخذ إخذ المناطقة ، بما أورد من الأدوات التى يكثر دورانها فى الاستدلال ، وإقامة البراهين :

الْيَوْمَ يَرْفَعُ مَلْكُ الرُّومِ نَاظِرَهُ لأنَّ عَفْوَكَ عَنْهُ عِنْدَهُ ظَفَرُ

وقوله :

مِنْ طَاعِنِى ثُغَرِ الرِّجَالِ جآذِرٌ وَمِنَ الرِّمَاحِ دَمَالِجٌ وَخَلاَخِلُ

وَلِذَا، اسْمُ أَغْطِيَةِ الْعُيُونِ جُفُونُهَا مِنْ أَنَّهَا عَمَلَ السُّيُوفِ عَوامِلُ

وقوله :

ذِى الْمَعالِى ، فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تَعَالَى هٰكَذَا ، هٰكَذَا ، وَإلاَّ فلا ، لاَ

هذه بعض مظاهر ثقافة المتنبى ، كما تبدو فى شعره ، ومنها نرى الرجل ضخم المادة اللغوية . مستفيض الرواية والحفظ . متبحراً فى علوم العربية ، عالمابالفلسفة والتاريخ ، والجغرافية ، والفلك ، وأصول الديانات والمذاهب المختلفة ، إلى ماسوى ذلك من أسباب الثقافة العالية لذلك العهد ، وما ظنك برجل تهيأ له فصاحة البادية وثقافة الحضر ، وهو مع ذلك صحيح القريحة ، مستقيم الفطرة ، موصول القراءة والدرس ؟

(١) يقول : سبقك الفضلاء فى الزمن ، ثم جئت فكنت جماع فضلهم ؛ كالحساب: تنسق أولا تفاصيله ثم تجمع جملة واحدة

على أنه ـ وقد طوف فى البلاد ، وتردد بين البوادى والحواضر ـ أتيحت له رؤية كثير من مشاهد الطبيعة الرائعة ، ونتائج الحضارات المختلفة : رأى الصحراء وما فيها من رمال منبسطة ، وحصباء وحجارة منتثرة ، وكثبان وآكام جاثية ، ووهاد وأودية هابطة ، ووحوش تسنح . وزواحف تدب ، وسراب يلمع ، وريح تثور ، وحر يتوهج . وبرد يلسع ، وسماء مجلوة الصفحة ، ساطعة الشمس ، متلألئة النجوم ، باهرة ضياء البدر . وأحس ما للصحراء من رهبة وجلال . وتأثر بما يغشاها من سذاجة وعبوس . ويلتمع فى سمائها من وضاءة وإشراق .

رأى الجبال تنعقد الثلوج على رءوسها ، أو تنحدر سيولا على سفوحها ، ورأى الأبنية الضخام ، تقوم على قواعد الهندسة ، وتزين بالزخارف والتهاويل ، وتحتوى ضروبا من التماثيل والتحف ، ورأى الأشجار الباسقة ، والمزارع المنسقة والبساتين الأنيقة ، والمياه الجارية .

ثم هو قد خالط أجناسا وطوائف ، وجالس الرؤساء والقواد والساسة ، وعرف ضروبا من العادات ، وألوانا من أساليب العيش ، إلى نحو ذلك ، مما يساعد على إيقاظ العواطف ، وتربية الذوق . وتثقيف الذهن ، واتساع أفق المعارف .

ودونك الآن طائفة من أقوال المنصفين من العلماء والنقاد فيه :

قال صاحب إيضاح المشكل : وجملة القول فيه أنه من حفاظ اللغة ، ورواة الشعر (١) وقال الخالديان : كان أبو الطيب المتنبى كثير الرواية ، جيد النقد (٢) وقال الفارسى : ما رأيت رجلا فى معناه مثله (٣) . وقال ابن خلكان : « . واشتغل بفنون الأدب ، ومهر فيها . وكان من المكثرين من نقل اللغة ، والمطلعين على غريبها وحوشيها ، ولا يسأل عن شىء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، حتى قيل : إن الشيخ أبا على الفارسى ، صاحب الايضاح والتكملة . قال له يوما : كم لنا من الجموع على وزن فِعلى ؟ فقال المتنبى فى الحال : حجلى (٤) ،

(١) خزانة الادب : ٢ : ٣١٧ (٢) الصبح المنبى : ١ : ١٧٣ .
(٣) نزهة الالبا . ٣٧٢ (٤) واحده حجلة

وظربى (١) . قال الشيخ أبو على : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال . على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا ، فلم أجد (٢) .

وهذه الأقوال ـ على صدقها ـ لا تتناول من ثقافة الشاعر إلا جانب الرواية والحفظ . والمتنبى ـ كما تعلم ـ لم يكن راوية حافظا فحسب ، فكأن أولئك النقاد لا يعنيهم من ثقافة الأديب إلا الناحية اللغوية وحدها . أما غيرها فليس جديرا أن يلتفت إليه عند تقدير الأديب ، وتحديد منزلته بين الأدباء . ولأمر ما ، عيب على المتنبى أن يتعاطى الفلسفة فى شعره ، فيحيد به عن المألوف الذى سنه القدماء .

وبعد ، فقد كان للمتنبى نثر ، كما كان له شعر . وإنك لتتنسم فى نثره روح العبقرية الذى تجده فى شعره . ويخيل إلىّ أنه لو تفرغ للنثر ، أو نزل له عن قسط من عنايته وإقباله ، لكان بين الكتاب مثله بين الشعراء .

ومن نثره الفنى رسالته البليغة ، التى بعث بها إلى صديق كان يزوره ، وهو مريض بمصر ، فلما أبل انقطع عنه . وهى :

وصلتنى (وصلك الله) معتلا ، وقطعتنى مُبِلاّ ، فان رأيت ألا تحبّب العلة إلىّ ، ولا تكدرَ الصحة علىّ ، فعلت إن شاء الله (٣) .

وهى كما ترى — رسالة تجمع بين وضوح المعنى وسهولة اللفظ ، وتزدان بحظ وافر من جمال الفن ، فى غير تعمل ولا استكراه ، وتفى بالمراد كاملا مع ما فى عبارتها من شدة الإيجاز .

وله كذلك عبارات مرتجلة ، تتسامى فى بلاغتها ، ورشاقة لفظها وإيجازه — إلى مكانة الأمثال السائرة ، والتوقيعات الجامعة . فمن ذلك ، أنه لما دخل على عضد الدولة لأول مرة ، قال : شكرت مطية حملتنى إليك ، وأملا وقف بى عليك (٤) . ولما انصرف عن المجلس أتبعه عضدُ الدولة بعضَ جلسائه ، وقال له : سله ، كيف شاهد مجالسنا ؟ وأين الأمراء الذين لقيهم منا ؟ فكان جواب المتنبى عن جميع ماسمع من ذلك : ما خدمت عيناى قلبى كاليوم (٥) .

على النجدى ناصف

(١) واحده ظربان ، لدويبة كالهرة منتنة الرائحة (٢) وفيات الاعيان : ١ : ٤٤
(٣) المصدر نفسه (٤) خزانة الادب : ٢ : ٣١٤ (٥) الصبح المنبى : ١ : ٢٠٩

سر العبقـــرية فى المتنبى

بقلم طه طه عبد الفتاح
مدرس أول للغة العربية ببنها الثانوية

كما لا ينبت الزرع إلا من بذر ، ولا ينبعث الضوء إلا من مصدر ، كذلك لا تنشأ العبقرية إلا من أصل . والأصل الذى تقوم عليه العبقرية هو الاستعداد الفطرى ، الذى يوهب للإنسان وهو فى طور تكونه ، ويولد معه ساعة يولد ، ويشرف معه على هذه الدنيا .

وكما لا تؤتى البذرة ثمرتها إلا إذا وجدت حولها ما يهيىء لها الإفراخ ، وما يسهل لفرخها النماء حتى يبلغ أشده ، ويُؤتى أكله : كذلك لا ينفطر الاستعداد الفطرى عن العبقرية ، إلا إذا صادفه ما يقويه وينميه حتى يتكامل ، ويتاح له أن يقوم بما هيأه الله له .

وحينئذ لا غنى للعبقرية عن الاستعداد الفطرى ، ولا عن الظروف التى يزكو فيها ويترعرع . فكم فى الناس من خلق ليكون شاعرا مفلقا ، أو سياسيا داهية ، أو قائدا بارعاً ، أو غير ذلك من المواهب التى تتجلى فيها العبقرية ، ولكن قضت عليه الأحوال القاهرة أن يتجه إلى طريق غير طريقه ، فحرم شرف النبوغ ، وحُرم الناس الانتفاعَ بعبقريته . ولله فى خلقه شئون .

أما الاستعداد للعبقرية الشعرية ، فهو الخصائص التى رزقها الشاعر فى قواه النفسية المتصلة بفن الشعر اتصالا وثيقا .

تلك القوة النفسية هى : الإدراك ، والشعور ، والخيال ، والمقدرة على الأداء ، وعلى قدر ما تصطبغ به هذه القوى من خصائص ، وعلى قدر تفاوت الشعراء فى هذه الخصائص ، تكون درجة الشاعر فى فن الشعر ، وتكون منزلته بين الشعراء .

وتلك الخصائص الموهوبة للقوى النفسانية هى أسرار النبوغ والعبقرية ، وهذه الأسرار هى ما نحاول أن نفتش عنه فى نفس المتنبى ، مستعينين بما فى ديوانه من بيان ، لعله يزيح لنا الستار عن تلك النفس البارزة ، التى كانت منذ منذ عشرة قرون تنفث السحر فى الناس ، والتى مافتىء سحرها يلعب بالألباب .

عبقريته الفكرية وأسرارها : —

ظهر أثر تلك العبقرية ، فى هذه الطائفة الفاخرة ، من أشعاره الحكمية ، التى وجدت لها فى أفئدة الناس قبولا حسنا . فاستظهرها الكثيرون ، ورددتها الألسن فى كل مناسبة ، وضربت بها الأمثال ؛ كما جرت بها أقلام الأدباء تضمينا ، واقتباسا واستدلالا .

لقد عرض زهير بن أبى سلمى للحكمة ، وعرض لها أبو العتاهية ، من قبل المتنبى ، وعرض لها أبو العلاء المعرى من بعده . ولكن أبا الطيب المتنبى يفضل زهيراً بالدقة ، ويفضل أبا العتاهية بالدقة والاستنباط ، وهو فيها هادى أبى العلاء وإمامه .

حكمة زهير قريبة الغور ، لا تحتاج إلى كثير من دقة الملاحظة ، وثقوب البصيرة ؛ وما كانت إلا وليدة التجارب الهينة الخفيفة غير المعقدة ؛ فليس فيها غوص إلى خفايا النفوس ، وأسرار الطبائع ، ونحو ذلك مما زاد فى حكمة المتنبى وقد نرى الحكمة مشتركة بين أبى الطيب وزهير ، ولكنك تجد بين الحكمتين خلافا دقيقا ، مصدره أن المتنبى أبعد فى الفكر أمداً من زهير . فزهير يقول :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنَلْنَهُ ... وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

والمتنبى يقول :

يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِى جَهْلِهِ ... مِيتَةَ (جَالِينُوسَ) فى طِبِّهِ

وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمْرِهِ ... وَزَادَ فى الْأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ

تجد المتنبى يجلى لك الحقيقة فى مثال عقد فيه الموازنة بين الجاهل العريق

فى الجهل بوسائل علاج الأدواء، والعالم الحاذق المضروب به المثل فى علاجها، وحكم أن الموت ضربة لازب لكل منهما، وأن الجاهل قد يزيد على العالم عمرا وسلامة. كان مَثَلُهُ مَثَلاً يوضح للناس أن داء الموت ليس له دواء. حتى لِمَنْ يحاربون أسبابه بالعلاج: كالأطباء النُّطُس.

وأما حكمة أبى العتاهية فهى على غزارتها ليس فيها أثر للتفكير والاستنباط، ولكنها - على ما يظهر لمتصفحها - منحصرة فى ناحية واحدة هى ناحية الزهد وذكر الموت والآخرة. وشتان ما بين هذا وحكمة المتنبى.

ولأبى العلاء حكمة، ولكن أبرز شىء فيها - وهو مايتعلق بالمذهب النباتى - ليس من مُسْتَنْبَطِهِ، بل كان فيه معبرا عن مذهب قَلَّدَ فيه الهنود تقليدا. أمّا ما جرى على لسانه من حكمة المتنبى، فالمتنبى فيها إمامه، وهو تلميذه؛ فلقد كان من أشد الناس إعجابا به، وبشعره، وأحرصهم على قراءته وحفظه وشرحه؛ فامتزجت حكمة المتنبي بفؤاده، وسقَتْ بفَيْضِهَا مراكز التفكير فى مخه، فأعدته لأن يستنبط أمثالها، كما كانت هى بذاتها ذخيرة له، يستمد منها، وينفق من مكنوزها. انظر اليه يقول:

خفف الوطء. ما أظن أديم الـ أرض إلا من هـذه الأجساد

ألا تراه قابساً قول المتنبي:

يُدَفِّنُ بَعْضُنَا بَعْضاً وَيَمْشِي أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الأَوَالِي

إن قواعد الأدب التى ندرسها الآن كثيرا ما تكون سببا فى خطأ الشادِينَ فى الأدب عند ما يحاولون تطبيق خصائص عصر من عصور الأدب على كل شاعر من شعرائه؛ كما تكون سببا فى بخس بعض الشعراء فضلهم ومواهبهم. فعلم الأدب يقرر من خصائص العصر العباسى الثانى ذيوع الفلسفة اليونانية وغيرها، ويقرر أن شعراء هذا العصر قد تأثروا بذلك ثم يحاول بعد تقرير هذه القاعدة أن يُرْجِعَ حكمة المتنبي اليها، سواء أرضى المتنبي بذلك أم لم يرض. وفى هذه المحاولة - على ما أرى - تعسف وجحود لمواهب الرجل وفضله.

لم يقصد المتنبي إلى حكمة أرسطو ـ مثلا ـ ويقرضها شعرا . وإلا كان شعره نظما فاترا ، يشبه نظم أبان اللاحق لكليلة ودمنة ، وحكمة المتنبي فى شعره لا يبدو فيها شيء من مثل هذا الفتور والوهن .

وهل دَرَسَ المتنبي فلسفة اليونان وتأثر بها ، فكانت مدرسته التى تخرج فيها . وربى مواهبه حتى نشأت له مَلَكَة نفسية أقدرته على استنباط أشباهها ؟

ليس فيما بين أيدينا من تاريخ المتنبي ما نفهم منه القطع بذلك .

نرى فى القليل من حكمة المتنبي شيئا من المشابهة للحكمة اليونانية . ولكن أكثرها لا تحس فيه هذه المشابهة . وهذا التشابه فى قليلها لا يدل على أن المتنبي نقله عن اليونان ، أو كان متأثرا بفلسفتهم فيه ، إذ لا يمكن الجزم بذلك إلا إذا كان المنقول عن اليونان شيئا لا يستطيع عقل بشرى أن يستنبطه إلا العقل اليونانى : والقول بمثل ذلك هزل وهراء .

إذن لامانع من اعتبار أنّ هذا التشابه مجرد عرض واتفاق ، وأنّ أبا الطيّب قد وصل إلى ما وصل اليه اليونان بهداية فكره المبصر ، وإرشاد عقله المنير : ويدعم هذا الرأى أن الاستقلال جلى فى أكثر حكمة المتنبي . ومن ذا الذى يقول : إن المتنبي لم يكن كاشفا بنفسه عن هذه الحكمة :

وَكَأَنّا لَمْ يَرْضَ فِينَا بِرَيْبِ الدَّهْرِ حَتَّى أَعَانَهُ مَنْ أَعَانَا
كُلَّمَا أَنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاةً رَكَّبَ الْمَرْءُ فى الْقَنَاةِ سِنَانَا

أو لم يكن مُميطاً اللثام عن هذه الحكمة :

أَرَى كُلَّنَا يَبْغِى الْحَيَاةَ لِنَفْسِهِ
حَرِيصاً عَلَيْهَا مُسْتَهَاماً بِهَا صَبَّا
فَحُبُّ الْجَبَانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الْبَقَا
وَحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الْحَرْبَا

ومما يُؤْنس لذلك الرأى ، أن المتنبى ما كان يقصد للحكمة قصدا فى كل شعره ، فقد كان شاعرا مدّاحا ، هجّاء ، فخورا ، وكانت الحكمة تتخلل قصائده فى المدح والهجاء والفخر ، يدعو إليها مقام الكلام ، ويسبقها من المعانى ما يكون تمهيدا لها وتوطئة ، ولكنه تمهيد يجىء عفوا ، بدون قصد ولا تعمل ، فيجذب إليه الحكمة جذبا قويا ، ويقودها إلى ذهن المتنبى قودا طَيِّعاً . ومثل هذه الحكمة لا يمكن أن يَكُونَ من صنع أرسطو ، ولا من بنات المَلَكَات التى غرستها حكمته ، ولكنها من نتاج الطبع السليم . ومن وحى الذكاء الثاقب ، والملاحظة القوية . وانتظام المركز العصبى لقوة تداعى المعانى .

هذه بعض مَجَالِى عبقرية الفكر عند المتنبى ، والافاضة فيها بأ كثر من ذلك تستلزم كثيراً من القول ، وطويلا من الزمان . وأكتفى بأن أشير هنا إلى أن ديوان المتنبى معرض من أفخم المعارض التى تتجلى فيها العبقرية الفكرية . حتى فى غير الفلسفة والحكمة . فهو فى أكثر ما يقوله منطق . فانظر إلى مثل قوله فى مدح سيف الدولة ، تجده يتدرّج بعقلك فى سُلَّم من المنطق ، فينقله من دَرَجة إلى التى فوقها نقلا دَمِثاً حثيثاً ، لا حزُونة فيه ولا تعريج :

وَيُرْهَبُ نَابُ اللَّيْثِ ، وَاللَّيْثُ وَحْدَهُ
فَكَيْفَ إذَا كَانَ اللُّيُوثُ لَهُ صَحْبَا ؟
وَيُخْشَى عُبَابُ الْبَحْرِ ، وَهْوَ مَكَانَهُ
فَكَيْفَ بِمَنْ يَغْشَى الْبِلادَ إذَا عَبَّا ؟

ترى فى حكمة المتنبى ، ومنطقه العقلى فى غير الحكمة مظهرا جليلا لعبقرية فكره . وهذا المظهر ـ على جلاله ـ شفاف لا يحول بيننا وبين اكتناه الأسرار التى تلمع من ورائه .

ألاَ تلمح من وراء هذا المظهر الذكاءَ الفطرىَّ الذى يتوهج توقّده . والذى ينفذ إلى ما جال بالنفوس من سرائر ، وما جاش بالقلوب من عواطف . وما

سرى فى الضمائر من خواطر . وما خفى فى الخِلقَـةِ من غرائز ، كأنما باحت له الطبائع بمكنوناتها فرآها رأى العين ؟

ألا تلمح بجانب ذلك الذكاء الحاد قوةَ ملاحظة لا تفلت منها سانحة ، ودقةَ موازنة لا تخفى عليها خافية ، وصحةَ حكم لا يشينه خَطَل ولا اضطراب ؟

ألا تلمح أن ذلك الذكاء قد صقله التعلم فى الصبا ، وقدحته التجارب فأورَته ؟

ألا تلمحه يتألق فى معمعة تلك الحياة الكادحة التى قضاها المتنبى فى تجواله بين الفسطاط، وشيراز . واتصاله بالملوك والأمراء والوزراء ، وبالبدو والحضر ، ومناضلته حساده وأعداءه ، ومقاساته صروف الدهر ومصائبه ، والذكاء فى كل ذلك يكسب المتنبى ثروة فكرية جمعت بين الغزارة والنفاسة ؟

ذلك الذى تلمحه هو سر النبوع الفكرى عند المتنبى .

عبقريته الشعورية وسرها :

تتجلى هذه العبقرية فى تلك القوة الرائعة التى تمازج شعره ، فى تلك الروح العاتية التى تشوب كلامه ، فى تلك الشعلة المتلظية التى تستعر فى قصائده ، فى تلك الثورة العاصفة التى تقذف بها جوانحه الزافرة فى صورة من الكلام الموزون فنسميها شعرا ، فإذا قرأناه فجَّرَ فى نفوسنا هذه الثورة بعينها ، فوجدنا أنفسنا إلى جانب المتنبى ثائرين ، مستسهلين الموت فى سبيل الكرامة ، قائلين معه :

وَإِلاَّ تَمُتْ تَحْتَ السيُوفِ مُكَرَّماً
تَمُتْ وَتُقَاسِ الذُّلَّ غيْرَ مُكَرَّمِ

أو مهدّدين معه ملوك زمانه ومردّدين قوله :

أَيَمْلِكُ المُلْكَ ـ وَالأَسْيَافُ ظَامِئَةٌ وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ ـ لَحْمٌ عَلَى وَضَمِ ؟
مَنْ لَوْ رَآنِى مَاءً مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ وَلَوْ عَرَضْتُ لَهُ فِى النَّوْمِ لَمْ يَنَمِ !

مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتينِ غَـدًا
وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ

أو نزدرى معه من يستحقون الازدراء من الناس فنقول معه :

أَرَى أُنَاسًا ، ومَحْصُولِى عَلَى غَنَمٍ وَذِكْرَ جُودٍ ، وَمَحْصُولِى عَلَى الْكَلِمِ

وهكذا نَشْركه فيما اعتلج بصدره من السخط على الأيام والليالى ، والدنيا وأرزائها ، ونقدح معه فى مَهْجُوِّيه وحُسَّادِه ؛ ونشاطره الرضا على ممدوحيه ، فنسبغ عليهم من صفات المدح مثل ما أسبغ هو عليهم من صفات نفسه الطماحة ، المعتدة بشرفها لا بأصولها ، والمشغولة عن جمال الغوانى بجمال المعالى ، فننشد معه قوله فى ممدوحه :

نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ أَصْلٍ شَرِيفٍ وَلَوَ انِّى لَهُ إِلَى الشَّمْسِ عَازِى
شَغَلَتْ قَلْبَهُ حِسَانُ الْمَعَالِى عَنْ حِسَانِ الْوُجُوهِ وَالْأَعْجَازِ

وأما سِرُّ هذه القوة ، فهو ذلك الشعور الذى امتزج بنفس المتنبى . وأى نوع من الشعور هذا ؟ أهو الشعور الاجتماعىّ الذى يعطف الإنسان على غيره من الناس ، فيألم لألمهم ، ويلذّ للذّتهم ، ويخفق قلبه بالرحمة لهم ، وتَسيلُ عبراته إشفاقا عليهم ؟ لا . لا . ليس المتنبى من شعراء العاطفة بهذا المعنى . لأن الشعور الذى غلب على قلب المتنبى هو الشعور المنبعث عن حب المرء لنفسه ، وإن شئت فقل هو الأنانية بذاتها . كان أبو الطيب شرها طماعا .

كان شرها إلى المال لأنه فقير مملق ، ولم يرزق من القناعة قسطا يخفف عنه شدة الفقر ، ويهوّن عليه وطأته . وكيف تسكن نفسه إلى الإقلال وهو الذى يقول :

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِى وَلاَ الْقَنَاعَةُ بِالإِقْلاَلِ مِنْ شِيَمِى

وكان إلى رفعة الجاه ، وعلو المنزلة ، ونيل أشرف الرتب ، أَشْرَهَ منه إلى

المال . وشرهه فى هذه الحالة هو ما ندعوه الطموح : إذ الطموح نوع من الطمع الروحى يخالف ما عداه فى الغاية التى يتجه إليها ، والمدى الذى يستشرف إليه .

كان المتنبى أنانيا ، فكان طمّاعاً قصىّ المطامع . وكان مُحسًّا ذلك من نفسه ، كما كان شاعرا بذكائه ، وكفايته ، وعلو همته ، وفضله فى نفسه على كثير من وزراء وأمراء وملوك عصره . فوسوست إليه مطامعه وآماله : أن ينهض لإدراك مايتطلع إليه ، فلبى ، وقد أعماه الطمع ، وأغراه خياله الشعرىّ ، فحاول ما حاول . وصادفته العقبات الكأداء ، التى تحطمت على سفوحها مطامحه وآماله : أليس هو القائل :

أَبَداً أَقْطَعُ الْبِلاَدَ ، وَنَجْمِى فى نُحُوسٍ ، وَهِمَّتِى فى سُعُودِ

رجل تتسع مطامعه إلى امتلاك الدنيا ، وتقف الدنيا فى سبيله تعانده وتطارده ، ويشكو ذلك فيقول :

أَهُمُّ بِشَيْءٍ ، وَاللَّيَالِى كأَنَّهَا تطَارِدُنى عَنْ كَوْنِهِ ، وَأُطَارِدُ

وليس من نفسه مقنع يقنعه ، بل له منها دائما مثير يثيره ؛ رجل هذا حاله لا بد أن تثور ثائرته على العالم بأسره ، وأن يضطرم صدره حقدا عليه وعلى من فيه .

هكذا كان أبو الطيب : طامحا ثائرا ساخطا . حانقا على الناس ، حانقا على الملوك ، حانقا على الدنيا ، مزدريا هؤلاء جميعا . كارها من ينافسه أو يدعى منافسته حتى فى الشعر .

ذلك الشعور الأنانىّ الثائر هو السر الذى صبغ شعر المتنبى بصبغة هذه العبقرية الإحساسيّة القوية .

عبقرية الخيال وسرها :

من العجب أن يجمع الرجل بين شاعريّة الحقيقة ، وشاعريّة الخيال . فإن المعروف أن العقول التى اعتادت الغوص على الحقائق التى لاتدرك إلا بالجهاد العقلى الشاق : من أمثال الحِكَم الفلسفية ، لا يتوقع منها أن تكون على جانب

عظيم من الخيال. كما أن العقول التى أوتيت من قُوَّة التخيل حظا عظيما، لا ينتظر منها أن يكون لها فى أفق الحقيقة سهم راجح. إذ القُوَى العقلية ليست كالبذور التى تزرع فى أرض واحدة، تنمو متشاكلة فى القوة إذا كانت الأرض خصبة، أو فى الضعف إذا كانت الأرض فقيرة من موادّ الغذاء النباتىّ. ولكن اشتداد بعض القوى العقلية يوهن بعضها الآخر. فما بالنا نرى المتنبى قويا فى الجانب الحقيق، كما هو قوى فى الجانب الخيالى، ونراه فى لجة الحقيقة من أقدر الغائصين وأمهرهم فى اصطياد لآلئها الغالية، من أقصى أعماقها؛ كما نراه فى أفق الخيال طائرا من أبرع الطائرين، وأحذقهم فى الوصول إلى آمادِهَا السحيقة؟

إنّ ذلك عجيب حقا! ولكن الذى دعانا إلى العجب، هو بذاته ما يدعونا إلى القول بعبقرية المتنبى؛ فإن العبقرية لا بد أن تقوم على شىء من الشذوذ، وإلا كان الناس جميعا عبقريين.

وُلِدَ المتنبى وقد هيأ الله أعصاب دماغه لأن تسلك طريق الحقيقة حتى تصل إلى أبعد غاياتها، وطريق الخيال حتى تصل إلى أقصى مَدَاه. ثم ساقه إلى أسلوب من الحياة لا يقف فى هذا الطريق، ولا يعترض ذلك، ولكنه كان مقويا للاستعدادين معا. سَعَى المتنبى إلى إدراك ما طمح إليه سعيا مُستَحِرًّا، فكان ما لقيه فى مسعاه مدرسة لقنته التجارب والعلم بأسرار الحياة، فكان ذلك مَدَدًا لاستعداده الحقيقىّ؛ وثار المتنبى على الدنيا، وكان فى ثورته عصبيا حادّ المزاج، فكان فى ثورته وعصبيته مَدَدٌ عظيم لخياله. فنمت فيه شعبة الحقيقة على لون من الغذاء يلائمها، ونمت فيه شعبة الخيال على لون آخر يناسبها، فجمع بين القوتين على تباعدهما فى الجوهر، واختلافهما فى الكُنْه، وتباينهما فى الأثر.

وللمتنبى فى خياله افتنان كثير. فقد يغير من طبيعة المحسوس، ويحملك ألاّ تلتمسه بالحواس، كما تعودت وألفت، بل تلتمسه بالسبيل التى تدرك بها المعنوىّ، فيجعله أمامك ضربا من ضروب المعقولات، وقد يبرز لك العاطفة السارية فى القلب، والخاطر الجائل فى العقل، فى صورة لا تكلفك إلا أن تفتح عينيك، أو ترهف أذنيك، ولا تكلفك شحذ العقل، وإيقاظ الفكر، واستنهاض الفهم.

فيجعل أمامك المعقول فنا من فنون المحسوس. وقد يتخيل القلب بشرا سويا فيخاطبه، أو يتصور الناقة ممن يتملكه العجب فيضحك، أو يتوهم حصانه فيلسوفا ينقد الناس ويسفه آراءهم، ويرميهم بالحمق والجهل.

وأكثر ما يفرغ المتنبي خياله في قالب الاستعارة. وهي في ديوانه كثيرة منبثة في كل مكان، وله في صوغها إبداع وإحكام، حتى لاتكاد ترى شاعرا غير المتنبي كثير الاستعارة، حاذقا في تصوير خياله بها.

انظر إليه وقد خَالَ النوى تحب وتعشق، ويسقمها الوجد والغرام:

مَلَامِي النَّوَى في ظُلْمِهَا غَايَةُ الظُّلْمِ
لَعَلَّ بِهَا مِثْلَ الَّذِي بِي مِنَ السُّقْمِ

ثم انظر إليه وهو يتخيل أن الهلوع يتحرك ويُسَيَّرَ كما تسير الجيوش:

إِذَا مَالَمْ تُسِرْ جَيْشاً إِلَيْهِمْ أَسَرْتَ إِلَى قُلُوبِهِمِ الْهُلُوعَا

ثم اعجب له وهو يتخيل أن النفوس ــ وهي المخلوقات الروحية ــ ليست إلا ماء الدموع الذي يسيل من الآفاق عند البكاء:

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ، فَجُدْنَا بِأَنْفُسٍ تَسِيلُ مِنَ الآمَاقِ؛ وَالسَّمُ أَدْمُعُ

ثم استمع إليه وهو يصغي إلى حصانه إذ يلومه على ترك شعب بوّان:

يَقُولُ بِشِعْبِ بَوّانٍ حِصَانِي أَعَنْ هَذَا يُسَارُ إِلَى الطِّعَانِ؟

والأمثلة للخيال كثيرة في شعر المتنبي، فمن شاء الاستزادة فليرجع إليه.

وقد عرف المتنبي المبالغة، وكانت مبالغاته مما فتح عليه باب النقد للناقدين، وسهل للمتحاملين عليه سبيل المغامز والمطاعن.

المبالغة ضرب من ضروب الخيال. وكيف ذلك؟ إنها ترتكز في أصلها على سند من الحقيقة، أو ــ بعبارة أخرى ــ تلتف حول نواة من الحقيقة. فإذا صورنا الشيء في حجمه المقسوم له، فلم نفخمه، ولم نصغره، كنا بذلك قد أبرزناه في ثوب الحقيقة غير باخسين أو محابين. وفي هذه الحالة غَلَلْنَا يد الخيال، وحلنا

بينها وبين العبث بهذه الحقيقة . فإذا أردنا أن نبالغ سلطنا على الشيء نوعا من التصور ينفخ فيه من روحه حتى يَمتَطَّ ويشغل غير حَيِّزه ، أو يضغطه بقوته حتى يَدِقّ ويشغل أقل من حيزه . وليس بين القُوَى الدماغية ما يقوم بمثل هذا التصور الذى لا ترتبط حدوده بحدود الحقيقة ، ولا يكون أثره فى جوهره ممثلا للحقيقة ـ إلا القوة المخيلة . فالمبالغة إذن أثر من آثار الخيال ، ولكن الخيال الطاغى .

والمبالغة ـ على الرغم من أنها لا تمثل الحقيقة ـ قد تكون طريفةً ، باعثة لشيء من الإعجاب بمدى تصور الشاعر ، عارضة على العقل صورة من الصور الغريبة ، التى يطرب لها ويبعث صاحبه على الضحك . فتعتبر المبالغة من هذه الجهة نوعا من الطُّرَف الفكاهية السارة . وللمتنبى كثير من المبالغات الطريفة التى يطرب لها الأدباء ، حتى إن ناقديها لا يستطيعون أن يحولوا بين أنفسهم وبين هذا الطرب ، ولكنهم يتغاضَوْن عنه ، ويسترسلون فى نقدهم لها ، ناظرين إليها بعين المنطق الفكرى ، وانطباقه على الواقع . وفات هؤلاء أن هذا المعيار تقاس به المسائل العلمية ، أما الصور الأدبية فمقياسها ما تحدثه فى النفس من طرب وإعجاب

لماذا نعد من التفكه والتسلية وترويح النفوس ، ما تقع عليه أنظارنا من المبالغات الحسية ، كرؤية وجوهنا مصغرة أو مكبرة فى المرايا المصغرة والمكبرة؛ ولا نعد من هذا القبيل ما يُعْرَض على عقولنا من المبالغات الخيالية ؟ فلتكن الأولى مسرة للعيون ، ولتكن الثانية مسرة للعقول .

ألا نجد نوعا من التسلية عند ما نقرأ مثل قول المتنبى يصف هزاله :

كَفَى بِجِسْمِى نُحُولاً أَنَّنِى رَجُلٌ ... لَوْلاَ مُخَاطَبَتِى إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِى

أنستطيع ألاَّ نبتسم إذا تصورنا المتنبى يقف أمامنا فلا نحس وجوده لأن الهزال قد محق أكثره ، ولا نستطيع أن نراه إلا إذا نَبَّهَنَا إلى وجوده بالكلام ، فعند ذلك نُحَدِّق إليه ، ونبحث عنه بأبصارنا حتى نعثر عليه كذرة عالقة فى الهواء؟

عبقريته فى الأداء وسرها :

كما يختلف المصورون فى تصوير شىء واحد يعرض عليهم، ويتفاوت عملهم فى درجته، كذلك يختلف الشعراء فى تصوير الخواطر الماثلة فى نفوسهم اختلافا عظيما. وكما أن أجمل الصور هو ما طابق المصوَّر تمام المطابقة، كذلك أجمل أساليب الكلام ما أبرز الخواطر النفسية فى صورة تلائمها تمام الملاءمة.

وللمتنبى فى هذا الباب مكانة عالية، فإنه يضع كلماته وضعا محكما يلائم المعنى الذى يعبر عنه، حتى لقد قال أبو العلاء المعرى : إنه حاول طويلا أن يبعد كلمة من كلمات المتنبى، ويضع مكانها أخرى مع المحافظة على سلامة المعنى والأسلوب من كل النواحى، فرأى ذلك من المستحيل. وشهادة مثل هـذا الأديب الناقد لها فضلها وقيمتها فى هذا المقام.

ديوان المتنبى قاموس نفيس لمتخير الألفاظ الجزلة، ولأروع أساليب اللغة العربية وأنجمها.

ويقل أن ترى بين أساليبه أساليب محفوظة، لأنه متصرف فى الكلام، كثير الابتكار. ولذلك نعده من المجددين فى فن الأداء.

وإذا شئت تحقيق ذلك فارجع إلى ديوانه، ووازن بين تعبيره وتعبير البارزين من الشعراء، فإنك ـ لابد ـ واجد أنهم يكادون يسيرون على نمط مألوف على حين تراه يَفْتَنُّ، ويقلب الكلام على وجوه جديدة لا تراها لغيره، ولا يستطيعها سواه.

وفى ديوانه طائفة من الألفاظ الغريبة التى تدل على سعة اطلاعه اللغوى، وعلى كثرة ما حفظ من مفردات اللغة. وللفترة التى قضاها بالبادية فى ذلك أثر عظيم.

وليس فى شعره لحن، ولا نُبُوٌّ عن الذوق العربى، ولا خروج على قوانين اللغة، مما يدل على أنه درس علوم العربية لعهده، وحذقها تمام الحذق. وكيف يلشأ بالكوفة ولا يتثقف بهذه العلوم، وهى من معاهدها الجليلة؟

وقد أخذت عليه مآخذ نحوية ولغوية وبلاغية قليلة ، ولكن هذا القليل لايغض من قدره ، فإن الكمال لله وحده .

وجملة القول أن ديوانه يعد فى الأدب العربى معجزة الشعر الجزل ، كما يعد ديوان البحترى معجزة الشعر الرقيق .

هذا مظهر عبقريته الأدائية ، يحمل فى مطاويه أسرار هذه العبقرية ، ويرينا أن المتنبى قد رزق استعداداً فطريا للأداء البليغ ، تمده حافظة قوية مزودة بثروة طائلة من ذخائر اللغة ، وتنجده ذاكرة مسعفة تلبيه إذا دعاها ، وتسيطر عليه سلامة ذوق يتخير بها اللفظ ، ويسبك الأسلوب ، وتجنبه الخطأ خبرة واسعة بعلوم اللغة وقوانينها . وتقويه الممارسة المبكرة لقول الشعر ، ومعالجته الطويلة منذ أيام صباه .

وإلى هنا نقف الكلام فى أسرار عبقرية المتنبى ؛ لأن الكلام قد طال ، ومع ذلك الإطناب لا أظن أنى بلغت النهاية فى إيفاء البحث حقه ، لأن تلك الشخصية الكبيرة ، لا تستطيع الأقلام أن تشرحها تشريحا دقيقا فى أمثال هذه المباحث السريعة التى تخطفها منا الفرصة السانحة خطفا وَحِيًّا . وياليت شعرى هل تُقِر عشرة القرون القابلة ، بنبوغ المتنبى ذلك النبوغ الذى أقرت به عشرة القرون المودعة ؟ نعم ، إن التراث الذى خلفه المتنبى لا تزول روعته على مر الزمان ، ولا تتضاءل بهجته مهما توالت الحضارات الزاهية الناضرة . فان جماله جمال خالد ما خلدت الدنيا ، وما دام فى الكون عقل يدرك سر الجمال ، جمالٌ مَصْدَرُه المواهب الروحية ، التى لها نظائرها فى كل روح ، فلا غرو إذا أغرمت به كل روح ، وحنت اليه حنين الأم الرءوم إلى وحيدها العزيز ، جمال نَحْسبه تراث المتنبى ، ولكنه تراث العقل البشرى ، وتراث العاطفة البشرية ، وتراث الخيال البشرى ، ولم يكن المتنبى إلا لسانا اختارته الطبيعة البشرية ؛ لتعبر به عن غرائزها وسجاياها ، فعبر عن ذكائها . وطموحها ، وخيالها ، وما دام فى الدنيا ذكاء وطموح وخيال ـ فان الذكاء والطموح والخيال التى كشف عنها المتنبى ستبقى وتدوم .

ذلك هو السر الذى أشغف الناس بشعر المتنبى ، والذى فتن به قلوب معاصريه حتى كاتبه ملوك زمانه ، يستجدون شعره ، ويلتمسون مدحه ، حتى يدون مفاخرهم فى سجل شعره الخالد . ذلك هو السر الذى من أجله تهافت الناس على شعر المتنبى يستقون من فيضه نمير الحكمة ، ويستمدون منه غذاء القوة والخيال ، وينمون ببلاغته فى نفوسهم ملكة البيان ، ويحوكون على منواله نظمهم ، فيلبسونه رداء الحسن والجمال ، وربما سرت نفثاته التى نفثها فى أرواحهم ـ وهم لا يشعرون ـ إلى ما يصوغون من البيان ، وربما عمدوا إلى اقتباس كلامه ليزدان به بيانهم . ويشرق أدبهم ، ولو أردت أن أسوق لذلك أمثلة وشواهد لما كفتنى هذه الصفحات القلائل .

طه طه عبد الفتاح
مدرس أول للغة العربية ببنها الثانوية

سر نبـــوغ المتنبى

بقلم على الجارم
المفتش بوزارة المعارف

طلب إلىّ أن أكتب فى إحدى نواحى أبى الطيب المتنبى ، وأعلم أن الناس فى القديم والحديث كتبوا عنه كثيرا ، وأن شعره نال من عناية الأدباء ومن بحثهم وجدلهم مالم ينله شعر قبله أو بعده ، وأن كتباً ضخاما أُلِّفت فى كل ناحية من نواحى الرجل والشاعر ، حتى لقد يسبق إلى الوهم أن كل قول فيه يكون معاداً ، وأن كل نظرة فى شعره تقع على نظرات سبقتها إليه من قرون .

ولكن المتنبى الضخم يعزُّ على مَن رامَه ويطول ، فهو الجبل الأشم أينما قلبت فيه النظر رأيت عجبا ، وكيفما ملت برأسك إلى ناحية من نواحيه رأيت جديدا ، وهو البحر الخِضَمُّ تقف عند ساحله فيبهرك ماترى من عِظَم ، ويفتنك ماتشاهد من ألوان ، ثم أنت لاتزال ترسل النظرة إثر النظرة ، فلا تعود كل واحدة منها إلا بمعنى جديد وفنّ فى الحسن بديع ، ولأمر ما كان المتنبى يقول فى ثقة ويقين :

أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِى عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْقَوْمُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

فكيفما كتب الكاتبون فى المتنبى ، فلا تزال فيه مجالات للقول ، ولا يزال يُطِلّ عليك من مشارف أبياته معنى سَرِىّ ، فى ثوب من البيان قشيب

يزيدك وجهه حُسناً إذا ما زدته نظرا

والمتنبى ـ وبيننا وبينه ألف سنة أو تزيد ـ يطغى على الزمن قوة ، ويزهو على الأيام جدّة ، وما نزال نقرؤه سنة خمس وخمسين وثلثمائة بعد الألف ، فنهتز له كما اهتز سيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ؛ ولا يزال يهمس فى الأذن بالحكمة النادرة ، والقولة الحكيمة ، وقد مشت فوق رءوس الحقب ، وخاضتْ الينا مفاوز القرون ، وكانت لدة الدهر فى شبيبته ، ثم جاءت الينا من ذلك المكان البعيد الذى نسميه

الماضى،وقد زادها القدم جدة،وخلع عليها تعاقب الأعوام بردين من جلال ويقين:

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا
فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ
وَلاَ تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً
فَمَا الْمَجْدُ إِلاَّ السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ
وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا، كَأَنَّمَا
تَدَاوَلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ

نقرأ المتنبى، فنحس أنه يخاطب كل نفس بأسرارها، ويكشف لكل سريرة مطوىّ أخبارها، وكثيراً ماحدثنا عن خلجات كنا نحس بها، ونسمع فى النفس دبيبها، ولكنا كنا عاجزين عن وصفها والتعبير عنها وهى منا على طرف الثُمام، ومن أخبر بهمسات النفوس من أبى الطيب ؟ ومن أقدر منه على كشف جولات الخواطر ؟

بَرَتْنِي السُّرَى بَرْيَ الْمُدَى، فَرَدَدْنَنِي
أَخَفُّ عَلَى الْمَرْكُوبِ مِنْ نَفَسِي جِرْمِي
وَأَبْصَرَ مِنْ زَرْقَاءِ جَوٍّ؛ لِأَنَّنِي
مَتَى نَظَرَتْ عَيْنَايَ، سَاوَاهُمَا عِلْمِي

ألف سنة تمر، تطوى فيها أمم، وتنشر أمم، ويتنقل فيها العقل الانسانى فى أطوار شتى يمحو بعضها بعضا، وتتبدل العادات غير العادات والأفكار، والمتنبى لا يزال يقرأ ويقرأ، ويجد فيه كل عصر طلبته من غذاء روحى تطمئن به النفس وترتاح اليه الضمائر.

مضى سيف الدولة ومضت آثاره، وذهب كافور وانطوت أيامه، وأين علىّ

الحاجب هذا الذى أجاز المتنبي على قصيدة من روائع شعره بدينار واحد ؟ ذهب هؤلاء جميعاً ، وبقى ذكر المتنبي كالصخرة العبوس ، ينفرج أمامها زحام الأيام وتنكص دونها صروف السنين :

وَعِنْدِى لَكَ الشُّرَّدُ السَّائِرا تُ، لاَ يَخْتَصِصْنَ مِنَ الأَرْضِ دَارَا
قَوَافٍ ، إِذَا سِرْنَ عَنْ مِقْوَلِى وَثَبْنَ الجِبَالَ ، وَخُضْنَ البِحَارَا
ولى فِيكَ مَالَمْ يَقُلْ قَائِلٌ وَمَالَمْ يَسِرْ قَمَرٌ حَيْثُ سَارَا

فالمتنبي عظيم . وأريد فى هذا المقال أن أكشف عن قليل من سرّ هذه العظمة، وأن أبين بقدر مافى قلبى من مكنة، شيئا من ضخامة هذا الشاعر وقوته التى عصفت بشعراء عصره ، وحجبتهم بغبارها وما كانوا خاملين ، ولا كانوا مقصرين ، وفيهم السرى الرفاء ، وكشاجم ، والنامى ، والدمشقى ، والسعدى ، وأمثالهم ، من كبار الشعراء ولكنه السهم العائر ، والجد العاثر ، أن تعيش فى عصر ينجم فيه نابغ يملأ الدنيا صخبا ولجبا ، وينشر درر بدائعه ذات اليمين وذات الشمال ، فيصغى اليه الدهر ، وتشخص له الأبصار ، وتبقى أنت مغمورا فى الزحام ، لاتعدم وكزة من مغامر ، أو ركلة من مزاحم ، فى ذلك الخضم الزاخر الرجاف ، والدنيا أم . اذا برزت مواهب أحد أبنائها ، انصرفت اليه بتدليلها ، وطوقته بحنانها ـ نابذة ابناءها الآخرين الذين قصر بهم المدى وقعد بهم الجد العثور .

وكان المتنبي شاعرا بتلك العظمة وذلك النبوغ النادر ، فتحدّى شعراء عصره فى صلف لايطاق وجبرية لا تحتمل :

إذا شَاءَ أَنْ يَلْهُو بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبارِى ، ثمَّ قَالَ لَه : الْحَقِ

ولا تُبَالِى بِشِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِهِ قد أُفْسِدَ الْقَوْلُ حَتَّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ

أفى كلِّ يومٍ تَحْتَ ضِبْنِى شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِينى ، قَصيرٌ يُطَاوِلُ ؟

بِأَىِّ لَفْظٍ تَقُولُ الشِّعْرَ زِعْنِفَةٌ تَجوزُ عِنْدَكَ ، لاعُرْبٌ ولاَعَجَمُ ؟

وأبرز ما يمتاز به شعر أبي الطيب : القوة ، والرَّوعة ، والابتكار ، والنزوع إلى غاية لم يصل اليها الشعراء قبله ، والقدرة على إرسال المثل ، ودقة الوصف ، والتصرف فى المعنى القديم ؛ حتى يعود غضا جديداً . وقد تجد لكل شاعر فى كل قصيدة قالها بيتا أو أبياتا قليلة ، تعَدّ من عيون الشعر وبدائعه ؛ أما المتنبى فلا تجد له فى كل قصيدة إلا بيتا أو أبياتا قليلة لم تصل إلى شأوه البعيد ، والباقى الكثير من القصيدة غُرَر ودُرر ، فهو إذا مدَح يقول فيَبزُّ القائلين :

نَهَبْتَ من الأَعمَارِ مَالَوْ حَوَيْتَهُ   لَهُنِّئَتِ الدُّنْيَا بأَنَّكَ خَالِدُ

نعرف أن الناس يمدحون الملوك بالشجاعة والاقدام وكثرة الغزوات . وأن النصر معقود بلوائهم ؛ ولكن المتنبى يترك كل هذا ليتناوله صغار الفنانين ، ويصعد فى المدح بهذه المعانى إلى أفق أعلى ، تظهر فيه خصائصه ، وتتميز مواهبه ، فيجعل قتل الأعداء نهباً لأعمارهم ، واغتصابا لها ، ثم يدفعه خياله البعيد إلى فرض أن هذه الأعمار الكثيرة ، اتصل بعضها ببعض ، فكونت عمراً طويلا غير محدود ، ثم يَصعَدَ إلى أوج أسمَى ، فيتخيل أن سيف الدولة ، حاز هذه الأعمار غير المتناهية ، التى انتزعها من أعدائه ، ولا يكتفى بالحكم بأن هذا يصل به إلى الخلود ، بل يدّعى أن الدنيا بمن فيها وما فيها تُهَنَّأ بهذا الخلود . ثم ما أجَلّ تصوير النصر المُحَقق فى قوله بعد هذا البيت :

فأنتَ حُسامُ الْمُلْكِ ، واللهُ ضَارِبٌ   وأنتَ لِواءُ الدِّينِ ، واللهُ عَاقِد

بهذا ومثله ، سبق المتنبى الشعراء فى المديح ، وَغبّرَ فى وجوههم .

ثم انظر اليه حين يقول فى سيف الدولة :

أتَحْسَبُ بيضُ الهِنْدِ أصْلَكَ أصْلَهَا   وأَنَّكَ مِنْهَا ؟ ساءَ ما تَتَوَهَّمُ !

إذا نَحْنُ سَمَّيْنَاكَ ، خِلْنَا سُيُوفَنَا   من التِّيهِ فى أغمادِها تَتَبَسَّمُ

اتّخَذَ المتنبى من اسم سيف الدولة سبلا شتّى للافتنان فى مدحه ، والمماثلة بينه وبين السيوف ، فأجاد فى كثير من ذلك وحلّق ، ومثل هذه الفُرص تعرض

لكثير من الشعراء، ومجال القول فيها هيِّن إذا لم يتجاوز الشاعر اللَّعب باللفظ على نوع رخيص من التخيل. أما المتنبى فليس من هذا الصنف، ولا من ذلك الطابع، استمع له وهو يتهكم بسيوف الهند، حين تظن كذبا وغروراً وتلمُّساً لشرف الاتصال بسيف الدولة، أنها هى وسيف الدولة من أصل واحد، فكلاهما قاطع بتَّار، وكأنى أسمع تهانُفه فى سُخرِيةٍ واستهزاء، حين يقول: (ساء ما تتوَهَّم!) وهنا موطن قوته وصرامته الشعرية، فأكثر ما تظهر فى هذه الجمل القصيرة المفصولة، التى لها وقع السهام، ثم يصعد إلى أفق لا تسافر اليه الظنون فيقول: إن هذه السيوف تكتفى من الشرف بأن اسمك وافق اسمها. فإذا سمّيناك خِلناها تبتسِمُ فى أغمادها تِيها وعُجْباً.

ثم خذ مثلا آخر فى مدح كافور.

إذَا طَلَبُوا اجَدْوَاكَ أُعْطُوا وحُكِّمُوا
وإن طَلَبُوا الفَضْلَ الَّذِى فيكَ – خُيِّبُوا

ولوجَازَ أَنْ يَحْوُوا عُلاَكَ – وَهَبْتَهَا ... ولكنْ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَالَيْسَ يُوهَبُ

فهل من يستطيع أن يصوِّر الصَّفح والتَّجاوز وعظم النفس هذا التصوير؟ إن حسّادك وأعداءك إذا سألوك العطاء، أعطيت وأغدقت، وسألتهم أن يتحكموا فيما يطلبون، ولكنهم لو طلبوا أن ينالوا مافيك من كريم الشِّيم، وعالى الهِمَم ردوا خائبين، لا ضنًّا منك ولا بخلا، فلو كان فى استطاعتك أن تمنحهم إياها لفعلت (ولكن من الأشياء ما ليس يوهب) وفى هذه الجملة القصيرة أيضا تظهر قوة الشاعر وشدة أسره.

ننتقل بك إلى الوصف، ولنبدأ بهذه الأبيات:

وذى لَجَبٍ لاذو الجَناحِ أمامَهُ ... بِنَاجٍ، ولا الوَحْشُ الُمثَارُ بِسَالِمِ

تَمُرُّ عليه الشمسُ وهْىَ ضعيفةٌ ... تُطَالِعُه من بَيْنِ رِيشِ القَشَاعِمِ

إذا ضَوْءها لاَقَى مِنَ الطيْرِ فُرْجَةً ... تَدَوَّرَ فَوْقَ البَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

وَيَخفَى عَلَيْكَ الرَعْدُ والبرقُ فَوْقَه من اللَّمْعِ في حَافَاتِهِ والْهَمَاهِمِ

برَع المتنبي فى وصف الجيوش والوقائع ، ما فى ذلك شك ، فقد كان يحمل بين جنبيه نفسا نزاعة إلى القتال ، تدفعها الآمال الكبار ، وكانت وقائع سيف الدولة مع الروم حافزة لهذه النفس ، مؤججة لتلك الجذوة ، ولو حاولنا أن نشرح له خير ماقاله فى هذه الناحية لطال المقال ، ولكنا نكتفى بالأبيات التى قدمنا ؛ ففيها قوة ، وفيها جمال شعرىّ ، وفيها وصف دقيق ، ما أورعَ أسلوبه فى البيت الأول ! وما أجل ما فيه من تقسيم وتنسيق ! فالجيش كثير العدد كثير اللجَب ، تتهادَى قذائفه، أثار الوحوش من مكامنها ، والطيور من أوكارها ، فلاذو الجناح بناج من سهامه المترامية ، ولا الوحوش بسالمة من عديده الخِضَمّ ، ثار فيه الغبار فسد الأفق ، وعلا فى السماء فكَسَفَ الشمس ، فهى تمر عليه ضعيفة ضئيلة الضوء ، فإذا أطلّتْ فإنها تُطِلّ من بين ريش النسور التى حَلّقَتْ فوقه ؛ لوثوقها بنصره ، وشدة طمعها فى جثث أعدائه .

وقد شرح هذا المعنى فى قصيدة أخرى ، وجَلاّه فقال :

يُطَمِّعُ الطَيْرَ فيهم طُولُ أُكلِهِمُ حتى تَكادَ على أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ

وهذه الشمس إذا وُفِّقَتْ إلى فُرْجة بين أجنحة النسور ، سقطت أضواؤها على الخوذات ، مُدَوَّرَةً كالدراهم ، وهذا تشبيه يدل على دقة الملاحظة ، وأن المشاهدة الدقيقة لمظاهر الأشياء ، كان لها أثر بعيد فى تكوين المتنبي ، وقد أعاد هذا المعنى فى قصيدة شعب بوّان ، فقال :

وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فى ثِيَابِى دَنَانِيراً تَفِرُّ مِنَ الْبَنَانِ

ثم إنّ هذا الجيش كثرت فيه هَمهَمَةُ الأبطال ، وهى الصوت يتردَّد فى الصدر ، فإذا رَعَدَ الرّعدُ لم يُسْمَع ، وازداد فيه بريق السيوف ، فإذا لَمَع البرق لم يُبْصَر ، وإذا كانت الهمهمة ، وهى الصوت الخافت تُغَطِّى على الرعد ، فأجدِر

بأن يكون الجيش بالغا الغاية فى العِظَم. (١)

وللمتنبي مَنْحًى فى الرثاء عجيب، فهو لا يلطم الخدود، ولا يشق الجيوب، كما يفعل صغار الشعراء، ولكنه يطلق العِنان لفلسفته فى الموت والحياة، فيقول فى رثاء أخت سيف الدولة الصغرى:

خِطْبَةٌ لِلحِمَامِ لَيْسَ لَهَا رَدٌّ م وَلَكِنَّهَا الْمُسَمَّاةُ ثُكْلا
وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْئًا ذَاتُ خِدْرٍ أَرَادَتِ الْمَوْتَ بَعْلا
وَلَذِيذُ الْحَيَاةِ أَنفَسُ فى النَّفْـ ـسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُمَلَّ وَأَحْلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ: أُفٍّ! فَمَا مَلَّ حياةً؛ وَإِنَّمَا الضَّعْفَ مَلاَّ
آلَةُ العَيْشِ صِحَّةٌ وشَبَابٌ فَإِذَا وَلَّيَا عَنِ الْمَرْءِ وَلَّى

وقد سلك فى رثاء الأخت الكبرى طريقا جديدا، هو برثاء القواد والملوك أشبه منه برثاء النساء:

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِى خَبَرٌ فَزِعْتُ فِيهِ بآمَالِى إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لى صِدْقُهُ أَمَلاً شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ، حتى كادَ يَشْرَقُ بِى
كأنَّ «فَعْلَةَ» لم تَمْلأْ مَوَاكِبُهَا دِيارَ بَكْرٍ وَلَمْ تَمْنَحْ ولم تَهَبِ
ولم تَرُدَّ حَيَاةً بَعْدَ تَوْلِيَةٍ ولم تُغِثْ داعِياً بِالْوَيْلِ والحَرَبِ

والبيتُ الأول تصوير غريب لحال من فوجىء بخبر محزن، فهو يَتَشَبَّثُ بالأوهام، ويلجأ إلى أوْهَى الأسباب.

(١) تجد وصفا بديعا للجيوش فى القصيدة الدينارية وفى القصائد: «على قدر أهل العزم تأتى العزائم»، و«الرأى قبل شجاعة الشجعان»، و«طوال قنا تطاعنها قصار». ومن أوصافه البديعة وصفه لبحيرة طبرية فى قصيدته: «أحق عاف بدمعك الهمم»، ووصف الخيل فى: «أبعد نأى المليحة البخل»، ووصف الليل فى: «ضروب الناس عشاق ضروبا». أما وصفه الأسد، والحمى، وشعب بوان، فمن مشهوراته.

ومن خير مَراثيه وأقواها مَرْثيتهُ(١) في جدّته ، ولكنه شَغَل أكثرها كعادته ، بالحديث عن نفسه :

فَوَا أَسفَا أَلاَّ أُكِبَّ مُقَبِّلاً لِرَأسِكِ والصَّدْرِ اللَّذَى مُلِئا حَزْمَا!
وأَلاَّ أُلاَقِيَ رُوحَكِ الطَّيِّبَ الَّذِي كأَنَّ ذَكِيَّ المِسْكِ كَانَ لَهُ جِسْمَا
ولَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتَ أَكْرَمِ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لِي أُمَّا
لَئِنْ لَذَّ يَوْمُ الشَّامِتِينَ بِيَوْمِهَا لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لآنُفِهِمْ رَغْمَا

هذه نوازع نبيلة امتزجت بالقوة والرَّوعة والجمال.(٢)

وللمتنبي في الهجاء القول المُمِضّ والكلام المُرّ ، ولم يكن كثير الهجاء ، ولكن بيتا واحدا من هجائه كان يقوم مقام القصيدة الطويلة في الإيلام وشدة الإيجاع وإصابة المَحزّ ، فهو يقول لابن كَرَوَّس جليس ابن عمّار : —

فَلَوْ كُنْتَ امْرَأً تُهْجَى هَجَوْنَا وَلَكِنْ ضَاقَ فِتْرٌ عَنْ مَسِيرِ

هذا منتهى ما يصل اليه الاحتقار ، فهو ليس برجل يُؤْبَهُ له حتى يُهْجَى؛ لأن قدره أضيق من أن يتسع لجولات الهجاء ، فهو كالفتر أقل من أن يتسع لمسير .

ويقول لأبي الفَرَج السامري ، أحد كتاب سيف الدولة :

صَغُرْتَ عَنِ المَدِيحِ فَقُلْتَ أُهْجَى كأَنَّكَ ما صَغُرْتَ عَنِ الهِجَاءِ
وما فَكَّرْتُ قَبلَكَ في مُحَالٍ ولا جَرَّبْتُ سَيْفِي في هَبَاءِ

أليس ذلك منتهى الصلف القاتل ، والوخز الفاتك ؟

أما هجاؤه لكافور فقد قذفه فيه بالصيلم :

إني نَزَلْتُ بكَذَّابِينَ ، ضَيْفُهُمُ عَنِ القِرَى وعَنِ التَرْحَالِ مَحْدُودُ
جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الأيدِي ، وجُودُهُمُ مِنَ اللِّسَانِ ، فَلاَ كَانُوا ولا الجُودُ!

---

(١) اقرأ مرثيته في أم سيف الدولة : « نعد المشرفية والعوالي »

مايقبض الموت نفساً من نفوسهم   إلا وفى يده من نتنها عود

ولو أن إنسانا حاول أن يهجو ألأم مخلوق أظلته السماء ، ما استطاع أن يقول فيه أنكى من هذا وأقذع .

وكانت للمتنبى فلسفة ، وكانت هذه الفلسفة من أكبر أسباب إجادته ، ثم من أكبر أسباب شهرته ، ولم تطغ عليه الفلسفة كما طغت على المعرى حتى أفسدت شعره أو كادت .

ويظهر لى أن فلسفة المعرى كانت عن اطلاع ، وفلسفة أبى الطيب كانت عن ابتداع ، وقد كانت هذه الفلسفة تلازمه فى جميع فنون شعره ، فهو إذا فخر بنفسه يقول :

وحيدٌ من الخُلاَّنِ فى كُلِّ بَلْدَةٍ   إذا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ المسَاعِدُ

وإذا تغزَّل يقول :

تقُولِينَ : ما فى النَّاسِ مِثْلكَ عَاشِقٌ   جِدِى مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ تَجِدِى مِثْلِى

وهذا قياس استثنائى يعرفه علماء المنطق ويفهمونه .

أو يقول :

لِهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لا تُعْلَمُ   عَرَضاً نَظَرْتُ ، وَخِلْتُ أَنِّى أَسْلَمُ

وإذا ذم يقول :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ   رأى غَيْرُهُ مِنْهُ مَالاَ يَرَى

وإذا مدح يقول :

لَوْلا المَشَقَّةُ سادَ الناسُ كُلُّهُمُ   الجودُ يُفْقِرُ ، والإِقْدَامُ قَتَّالُ

وإذا وصف خيمة سيف الدولة التى سقطت من ريح شديدة يقول :

فَلاَ تُنْكِرَنَّ لَهَا صَرْعَةً   فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ ما يَقْتُلُ !

وإذا رثى يقول :

نَصِيبُكَ فى حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيبُك فى مَنَامِكَ مِنْ خَيالِ

أما إذا شكا الزمان ، ونقد الاجتماع ، أو تعرّضَ لأخلاق الناس ، فهناك الانهمار فى الحكمة ، وضرب الأمثال ، وفلسفة الحياة .

ولا نريد هنا أن نكثر من التمثيل ، فحكم أبي الطيب كثيرة جداً ، وقد تناولها الأدباء بالجمع والتمحيص والنقد ، وأكثر قصائده حكما : « لا افتخار إلا لمن لا يضام » و « فؤاد ما تُسَلِّيه المدامُ » و « لِهَوَى النفوسِ سريرة لا تُعْلَم » و « صَحِبَ الناسُ قَبْلَنا ذا الزمانا »

وغَزَل المتنبى غزَل صناعىّ تَطَلَّبَهُ الفنُّ واقتَضَتْه الصناعة ، وكثير منه مع هذا بالغٌ حدَّ الجودة ، أليس من المرْقِص قوله :

أتُرَاها لكَثْرَة العُشَّاقِ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فى المآقى

وقوله :

لَبِسْنَ الوَشْيَ لا مُتَجَمِّلاتٍ ولـكِنْ كى يَصُنَّ به الجمالا

وَضَفَّرْنَ الغدائر لا لِحُسْنٍ ولـكنْ خِفْنَ فى الشَعَرِ الضَّلالا

وقوله :

وخَصْرٌ تَثْبُتُ الأبصار فيه كأنَّ عليه من حَدَقٍ نِطاقا

وقوله :

سَقَاكِ وَحَيَّانا بك اللهُ ، إنمـــا على العِيس نَوْرٌ والخُدُور كمائمُه

وماحاجَةُ الأظْعانِ حوْلَكِ فى الدُّجَى إلى قَمَرٍ ، ما واجدٌ لك عادِمُه

وقوله :

ولو زُلْتُمُ ثُمَّ لم أبكِكُم بَكَيْتُ على حُبِّيَ الزائلِ

أما غزَلُه في الأعرابيات في قصيدته: « مَن الجآذِرُ في زِيّ الأعاريب؟» فقد بلغ فيه غاية الإحسان.

وكان المتنبي فخورا تيّاهاً، وقد ملأ أكثر قصائده بالتحدُّث عن نفسه، حتى عند مديحه للأمراء، وحسبك أن تعلم أنه يقول عن نفسه في قصيدة أنشدها بين يدي سيف الدولة:

سيَعلَمُ الجمعُ مِمَّنْ ضَمَّ مجلِسُنا بأنّني خيرُ من تَسْعَى به قَدَمُ
الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرِفُني والسيفُ والرُّمحُ والقِرطاسُ والقلمُ

ومن أسمَى ما قاله في الحماسة والفخر قوله: --

وما الجمعُ بين الماء والنار في يدي بأصعبَ من أن أجمعَ الجدَّ والفهْما
ولكنني مُستَنصِرٌ بذُبابه ومُرتَكِبٌ في كلِّ حالٍ به الغَشْما
وجاعِلُه عنــــد اللقاء تحيّتي وإلا فلستُ السيِّدَ البَطَلَ القَرْما
إذا فَلَّ عزْمِي عن مَدًى خوفُ بُعده فأصعبُ شيءٍ ممكنٌ لم يجِدْ عَزْما
وإني لمن قَوْمٍ كأنَّ نفوسَهم بها أنَفٌ أن تسكُنَ اللحمَ والعَظما
كذا أنا يادنيا، إذا شئتِ فاذهبي ويا نفسُ زيدي في كرائهها قُدْما
فلا عَبَرَتْ بي ساعةٌ لا تُعِزُّني وَلا صَحِبَتْني مُهْجَةٌ تقبَلُ الظُلْما

وللمتنبي بدائع بلغت الغاية في حُسْن تصوير المعاني وتجويد الصناعة، وصوغ الأساليب يحسن أن نختم بها هذا المقال كقوله:

كريمٌ لفَظْتُ الناسَ لما بَلَغْتُه كأنَّهُمُ ما جَفَّ من زاد قادِمِ

وقوله:

خيرُ أعضائنا الرءوسُ، ولكنْ فَضَلَتْها بقَصْدِكَ الأقدامُ

ومن غريب أخيلته فى وصف هول الحرب قوله :

واستعار الحديد لونا ، وألقى   لونه فى ذوائب الأطفال

ومن إحساناته قوله يخاطب الحمى :

أبنتَ الدهرِ عندِى كلُّ بنتٍ   فكيفَ وصلتِ أنتِ من الزِّحامِ
جرَحْتِ مُجرَّحًا لم يَبْقَ فيهِ   مَكانٌ للسُّيوف وللسهامِ

وقوله فى وصف السيف :

يَبِسَ النَّجِيعُ عليه وهو مُجَرَّدٌ   من غِمْدِهِ فكأنّما هو مُغْمَدُ
رَيّانُ لو قَذَفَ الذى أسْقَيْتَهُ   لجَرَى من المُهجاتِ بحرٌ مُزْبِدُ

وقوله :

كأنّ الهامَ فى الهَيْجا عُيونٌ   وقد طُبِعَتْ سيوفُك من رُقاد
وقد صُغْتَ الأسنّةَ من هُمومٍ   فما يَخْطُرْنَ إلا فى فؤاد

وقوله وقد وفد على علىّ الحاجب راجلا : —

وحُبيتُ من خُوصِ الركابِ بأسْوَدٍ   من دارِشٍ ، فغَدَوْتُ أَمْشِى راكِبًا

وقوله وهو من تخلّصاته البديعة :

أقْبَلْتُها غُرَرَ الجِيادِ كأنّما   أيْدِى بنى عِمْرانَ فى جَبَهاتِها

وقوله فى وصف الخيل :

إنْ خُلّيَتْ رُبِطَتْ بآدابِ الوَغَى   فدُعاؤها يُغْنِى عن الأرْسانِ
فى جَحْفَلٍ سَتَرَ العُيُونَ غُبارُه   فكأنّما يُبصِرْن بالآذانِ

وأوابد أبى الطيب التى بزّ بها الشعراء ووصل بها إلى قِمّة الفنّ الشعرى ، أكثر من أن تجمع فى مثل هذا المقال ، وتكفينا هنا هذه الكلمات الموجزة ، فى إذاعة شيء من سِرّ عبقريته .

على الجارم

المتنبي وكافور

بقلم محمد هاشم عطية
المدرس بدار العلوم

منذ أكثر من عام ، والناس يتحدثون عن أبى الطيب ، ويتبارون فى تكرمته والاحتفال بذكراه الألفية . وفى مصر وفى غيرها من البلدان العربية ، وفى الصحف والأندية ، وبين الكتاب والشعراء ، وفى المعاهد العالية والمحاضر الكبرى ـ يتطرف المتأدبون بدراسة أدبه وتجديد العهد بالبحث فى تاريخه وشعره ، بوضع المحاضرات والرسائل ، وبالترجمة والتأليف والبحث (حتى خصته ، مجلة ، المقتطف الغراء بعدد من سنتها الحاضرة ، فى بحث ضاف ، وتحقيق جديد ، لباحث من نوابغ أدباء العربية .)

ولم يزل كل شاد فى الأدب ، وكل متمائل إلى الشهرة ، يتخذ من البحث فى حياة المتنبي وسيلة إلى الذكر ، ومادة للتأدب ، ومثارا للنقد والجدل ، وماخلا عصر من عصور العربية ، ولامصر من أمصار المشارقة من الإغراق فى آثار هذه العبقرية الفذة ، والتحلى بمطلق التناول لهذه الشاعرية الفاخرة ، وتجرد كثير من العلماء فى أزمان متعاقبة ، لوضع الأشعار ، وتصنيف الكتب ، فى التقريظ والنقد لأدب أبى الطيب . واعترضه الباحثون بالموازنات ، وتحقيق الوساطة بينه وبين شعراء عصره وغير عصره ، وزخرت خزائن الكتب بهذه الشروح والبحوث ، حتى لم يبق لقائل موضع ، ولا لكاتب متعلّق ، وكان لك أن تقول : إن كل مايتعالم به أهل زماننا ، أويدعونه فى أبى الطيب من استخراجهم لدخيل ، أوتحصيلهم لفائت ، أو فصلهم فى خلاف ، أو استدراكهم على باحث ، إنما هو حديث معاد ، ونقل عن كتاب إلى كتاب . وكذلك كان لك أن تقول : إن من حسن البحث فى هذا العصر أن يتناول معه غيره ممن جروا فى شأوه ، أو تخلفوا عنه : ليعرف الناس عنهم بعض ما عرفوا عنه ، وليشتد تمييزهم لمكان الفرق بينهم وبينه ، وبذلك يصلون أرحاما

مجفوة ، ويفتحون من الأدب كنوزاً دفينة ، ويحسنون الخلافة فى إرثهم عن السلف ، مما لا تزال أسراره مصونة ، ومحاسنه مجهولة ، وهنالك يرى الناس وسع المتأدب ، وجهد الكاتب ، ويعرفون لهم الفضل ، ويجزونهم الخير ، وأما المتنبى فيكفى أن يتدارس الناس أشعاره ، ويحفظوا أكثر ما يقدرون عليه من قلائده ، ويتفرغوا لطواله وأوابده ، بالحوافظ القوية ، والذاكرة القادرة ، توخيا لإقامة السياق ، وحرصا على السلامة من هجنة النسيان ، لأن الشعر خاصة لا يستغنى عن نصه بالحكاية ، ولا تجوز روايته بالكلام ؛ ولأننا صرنا إلى حال لا نجد فيها الذين يستطيعون الإلقاء من الغيب ، ولا الذين يمتعون المحافل بحلاوة المجاذبة ، ولا الذين كانوا يملئون السامر بطرائف الأخبار ، وغرائب الأشعار ، استملاء من حوافظهم ، وقراءة من سجل صدورهم ، فكانوا يحببون للناس الأدب ، ويكثرون بمثل هذه المطارحات الممتعة عشاق اللغة . فيلقون بهذا اللهو إلى الناس أدبا ، وينشئون لهم ثقافة عربية ؛ لاضطرارهم إلى التعقب على أنفسهم ، والوقوف مما يروونه موقف الممتحن المتثبت ، حتى يتألف لهم من شوارد الأدب ، ولطائف الفطن ما يعظم به موقعهم ، ويشوق النفوس إلى سماعهم ، والأخذ من كلامهم ، وهم الظرفاء وأصحاب النوادر الذين يتطيب الناس بملحهم ، ويعمرون بهم مجالسهم ، ويزكون بأدبهم أنفسهم ، ولقد أردنا بمقالنا هذا أن ننبه إلى هذه الحالة ، ونثير أشد الاهتمام بالرجوع إليها ، لتحصيل الحفاظ من أثبات اللغة والأدب ، ولأننا نعتقد أن حظ الرواية من عناية المتأدبين لا ينبغى أن يكون أدنى من شغفهم بالتحليل الأدبى ، والدراسة الحديثة ، والعقلية الخصبة ، والقصص الفنى وغير ذلك ، مما تسمع له جعجعة ولا ترى طِحنًا ؛ لاعتقادنا بأن ذلك أزين لهم ، وأشبه بأمرهم ، وأحرى أن يجدوا من هذه الذخائر عند الحاجة عتادا حاضرا يكسون به سوانحهم ، ويجملون به منطقهم ، وإن كنا بذلك قد أقحمنا أنفسنا فى غمار المكرمين لأبى الطيب ، والمحتفلين بتخليده ، ونحسب أننا بما سنقضى به من بعض ما لا حظناه فى أكثر ما كتب عنه فى أيامنا الحاضرة ، سنكون أبلغ احتفالا وأسنى تكرمة ، على حساب أننا

لا ننفي عنه عيبا ، ولا نضيف اليه مفخرا جديدا ، ولا ندعي أننا سنزيل من أمره لبسا ، أو نحل متعقدا ، إلا النظر في هذه المحاولة التي يراد بها إسناد المتنبي إلى غير أبيه ، واستخراجه من غير معدنه ، والادعاء بأنه علوى النسب ، هاشمي الأرومة ، والالتجاء في ذلك إلى التأويل للمحكم ، والاتهام للثقة ، والانتحال لكل حيلة لتحصينه من كل تهمة ، وتبرئته من كل مذمة ، والتصدى لاحتمال المكروه عنه ، مع أنهم يعلمون أن وضع الرجل في غير موضعه ، وإعطاءه ماليس من حقه ، تهجين لشأنه وذم له ، يظنون أن من ذكر المتنبي فأحسن اليه ، وأحمد الخبر عنه ، وأسبغ من دفاعه ستارا على عيبه – فقد أوتى الحكمة ، وبلغ نهاية الفهم ، وصار مستحقا لاسم الأدب ، وداخلا في جملة الموسومين عند الناس بالأدباء ، لتوهمهم أن الناس لا يتجرءون عليه ، ولا يقدر منهم على مسافات خواطره ، ومسبح إلهاماته ، إلا الذين أصفاهم ربهم بالفِطن ، وأعانهم بتمام البصيرة ، من المنحوتين على مثالهم ، والمنتخبين من طرازهم ، ولكن ذلك على ما فيه من المناقضة للتاريخ الثابت ، والمعارضة للصريح من النصوص ، ليس بمغن عنهم شيئا ، ولا بنافعهم قليلا ولا كثيرا ، ولا هو من الأمانة الأدبية التي لا أظن أن التمويه بخلافها يروج على العقول في أيامنا هذه ، ومع أن الشاعر نفسه قد أسقط عن الناس هذه الكلفة ، وأعفاهم من احتمال هذه المئونة ؛ باعترافه في شعره ، وتصريحه لممدوحيه . بأنهم أولى له ، وأفضل عنده من أهله الذين لم يشرف بهم ، ولا تناول ما تناول من المجد بأولهم ولا بآخرهم . وقد آثرنا أن نكتفي في الاستدلال على ذلك بحياته في مصر مدة انقطاعه لكافور . ونحب قبل تلخيص هذه الصلة ، أن نذكركم بتقدمة صغيرة لهذا الأمير ، الذي حظى من روائع المتنبي ، بما رفعه إلى مصاف العواهل من هامات الأمم ، وأفذاذ العالم . ثم عاد فألحقه بأحقر من الخشاش والخنازير ، وشتم معه مصر ، وأضحك من أهلها ، ومن جهلهم الأمم ، بما نريد أن نجعله مظهرا لأخلاق الشاعر وصفاته ، وما يتناسب مع ذلك من حسبه ونفسه .

والمعروف كما تقول الكتب . أن كافورا هذا كان عبدا أسود مخصيا ، مشقوق الشفة السفلى ، بطينا ، قبيح القدمين ، ثقيل البدن ، لا فرق بينه وبين الأمة . وأنه دخل فى خدمة أبى بكر بن طغج وولديه الصغيرين ، فلما مات سيده ، تقيد الأسود بخدمة ولديه وخدمة أمهما . وقرب إليه من شاء . فتقرب إليه الناس : من صغر همتهم . وخسة أنفسهم . وسعى بعضهم ببعض ، حتى صار الرجل لا يأمن أهل داره على أسراره . وصار كل عبد بمصر يرى أنه خير من سيده ، وقد بلغ من أمره أن مَلك مصر والشام والحجاز ، بعد موت أبى الحسن على بن الأخشيد سنة ٣٥٥ وبقى فى هذه الولاية حتى مات سنة ٣٥٧ . وفى خلال المدة من سنة ٣٤٦ إلى سنة ٣٥٠ اتصل به أبو الطيب . ولا يعنينا هنا أن نفيض فى وصف الحالة الاجتماعية فى البلاد المصرية ، فى ذلك الأوان ، وخلوّها من أهل البيوتات ، ومن ذوى العصبية . حتى يخلص ملكها لهذا الخصى ، على ما أسلفنا من وصفهم له ، وتهكمهم به ؛ وإنما يهمنا من هذه الناحية أن يكون كافور على ذلك موضوعا لهذه المدائح العجيبة من المتنبى ، ومحلا لتفضيله إياه على أهله كما ستراه بعد . وأكثر الباحثين يرجحون أن المتنبى رحل إلى مصر مراغما لسيف الدولة ؛ لسآمته من طول مقامه معه ، ولم يمكنه مما كانت تصبو إليه نفسه ، من ولاية ثغر ، أو كورة من أعماله ، ولما أصابه منه ومن أهل مجلسه من التحميل والإعراض ؛ وكان يرى أنه لا يكون أثقل على قلبه مع أحد أبغض إليه من كافور ، عدوه ومنازعه فى ملكه ؛ وكان بالضرورة يطمع من كافور فيما خاب رجاؤه فيه عنده ، حتى صرح بغرضه هذا فى أول شعر أنشده كافورا ، فى مجلس ملكه ، وبين رجال دولته ، وهو قصيدته التى مطلعها :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَاً … وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
تَمَنَّيْتَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَى … صَدِيقاً فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا

يريد أن يقول : كفى بالمرض أن يبلغ بك إلى غاية من الإعضال وانقطاع الرجاء من الإفاقة ، ترى معها التخلص بالموت شفاء وراحة . وحسبك

شقوة فى الحياة ، أن تصل بك بلواك إلى أن تصير مُناك فى مَناياك ، حين لم تجد بين الناس صديقا ، ولا عدوًّا يمكن أن يُساترك بالعداوة . ولقد تطير كافور من هذا المطلع وتشاءم به ، ولم يدر ما أوقع هذا الشاعر فى تلك الورطة ، مع شهرته المتعالمة ، وما يصف به نفسه من العلم والفهم والشعر ، وقد اعتذر عن ذلك بعضهم بقوله : إن ألمه لفراقه سيف الدولة ، سبق أمله فى كافور ، فقال ماقال ، وهو ما لا ينفى عن الشاعر هذه الهجنة القبيحة ، وفى هذه القصيدة يقول :

قَوَاصِدُ كَافُورٍ ، تَوَارِكُ غَيْرِهِ ... وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيَا
فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ ... وَخَلَّتْ بَيَاضاً خَلْفَها وَمَآقِيَا
فَتًى ، مَا سَرَيْنَا فِى ظُهُورِ جُدُودِنَا ... إِلَى عَصْرِهِ ، إِلاَّ نُرَجِّى التَّلاَقِيَا
أَبَا الْمِسْكِ ، ذَا الْوَجْهُ الذى كُنْتُ تَائِقاً ... إِلَيْهِ ، وَذَا الْيَوْمُ الَّذِى كُنْتُ رَاجِيَا
إِذَا كَسَبَ النَّاسُ الْمَعَالِىَ بِالنَّدَى ... فَإِنَّكَ تُعْطِى فِى نَدَاكَ الْمَعَالِيَا
وَغَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ ... فَيَرْجِعَ مَلْكاً لِلْعِرَاقَيْنِ وَالِيَا
أَبَا كُلِّ طِيبٍ ، لاَ أَبَا الْمِسْكِ وَحْدَهُ ... وَكُلِّ سَحَابٍ ، لاَ أَخُصُّ الْغَوَادِيَا
يُدِلُّ بِمَعْنًى وَاحِدٍ كُلُّ فَاخِرٍ ... وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمٰنُ فِيكَ الْمَعَانِيَا

فتراه جعله بحرا ، ومن عداه ضحضاحا وشلا ، وإنسان عين الزمان ، والناس كلهم مآق وحماليق ، وأنه لا يبعد على زائره أن يرجع ملكا على العراقين ، وهى أمنيته التى اسخطه عدم تحصيلها ، على قضاء الله فى عباده ، وبقى طول عمره يُريغ الناس بكبريائه وهجائه لمن يعرف ولمن لا يعرف من الحسد والتبرم ، ويقول : إن الناس يفخرون بالمنقبة الواحدة ، من الكرم أو الشعر أو الشجاعة ، وأنت قد جمع الله لك المناقب ، وخصك بما تفرق فى الناس من المزايا - قال البديعى : وكان لا يجلس عند كافور بل ينشده وهو واقف ، وإن كافورا دس إليه من يقول له : قد طال وقوفك فى مجلسه ؛ ليعلم ما عنده ، فكان جواب أبى الطيب العالى الهمة كما يزعم

ويزعمون أن قال للأسود المشقوق الشفة كما سماه :

يَقِلُّ لَهُ الْوُقُوفُ على الرُّءوسِ وبَذْلُ الْمَكْرُمَاتِ مِنَ النُّفُوسِ

قال : وعجيب أن يفعل ذلك بعد هذه الشهرة الطائرة، ولم يكن كذلك عند سيف الدولة صاحبه ومنشئه، وبعد ذلك أنشده قصيدته :

مَنِ الْجَآذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِيبِ حُمْرُ الْحُلَى وَالْمَطَايَاوَالْجَلاَبِيبِ؟

ويقول فيها :

مَا أَوْجُهُ الْحَضَرِ الْمُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ كَأَوْجُهِ الْبَدَوِيَّاتِ الرَّعَابِيبِ

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ

ثم يقول لكافور :

يُدَبِّرُ الْمُلْكَ مِنْ مِصْرٍ، إِلَى عَدَنٍ، إِلَى الْعِرَاقِ، فَأَرْضِ الرُّومِ، فَالنُّوبِ

إِذَا أَتَتْهَا الرِّيَاحُ النُّكْبُ مِنْ بَلَدٍ فَمَا تَهُبُّ بِهَا إِلاَّ بِتَرْتِيبِ

وَلاَ تُجَاوِزُهَا شَمْسٌ إذا شَرَقَتْ إلا ومِنْهُ لَهَا إِذْنٌ بِتَغْرِيبِ

ثم يقول :

قالُوا:هَجَرْتَ إِلَيْهِ الْغَيْثَ،قُلْتُ لهم: إِلَى غُيُوثِ يَدَيْهِ وَالشَّآبِيبِ

إِلَى فَتًى تَهَبُ الدَّوْلاَتِ رَاحَتُهُ وَلاَ يَمُنُّ عَلَى آثَارِ مَوْهُوبِ .

فتراه هنا رفع كافورا إلى مراتب ما فوق البشر، إذ جعله يتحكم فى قوى الطبيعة، فيحول بارادته حدة الرياح الهوج إلى لين واستواء، والشمس لاتغرب عن مصر إلا بإرادته وبعد أن تستأذنه؛ ثم عرّض بصاحبه القديم ولم يحفظ عهده، وفضل عليه كافورا أيما تفضيل، إذ جعله يعطى الممالك ولا يشوب عطاءه بما يكدره من المن . ويقولون : إن كافورا كان يكره أن يذكر لونه فى مدح أو ذم، وكان ذكر السواد فى أذنه أشد من الموت؛ ومن العجيب أن المتنبى كان يعلم

ذلك ولم تخل قصيدة من كافوريانه، من ذكر السواد تصريحا أو تلميحا ؛ وقد صرح به فى تهنئته له بدار بناها جاء فيها قوله :

وَبِمِسْكٍ يُكْنَى بِهِ، لَيْسَ بِالْمِسْـ ـكِ وَلَـكِنَّهُ أَرِيجُ الثَّنَاءِ
نَزَلَتْ إِذْ نَزَلْتَهَا الدَّارُ فِى أَحْسَـ ـنَ مِنْهَا : مِنَ السَّنَا وَالسَّنَاءِ
حَلَّ فِى مَنْبِتِ الرَّيَاحِينِ مِنْهَا مَنْبِتُ الْمَكْرُمَاتِ وَالْآلَاءِ
تَفْضَحُ الشَّمْسَ، كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمْـ ـسُ، بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءِ
إِنَّ فِى ثَوْبِكَ الَّذِى الْمَجْدُ فِيهِ لَضِيَاءً يُزْرِى بِكُلِّ ضِيَاءِ
كَرَمٌ فى شَجَاعَةٍ، وذَكَاءٌ فى بَهَاءٍ، وقُدْرَةٌ فى مَضَاءِ
يَا رَجَاءَ الْعُيُونِ فِى كُلِّ أَرْضٍ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ أَنْ أَرَاكَ رَجَائِى

فقد جعله يفضح الشمس حين تذر بوجهه الأسود، الذى جعل لصاحبه هذه الخلاصة من الشمائل من شجاعة إلى كرم إلى ذكاء، إلى رونق وبهاء واقتدار وعزم، وأنه مطمح أنظار الناس من كل الأقطار ؛ وانظر إلى هذه القلادة البارعة :

أُغَالِبُ فيكَ الشَّوْقَ، وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ، وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ
أَمَا تَغْلَطُ الْأَيَّامُ فِىَّ بِأَنْ أَرَى بَغِيضاً تُنَائِى، أَوْ حَبِيباً تُقَرِّبُ ؟ !

ومنها يقول :

إِذَا تَرَكَ الْإِنْسَانُ أَهْلاً وَرَاءَهُ وَيَمَّمَ كَافُوراً، فَمَا يَتَغَرَّبُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ أَبُو الْمِسْكِ أَوْهُمُ فَإِنَّكَ أَحْلَى فِى فُؤَادِى وَأَعْذَبُ
وَكُلُّ امْرِئٍ يُولِى الْجَمِيلَ مُحَبَّبٌ وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَيِّبُ
أَبَا الْمِسْكِ، هَلْ فِى الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ ؟ فَإِنِّى أُغَنِّى مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ

وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفَّىْ زَمَانِنَا ... وَنَفْسِي عَلَى مِقْدَارِ كَفَّيْكَ تَطْلُبُ!
إِذَا لَمْ تَنُطْ بِي ضَيْعَةً أَوْ وِلَايَةً ... فَجُودُكَ يَكْسُونِي، وشُغْلُكَ يَسْلُبُ

فتراه هنا أيضا ذكر الولاية وفى نظير ذلك كان كافور عنده أشرف من أبيه وأغلى عنده من أهله؛ وهذه لا نجدها عند حسيب يبيع أهله بنسيئة. وبعد هذه أنشده قوله - وقد كاد اليأس يشتد فى نفسه - : «مُنًى كُنَّ لِي أَنَّ الْبَيَاضَ خِضَابُ» جاء فيها :

وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الحُجْبُ بَيْنَنَا ... وَدُونَ الذي أَمَّلْتُ مِنْكَ حِجَابُ؟
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ، وَفِيكَ فَطَانَةٌ ... سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أُدِلَّ عَوَاذِلِي ... عَلَى أَنَّ رَأْيِي فِي هَوَاكَ صَوَابُ
وَأُعْلِمَ قَوْماً خَالَفُونِي : فَشَرَّقُوا ... وَغَرَّبْتُ، أَنِّي قَدْ ظَفِرْتُ وَخَابُوا
جَرَى الْخُلْفُ إِلَّا فِيكَ أَنَّكَ وَاحِدٌ ... وَأَنَّكَ لَيْثٌ ، وَالْمُلُوكُ ذِئَابُ
وَأَنَّ مَدِيحَ النَّاسِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ ... وَمَدْحُكَ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ كِذَاب
وَمَا كُنْتُ (لَوْلَا أَنْتَ) إِلَّا مُهَاجِراً ... لَهُ كُلَّ يَوْمٍ بَلْدَةٌ وَصِحَابُ
وَلَـكِنَّكَ الدُّنْيَـا إِلَيَّ حَبِيبَةً ... فَمَا عَنْكَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَهَابُ

وانقطع بعد إنشاد هذه القصيدة، لايلقى الأسود إلا أن يركب، فيسير معه فى الطريق، ثم عجل الرحيل، وقد أعد كل ما يلزم له على مرور الأيام بلطف ورفق، ولا يعلم به أحد من غلمانه، وهو يظهر الرغبة فى المقام، وطال عليه التحفظ فخرج ودفن الرماح فى الرمال، وحمل الماء على الإبل لعشر ليال، وتزود لعشرين، وقال فى يوم عرفة من سنة ٣٥٠ هجريه قبل مسيره بيوم واحد :

«عيد بأية حال عدت ياعيد؟»

وهى أول أهاجيه فى كافور، وإنك ليتولاك العجب الشديد من هذه المناقضة السريعة. وجدير بكل أحد أن يحيره هـذا الأمر الغريب : مديح مسرف

يرفع كافوراً إلى مالا يطمع فيه الملوك، ولم يمدح بمثله أحد، والى جانبه وعلى أثره ومن غير ذنب ولا ترة، هجاء مقذع، ينزل بالمهجو الى أحط من الخشاش والخنازير! أيكون هذا جاريا على نوع من العبث والهزؤ، أم هو جنون وإهتار، أم خسة منبت ورداءة أصل، أم يكون من قلة الحياء وعدم المبالاة على حد: «إذا لم تستح فاصنع ماشئت»؟. إن الذين يفرضون هذا كله، يجدون من عمل الشاعر مايحققه ويثبته، ولا أدرى لماذا يعز على بعض الباحثين أن يكون المتنبي عظيما فى شعره ووضيعا دنيئا فى خلقه، مادام هو الذى يعطى البرهان على هذه الضعة؟ وهل سمعت بأن إنسانا يضع نفسه، ويشرع للتهمة بابه، وينصب لسهام القالة صدره ــ نفعه دفاع منتصر، أو حمته محاولة متعصب؟ وماذا يصنع الناس مع أعاجيبه ومدائحه الماضية بقوله:

إِنِّى نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ، ضَيْفُهُمُ عَنِ الْقِرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مَحْدُودُ
جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الْأَيْدِى، وَجُودُهُمُ مِنَ اللِّسَانِ، فَلاَ كَانُوا وَلاَ الْجُودُ!
مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْساً مِنْ نُفُوسِهِمُ إِلاَّ وَفِى يَدِهِ مِنْ نَتْنِهَا عُودُ
مِنْ كُلِّ رِخْوٍ وِكَاءِ الْبَطْنِ مُنْتَفِخٍ لاَ فِى الرِّجَالِ وَلاَ النِّسْوَانِ مَعْدُودُ
أَكُلَّمَا اغْتَالَ عَبْدُ السَّوْءِ سَيِّدَهُ أَوْ خَانَهُ، فَلَهُ فِى مِصْرَ تَمْهِيدُ؟
صَارَ الْخَصِىُّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا فَالْحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ، وَالْعَبْدُ مَعْبُودُ!
اَلْعَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ لَوْ أَنَّهُ فِى ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْلُودُ
لاَ تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلاَّ وَالْعَصَا مَعَهُ؛ إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ

ثم يقول:

مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمَخْصِىَّ مَكْرُمَةً أَقَوْمُهُ الْبِيضُ، أَمْ آبَاؤُهُ الصِّيدُ؟
أَمْ أُذْنُهُ فِى يَدِ النَّخَّاسِ دَامِيَةً؟ أَمْ قَدْرُهُ وَهْوَ بِالْفَلْسَيْنِ مَرْدُودُ؟

وَذَاكَ أَنَّ الفُحُولَ البِيضَ عَاجِزَةٌ عَنِ الجَمِيلِ، فَكَيْفَ الخِصْيَةُ السُّودُ؟

ولا نريد أن نعلق على هذا الكلام ؛ فما نظن أن أحدا باقيا من أهل الأدب لم يقرأه ، ولم يتعجب من فذاذته فى الإقذاع والإفحاش . ثم تراه يعارض أول مدائحه فيه من القافية والوزن إذ يقول :

أُرِيكَ الرِّضَا لَوْ أَخْفَتِ النَّفْسُ خَافِيَا وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِي وَلَا عَنْكَ رَاضِيَا

أَمِينًا، وَإِخْلَافًا، وَغَدْرًا، وَخِسَّةً وَجُبْنًا؟ أَشَخْصًا لُحْتَ لِي أَمْ مَخَازِيَا؟

أيصح أن يوضع هذا إلى جانب ما تقدم من قوله :

يُدِلُّ بِمَعْنًى وَاحِدٍ كُلُّ فَاخِرٍ وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيكَ المَعَانِيَا

وانظر بعد ذلك الى ما هو أغث وأبرد وأهجى وأشد ، من قوله من قصيدته « الاكل ماشية الخيزلى » :

لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَ الخَصِيِّ م أَنَّ الرُّؤُوسَ مَقَرُّ النُّهَى

فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى عَقْلِهِ رَأَيْتُ النُّهَى كُلَّهَا فِي الخُصَى

وَمَاذَا بِمِصْرَ مِنَ المُضْحِكَاتِ؟ وَلَكِنَّهُ ضَحِكٌ كَالبُكَا

بِهَا نَبَطِيٌّ مِنَ أَهْلِ السَّوَا دِ يَدْرُسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الفَلَا

وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ يُقَالُ لَهُ : أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى

وَشِعْرٍ مَدَحْتُ بِهِ الكَرْكَدَنَّ م بَيْنَ القَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى

فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الوَرَى

وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ بِأَصْنَامِهِمْ وَأَمَّا بِزِقِّ رِيَاحٍ ، فَلَا

وَذَاكَ صَمُوتٌ ، وَذَا نَاطِقٌ إِذَا حَرَّكُوهُ فَسَا أَوْ هَذَى

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَالَا يَرَى

ولا نكرم هذا الشعر الساقط بأى تعليق أيضا ، غير أننا ننهى كلمتنا هذه . بأن

تذكر الناس بما وقع بين زياد النابغة وبين ملوك الحيرة ، حين نفوه ، وأهدروا دمه ، فارتحل عنهم الى الشام ، وأقام مدة فى بلاد الغسانيين ، حافظا باقيا على وفائه وإخلاصه وقد لطفت فطرته ، ووقع بثقوب ذهنه وأعراقه ، على أكرم المعاذير ، وأجمل المقايسات ، فى منطق الحجة ، ومعرض العتب ، حتى صار بذلك مثلا للحفاظ والوفاء ، وهو القائل عند رغبته فى العودة إلى النعمان :

مُلوكٌ ، وإخوانٌ ، إذا ما أتيتهم أُحَكَّم فى أموالِهِمْ وأقرَّب
كَفعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شكر ذَلِكَ أَذْنَبُوا

ويلاحظ المؤرخون على أبى الطيب ، أنه لم يذكر مشاهد مصر فى شعره ، ولا أطرى عجائبها وآثارها ولا نيلها وجسورها ولا أهلها ونزلاءها إلا بهذا السخف التافه فى مثل ماقدمنا من قوله: وماذا بمصر . . . البيت ولعل فى هذه الحالة ، مايضع بعض الضوء على حياة امرىء القيس ، الذى جعل بعض باحثى زماننا عدم تعرضه لذكر القسطنطينية فى شعره ، من الأدلة على أسطورية تاريخه . وظاهر ان امرأ القيس هنا أعذر من المتنبى ؛ لأنه يطالب بملك مسلوب ، وأما هذا فيحاول الحصول على إمرة مغتصبة ، على أن لأهل مصر الذين قام نفر منهم بالأمس بتكريمه بعض السلوى عن شتمه إياهم ؛ لأنه ذمّ أهل الأرض جميعا قبلهم ، حين يقول :

وَدهْرٍ نَاسُهُ ناسٌ صغَارٌ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَام
وَمَا أَنَا مِنْهُمُو بالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلـكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

وقوله أيضا وهو أشنع وأهجى وأدل على سوء الأدب والسخف :

أُذُمُّ إِلَى هَـذَا الزَّمَانِ أُهَيْلَهُ فَأَعْلَمُهُمْ فَدْمٌ ، وَأَحْزَمُهُمْ وَغْدُ
وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبٌ ، وَأَبْصَرُهُمْ عَمٍ وَأَسْهَرُهُمْ فَهْدٌ ، وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدُ

وبعد ، فقد ترى أن أبا الطيب كان أشعر الناس ولكنه ـ عفا الله عنه ـ كان ألأمهم طبعا ، وأحطهم نفسا ، وأخسهم أصلا ، كما أرادلنفسه وكماحكى عنها . والله أعلم .

محمد هاشم عطية

المتنبي فى مصر

بقلم احمد احمد بدوى

المدرس بمدرسة بنبا قادن الابتدائية

— ١ —

بعد نحو عشر سنوات قضاها المتنبي فى ظلال سيف الدولة ، حدثت الجفوة بينهما ، بماقام به حاسدو أبى الطيّب : من وشاية ووقيعة ، حملت سيف الدّولة على أن يصمّ أذنيه ، ويغمض جفنيه ، عما لحق بشاعره من إهانة فى حضرته على يد ابن خالويه ، حين قام بينهما نقاش فى اللغة تسابا على أثره ، وأخرج ابن خالويه من كمه مفتاحا من حديد ، ضرب به وجه المتنبى ، وأسال دمه على وجهه وثيابه ، فلم ينصفه سيف الدّولة ، ولم يأخذ له بحقّه ، ممّا يدلّ على أن الجفاء قد استحكم من نفس الأمير ، وأن الوشايات قد فعلت فعلها فى قلبه ، وما ظنك بوشايات يثيرها أبو فراس الحمدانىّ ابن عم سيف الدّوله ؟ فانّ ما كان يدور بينه وبين أبى الطيب من حوار ومناقشة ، يدلّك دلالة لا تحتمل الشكّ ، على أنّه كان من المدبّرين مع من يدبّر على إبعاد المتنبي من مكانته التى نالها لدى سيف الدولة .

غضب المتنبي لمـا ناله ؛ فخرج لا يلوى على شىء ، مزمعا فراق سيف الدولة ، وفراق البلاد التى تخضع لملكه وسلطانه ، فألقى عصا التسيار بدمشق التابعة للمملكة المصرية فى ذلك الحين ، ويقول بعض المؤرخين : إن كافورا الأخشيدى أرسل إليه وهو فى تلك المدينة يطلبه ، فأعرض وأبى قائلا : لا أقصدالعبد ، وإندخلت مصر فما قصدى إلا ابن سيده . هكذا يقول البعض ؛ أما أنا فأ كاد أوقن أنها رواية مكذوبةعليه ، بدليل أنه حين جاء إلى مصر مدح كافورا وأطنب فى مدحه ، على عكس تصريحه السابق ، الذى لو ثبت أنه قال لخشى - على أقل تقدير - أن يصل علمه إلى كافور ، فيحقد عليه ، ويعمل على الانتقام منه ، ولـكنّه - على

العكس من ذلك ـ لم يشد إلا بذكر كافور ومآثره ، ولم يعرض لابن سيّده إلا عرضا من غير قصد ؛ وإنما نرجّح أن أبا الطيب حين خرج مغاضبا لسيف الدولة ، فكر فى أن ينتقم لنفسه مما لحقها من الإهانة ، وعوّل على الالتجاء إلى كافور الذى كان منافسا لسيف الدولة فى البلاد الشّامية ، وطالما وقعت الحروب بين الإخشيد ولى نعمة كافور ، وبين سيف الدولة ؛ مما جعل بعض بلاد الشام تدخل فى ملكة الإخشيد حينا ، وفى ملكة سيف الدولة حينا آخر ، وكان كافور نفسه أحد القواد الذين نصبهم الإخشيد على جيشه المحارب لسيف الدولة ، ومن هنا نشأ التّنافس بين سيف الدّولة وكافور ، ذلك التّنافس الّذى جعل المتنبى يفكّر فى اللّحاق بمنافس أميره ، الذى لم يرع له حقوقه ، ولم يعرف له قدره ، وقد يجوز أن كافورا كاتبه بالمسير إليه ، حين علم بما حدث بينه وبين سيف الدولة من جفاء ، فأجاب المتنبى طلبه ، رجاء أن يبلغ عنده ما يغسل الإهانة التى لحقته . أضف إلى هذا أن كافورا كان يحب الأدب ويعطف على الأدباء ، مما يحبّب المتنبى فيه ويبعث فيه الأمل على أن ينال منه كل أمانيه .

— ٢ —

كافور الإخشيدى ، ويقال له : الأستاذ كافور ، ويكنى بأبى المسك ؛ أصله عبد حبشى خصى اشتراه الإخشيدى من بعض أهل مصر بثمانية عشر دينارا ، فما زال يتقدم عند سيده ، حتى أصبح مربى ولديه ، وقائدا من أكبر قواده الذين اعتمد عليهم فى تأسيس دولته ؛ لعقله ، وتدبيره ، وشجاعته ، وحسن رأيه . فلما مات الأخشيد ، وكان قد أخذ البيعة من بعده لابنه أنوجور ، قام كافور قيما عليه ، لأن الأمير كان لا يزال قاصرا لا يستطيع إدارة البلاد ، فأصبح هو الأمير الحقيق للبلاد ، وصاحب الحول والطول فيها ، حتى مات أنوجور عام تسع وأربعمائة . وتولى بعده أخوه أبو الحسن على بن الاخشيد ، فاستبد كافور بالأمر دونه ، حتى بلغ من شأنه أن منع الناس من الاجتماع بالأمير ، ويقال : إنه حين كبر ، وتبين ما هو فيه باح الشراب بما فى نفسه من ألم دفين : ألم ذى الحق المغصوب ، والأمر السليب ، فخاف كافور أن يفلت العرش من يده ، فدس له السم ، فمات

سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، وهنا تولى كافور أمر مصر ، وأظهر خلعا وكتبا من الخليفة بولايته لمصر والشام والحجاز ، فتولاها حتى مات عام سبعة وخمسين وثلثمائة .

كان لكافور ناحيته المشرفة : من طموحه وهمته التى بلغت به الملك ، وله ناحية أخرى تضعه وتحط من قدره ، ولكنه ليس له يد فيها ، فهو عبد أسود خصى مثقوب الشفة السفلى ، بطين مشقق القدمين ، ثقيل البدن ، إلى غير ذلك من صفات جسمية تنأى به عن الجمال والحسن ، وقد استغل أبو الطيب الناحيتين : فنظر إليه من الناحية الأولى حين أراد مدحه ، ونظر إليه من الناحية الثانية حين هجاه وأقذع فى هجائه .

— ٣ —

فى جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، نزل المتنبى الديار المصرية ، وكان القائم بادارة الملك كافور الاخشيدى ، نائبا عن أنو جور لصغر سنه ، كما أسلفنا ، فأمر له كافور بمنزل خاص به ، وخلع عليه . وحمل اليه آلافا من الدراهم كما يقول الرواة ، فأنشد أول قصيدة يمدحه فيها ومطلعها :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

وإذا نحن قطعنا النظر عن انتقاد الرواة لمطلع هذه القصيدة ، بدعوى أنه غير لائق بفاتحة قصيدة تقال فى مدح الملوك ـ إذا نحن قطعنا النظر عن هذا ، وجب علينا أن نلمس الإحساسات والرغبات التى كانت تدور بنفس أبى الطيب حين أنشأ هذه القصيدة ، وإننا إذا فعلنا ذلك رأينا عكس ما يراه الناقدون ، إذ نرى هذا البيت ممثلا أعظم تمثيل لنفسية المتنبى ، الساخط على الصداقة والأصدقاء ، بعد أن أصابه فى مجلس سيف الدولة ما أصابه . وفى الحق أننا نلمس ثلاثة هواجس كبرى ألمت بالمتنبى حين أراد إنشاء هذه القصيدة ، فعبر عن هذه الهواجس ، وجعلها فاتحة قصيدته فى مدح كافور : أول هذه الهواجس سخطه العميق على الصداقة والأصدقاء ، وشدة ضجره من قسوة أعدائه عليه ، حتى

ليجهرون بعدواته من غير لثام ولا خباء ، وحسبك أن تقرأ هذين البيتين لترى فيهما تلك الروح الساخطة :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا   وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
تَمَنَّيْتَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَى   صَدِيقاً ، فأعيا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا

أما الإحساس الثانى فهو إحساس النفس الطموح ، تصاب فى أمانيها ، فلا تخضع ولا تلين لعركة القدر ، ولكنها توطن أمرها على أن تجد ، وعلى أن تعمل : أنفة من العيش بذلة ، وكأن المتنبي حينئذ يحدثنا عما حداه إلى مغادرة سيف الدولة ، وأنه طموح نفسه وأنفتها من الخضوع والخنوع . قال :

إِذَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ بِذِلَّةٍ   فَلَا تَسْتَعِدَّنَّ الْحُسَامَ الْيَمَانِيَا
وَلَا تَسْتَطِيلَنَّ الرِّمَاحَ لِغَارَةٍ   وَلَا تَسْتَجِيدَنَّ العِتَاقَ الْمَذَاكِيَا
فَمَا يَنْفَعُ الْأُسْدَ الْحَيَاءُ مِنَ الطَّوَى   وَلَا تُتَّقَى حَتَّى تكونَ ضَوارِيَا

أما الإحساس الثالث فهو ذلك الاحساس الذى ملك عليه كل وقته أيام إقامته بمصر ، وهو نزوع قلبه إلى سيف الدولة ، ومجاهدته هذا النزوع ، وفى الحق أن المدة الطويلة التى قضاها فى أكناف سيف الدولة ، والبر الذى ناله على يديه ، وجلال الذكر ونباهة الصيت الذى حازه بسبب قربه منه واستظلاله بظله ، كل ذلك كان له أثره العميق فى نفس أبى الطيب ؛ فكانت نفسه تنازعه دائما إليه فيحن إلى عهده ، ويتوق إلى أيامه ، ثم يعود إلى نفسه ، يلتمس لها عذرا فى مفارقته ، لتنصرف حينا عن النزوع الشديد إليه ؛ فيرميه بالغدر ، وأن جوده شيب بالأذى ، وأن وده غير صاف ، وقلبه غير واف . وإن مثل تلك الدعاوى ، تستوحيها النفس المكلومة لتخفف بها ثورتها ، وتهدىء لاعجها ، وأنصت إلى النزاع الذى دار بينه وبين قلبه حين يقول :

حَبَبْتُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى   وَقَدْ كَانَ غَدَّارًا ، فَكُنْ أَنْتَ وَافِيَا

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَيْنَ يُشْكِيكَ بُعْدَهُ فَلَسْتَ فُؤَادِى إِنْ رَأَيْتَكَ شَاكِيًا

فَإِنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ غُدْرٌ بِرَبِّهَا إِذَا كُنَّ إِثْرَ الْغَادِرِينَ جَوَارِيَا

إِذَا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خَلَاصاً مِنَ الْأَذَى

فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوباً ، وَلَا الْمَالُ بَاقِيَا

أَقِلَّ اشْتِيَاقاً أَيُّهَا الْقَلْبُ ، رُبَّمَا رَأَيْتُكَ تُصْفِى الْوُدَّ مَنْ لَيْسَ صَافِيَا

ولـكن المتنبي لا يكتفى بهذا ، بل إنه ليذهب متسائلا عن سبب هذا الحنين المتواصل إليه بعد ما لحقه من الإهانة فى مجلسه ، فيعلل ذلك ويقول :

خُلِقْتُ أَلُوفاً ، لَوْ رَجَعْتُ إِلى الصِّبَا

لَفَارَقْتُ شَيْبِى مُوجَعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا

وخرج بعد ذلك إلى وصف الخيل التى أوصلته إلى كافور ، ثم إلى مدح كافور ، ولقد رأيت فيما أسلفنا أن لكافور ناحيتين : ناحية يليق بها المدح ، وأخرى يليق بها الهجاء ، ولقد استغل المتنبى ناحية الجمال فى كافور ، فغالى فى المدح أيما مغالاة ، وافتن فيه أيما افتنان ، فى هذه القصيدة وسبع القصائد الأخرى التى أنشدها فى المدة التى بقيها بمصر مدحا لكافور ، وسنعرض لهذا المدح بعد ، غير أننا نريد فقط أن نلمس الروح التى سرت فى هذه القصائد ، والميزات العامة التى تبدو عليها ، ويظهر أن أولى هذه الميزات إلحاحه المتواصل على كافور ، أن يوليه ولاية ، أو يجعله على عمل ، لمح بهذا فى أولى قصائده حيث قال :

وَغَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ فَيَرْجِعَ مَلْكاً لِلْعِرَاقَيْنِ وَالِيَا

فَقَدْ تَهَبُ الْجَيْشَ الَّذِى جَاءَ غَازِيًا لِسَائِلِكَ الْفَرْدِ الَّذِى جَاءَ عَافِيَا

ثم طلب إليه صراحة أن يكل إليه أى أمر أراد ، فانه أسد القلب ، آدمى الرواء ، فلما لم يكل إليه أمرا بعد مضى أربعة أشهر على قدومه مصر ، عاد يطلب منه أن يوليه ولاية بالاغراء الملح حيث يقول :

قالوا: هَجَرْتَ إليْهِ الغَيْثَ ؛ قُلتُ لهُمْ
إلَى غُيُوثِ يَدَيْهِ وَالشَّآبِيبِ
إلى الَّذِي تَهَبُ الدَّوْلاتِ رَاحَتُهُ وَلاَ يَمُنُّ عَلَى آثارِ مَوْهُوبِ

فلم يجبه كافور بعد كل هذا الإغراء، فظن أبو الطيب، أو أراد أن يلقي في روع نفسه، أن عدم توليته وتنصيبه على عمل، ربما يعود إلى أن كافورا يشك في كفايته لهذا الأمر، فطلب إليه أن يجربه ليظهر له الحق من الباطل، وقال:

فَكُنْ فِي اصْطِنَاعِي مُحْسِناً كَمُجَرِّبٍ
يَبِنْ لكَ تَقْرِيبُ الْجَوَادِ وَشَدُّهُ
إذا كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ السَّيْفِ فابْلُهُ فَإمَّا تُنَفِّيهِ ، وإمَّا تعدُّهُ
وَمَا الصَّارِمُ الْهِنْدِيُّ إلاَّ كَغَيْرِهِ إِذَا لَمْ يُفَارِقْهُ النِّجَادُ وَغِمْدُهُ

وكان ذلك الحديث في ذي الحجة من السنة الأولى لدخوله مصر، فاصم كافور أذنيه عن دعائه، ولم يجبه إلى طلبته، فلم ييأس أبو الطيب، وظل يضرب على نغمة أنه يريد كيد أعدائه وإغاظة الشامتين الذين رجوا له البوار بعد فراق سيف الدولة، فقال له:

أَبَا الْمِسْكِ أَرْجُو مِنْكَ نَصْرًا عَلَى الْعِدَا
وَآمُلُ عِزًّا يَخْضِبُ البِيضَ بِالدَّمِ
وَيَوْماً يَغِيظُ الشَّامِتِينَ ، وَحَالَةً
أُقِيمُ الشَّقَا فِيهَا مَقَامَ التَّنَعُّمِ
وَمِثْلُكَ مَنْ كَانَ الْوَسِيطَ فُؤَادُهُ
فَكَلَّمَهُ عَنِّي ، ولم أتكلمِ

ولكن فؤاد كافور لم يكلمه عنه أيضا ، ولم يجبه إلى طلبته ، فضج أبو الطيب من هذه الحال ، وضجر لبعد أمله ، وتعسر نيله عليه ، فقال لكافور فى شهر شوال سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، أى بعد سنة ونصف من قدومه إلى مصر تقريبا :

أَبَا الْمِسْكِ، هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ ؟
فَإِنِّي أُغَنِّى مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ
وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفَّىْ زَمَانِنَا
وَنَفْسِى عَلَى مِقْدَارِ كَفَّيْكَ تَطْلُبُ .
إِذَا لَمْ تَنُطْ بِي ضَيْعَةً أَوْ وِلَايَةً
فَجُودُكَ يَكْسُونِى ، وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

وكانت تلك الدعوة كسابقاتها ، لم تجد قبولا من نفس كافور ، فأصم أذنيه كذلك عن سماع رجائه ، فضاق أبو الطيب ذرعا ، وبدأ يرى أن كافورا لن يعطيه ولاية ، ولن ينصبه على عمل ، فضجر وسئم ، ولكنه لم يشأ أن ييأس وأن يستسلم ، فبعد سنتين من تاريخ إلقائه هذه القصيدة ، أنشده قصيدة أخرى كانت هى آخر ما أنشده ، وفيها يقول :

أَرَى لِي بِقُرْبِى مِنْكَ عَيْنًا قَرِيرَةً ... وَإِنْ كَانَ قُرْبًا بِالبِعَادِ يُشَابُ
وَهَلْ نَافِعِى أَنْ تُرْفَعَ الْحُجْبُ بَيْنَنَا ... وَدُونَ الَّذِى أَمَّلْتُ مِنْكَ حِجَابُ
أُقِلُّ سَلَامِى حُبَّ مَاخَفَّ عَنْكُمُو ... وَأَسْكُتُ، كَيْمَا لَا يَكُونَ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ،وَفِيكَ فَطَانَةٌ ... سُكُوتِى بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أُدِلَّ عَوَاذِلِى ... عَلَى أَنَّ رَأْيِى فِي هَوَاكَ صَوَابُ
وَأُعْلِمَ قَوْمًا خَالَفُونِى فَشَرَّقُوا ... وَغَرَّبْتُ ، أَنِّى قَدْ ظَفِرْتُ،وَخَابُوا

غير أن ذلك لم يغير من الموقف شيئا ، ولم يمنحه كافور الولاية . وإن هذا اللجاج من المتنبي فى طلب ولاية من كافور ليَملأ شعره ، حتى إن قصيدة واحدة من قصائد مدحه له ، لم تخل من تحدثه عن هذا الأمل ، ورغبته الملحة فى إنجازه ؛ وهذا يصور أمامنا نفسية المتنبي ظاهرة دون خفاء ، فهو يرغب فى الملك ويطمح إليه ، وقد ظن أن نبوغه فى الشعر وكثرة مدحه لكافور يوصلانه إلى أمله ، فيغيظ حساده ، الذين كادوا له عند سيف الدولة ، ولكن كافورا كان أحكم من أن يغره مثل شعر المتنبي ومديحه ، فاعتقده أولا غير أهل للولاية والسلطان وإدارة شئون عمالة من العمالات . وهى تلك العقيدة التى جد المتنبي كثيرا فى سبيل إبطالها . وطلب إليه أن يبلوه ويختبره ، لأن السيف ما دام فى قرابه لا يميز جيده من رديئه ، وعند الاختبار يبدو الصفر من النضار ، وهناك رواية تحدثنا أن كافورا سئل : لماذا لم يول أبا الطيب ولاية ؟ فقال : إنه وهو فقير معدم قد ادعى النبوة بعد النبي ، فكيف به بعد أن يلي ، ويصبح له أتباع وأنصار ؟ إنه لا يأمن أن يستقل بولايته ، أو أن يرثه فى مصر كلها بعد مماته . ويقولون : إن المتنبي طلب منه ولاية (صور) فى الشام ، أو إحدى ولايات الصعيد . وهذه الروايه تبين السبب الأساسى الذى حدا بكافور أن يمنعه تولى ولاية بعد أن كان قد وعده بها ، ومناه ؛ فان شعر المتنبي يدلنا على أن كافورا وعده بولاية بعض أعماله ، ولكنه لم يف له بهذا الوعد ـ ولقد لجأ المتنبي إلى طريقتين يستجلب بهما رضا كافور عن توليته عمالة من عمالات ملكه ؛

أولاهما: (وهى ثانية الظواهر الثلاث فى شعره بمصر) إظهار نفسيته بمظهر المترفع المتعالى ، ووصفها بأنها نفسية ملك حلت فى إهاب شاعر ، فهو يقول له مرة :

وَفُؤَادِى مِنَ الْمُلُوكِ، وَإِن كَا ... نَ لسَانى يُرَى مِنَ الشُّعَرَاءِ

ويقول له أخرى :

تَهْوى بِمُنْجَرِدٍ لَيْسَتْ مَذَاهِبُهُ ... لِلُبْسِ ثَوْبٍ ومَأْكُولٍ وَمَشْرُوبِ

يَرَى النُّجُومَ بِعَيْنَىْ مَنْ يُحَاوِلُها ... كَأَنَّهَا سَلَبٌ فِى عَيْنِ مَسْلُوبِ

ويقول فى ثالثة :

وَفِى النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ ... وَمَرْكُوبُهُ رِجْلاَهُ، وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ

وَلٰكِنَّ قَلْباً بَيْنَ جَنْبَيَّ ، مَالَهُ ... مَدًى يَنْتَهِى بِى فِى مُرَادٍ أَحُدُّهُ

وقد حسب المتنبى أن ذلك يرشحه لمنصب الملك، ويهيئه للعرش والسلطان، فلا يحتقره كافور بدعوى أنه شاعر لا علاقة له بالملك والحكم، ولكنى أكاد أوقن أن ذلك من الأسباب الرئيسية التى خوفت كافوراً من استخدامه وإبلاغه أمله، فانه يخشى تلك النفسية العظيمة التى بين جنبى المتنبى أن تعمل على الاستقلال والانفراد.

والطريقة الثانية : الاغراق فى مدح كافور إلى آخر حدود الاغراق، فانه قد استغل الناحية المشرقة من كافور استغلالا تاما، وحسبك أن تسمع قوله فى القصيدة الأولى :

قَوَاصِدُ كَافُورٍ تَوَارِكُ غَيْرِهِ ... وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيَا

فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ ... وَخَلَّتْ بَيَاضاً خَلْفَهَا وَمَآقِيَا

نَجُوزُ عَلَيْهَا الْمُحْسِنِينَ إِلَى الَّذِى ... نَرَى عِنْدَهُمْ إِحْسَانَهُ وَالْأَيَادِيَا

فَتًى مَا سَرَيْنَا فِى ظُهُورِ جُدُودِنَا ... إِلَى عَصْرِهِ إِلاَّ نُرَجِّى التَّلاَقِيَا

تَرَفَّعَ عَنْ عُونِ الْمَكَارِمِ قَدْرُهُ ... فَمَا يَفْعَلُ الْفَعْلاَتِ إِلاَّ عَذَارِيَا

أَبَا الْمِسْكِ، ذَا الْوَجْهُ الذى كُنْتُ تَائِقاً ... إِلَيْهِ، وَذَا الْيَوْمُ الَّذِى كُنْتُ رَاجِيَا

أَبَا كُلِّ طِيبٍ، لاَ أَبَا الْمِسْكِ وَحْدَهُ ... وَكُلِّ سَحَابٍ، لاَ أَخُصُّ الْغَوَادِيَا

يُدِلُّ بِمَعْنًى واحِدٍ كُلُّ فَاخِرٍ ... وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمٰنُ فِيكَ الْمَعَانِيَا

وقوله فى أخرى :

تَفْضَحُ الشَّمْسَ كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمْـ ... ـسُ بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءِ

إِنَّ فِى ثَوْبِكَ الَّذِى الْمَجْدُ فِيهِ ... لَضِيَاءً يُزْرِى بِكُلِّ ضِيَاءِ

إِنَّمَا الجِلْدُ مَلْبَسٌ، وَابْيِضَاضُ النَّفْـ ـسِ خَيْرٌ مِنَ ابْيِضَاضِ الْقَبَاءِ
كَرَمٌ فِي شَجَاعَةٍ، وَذَكَاءٌ فِي بَهَاءٍ، وَقُدْرَةٌ فِي وَفَاءِ.
مَنْ لِبِيضِ الْمُلُوكِ أَنْ تُبْدِلَ اللَّوْ نَ بِلَوْنِ الْأُسْتَاذِ وَالسَّحْنَاءِ؟

فانظر اليه كيف يلتمس العذر للونه، ويعده من المفاخر التي يشرف الملوك أن تبدل ألوان جلودهم بلون جلده.

وإذا كانت الطريقة الأولى لم تنجح في جلب ولاية للمتنبي، فلم تكن الطريقة الثانية بأنجح منها. وأغلب الظن أن كافورا كان يود من أبي الطيب أن يظل في دولته تحت لوائه، على أن يكون شاعره الخاص، ممتعا بكل مظاهر الترف والرفهنية، على شريطة ألا يطمع فيما سوى ذلك، ولكنها نفس أبي الطيب الطموح التي لا ترضى بالقليل.

الظاهرة الثالثة هي التي تحدثنا عن النزاع الذي كان قائما بين المتنبي ونفسه، وحنينه الدائم إلى سيف الدولة، فهو لا يكاد ينشيء قصيدة في مدح كافور إلا ويذكر فيها سيف الدولة وألمه لفراقه، وكان بجانب ذلك يتلمس الأسباب التي تهدىء من روعه حينا، وتخفف عليه شدة هذا الفراق حينا آخر، وإن رغبته في تهدئة قلبه وضميره هي التي كانت تدعوه في كثير من الأحيان إلى أن ينسب سيف الدولة إلى إهانته وجفوته، ثم يعود غير مطمئن إلى ذلك، فيندم ويتحسر، ثم يعود وهكذا، مما يدل على نزاع قلبه الدائم إلى سيف الدولة، وإن شئت أن تلمس ذلك فاقرأ قوله:

فِرَاقٌ، وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ وَأَمٌّ، وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ!
وَمَا مَنْزِلُ اللَّذَّاتِ عِنْدِي بِمَنْزِلٍ إِذَا لَمْ أُبَجَّلْ عِنْدَهُ، وَأُكَرَّمِ
فَلَوْ كَانَ مَا بِي مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ عَذَرْتُ، وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعَمَّمِ
رَمَى، وَاتَّقَى رَمْيِي، وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى هَوًى كَاسِرٌ كَفِّي، وَقَوْسِي، وَأَسْهُمِي

أُصَادِقُ نَفْسَ الْمَرْءِ مِنْ قَبْلِ جِسْمِهِ وَأَعْرِفُهَا فِي فِعْلِهِ وَالتَّكَلُّمِ
وَإِنْ بَذَلَ الْإِنْسَانُ لِي جُودَ عَابِسٍ جَزَيْتُ بِجُودِ التَّارِكِ الْمُتَبَسِّمِ

وقوله :

وَلِلّٰهِ سَيْرِي ! مَا أَقَلَّ تَئِيَّةً عَشِيَّةَ شَرْقِيَّ الْحَدَالَى وَغُرَّبُ
عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّتِي أَتَجَنَّبُ

وفى الحق إنا لا نكون مغالين إذا قلنا : إن حنينه إلى سيف الدولة لم يفارقه طول المدة التى قضاها بمصر فى ظلال كافور .

— ٤ —

اتصل أبو الطيب المتنبى ، وهو بمصر بقائد آخر هو أبو شجاع فاتك ، وأبو شجاع فاتك هو الذى يقول عنه ابن خلكان : إنه مملوك رومىّ الأصل ، وكان سيده قد أعتقه بالرّملة ، عند ما أراد الإخشيد أن يأخذه منه كرها ، وكان شجاعا مقداما ، ولذلك لقّب بالمجنون ، وكان رفيق الأستاذ كافور فى خدمة الإخشيد ، فلما مات مخدومهما وتقرر كافور فى خدمة ابن الإخشيد ، أنف فاتك من الإقامة بمصر ، كى لا يكون كافور أعلى منه مرتبة ، ويحتاج أن يركب فى خدمته ، وكانت الفيوم وأعمالها إقطاعا له ، فانتقل إليها ، واتخذها مسكنا ، فلم يصح له بها جسم ، وكان كافور يخافه ، ويكرمه خوفا منه ، وفى نفسه منه ما فيها ، فاستحكمت العلة فى جسم فاتك ، وأحوجته إلى دخول مصر للمعالجة ، فدخلها ، وبها أبو الطيب المتنبى ضيفا للأستاذ كافور ، وكان يسمع بكرم فاتك وكثرة شجاعته ، غير أنه لا يقدر على قصده خوفا من كافور ، وفاتك يسأل عنه ويراسله بالسلام ، ثم التقيا بالصحراء مصادفة من غير ميعاد ، فلما رجع فاتك إلى داره حمل لأبى الطيب فى ساعته هدية قيمتها ألف دينار ، ثم أتبعها هدايا أخرى فاستأذن المتنبى الأستاذ كافوراً فى مدحه ، فاذن له ؛ فمدحه بقصيدته المشهورة : (لا خيل عندك تهديها ولا مال) . انتهت رواية ابن خلكان . وهى رواية يذكرها

جلّ مؤرخى المتنبي وفاتك؛ وإذا رجعنا إلى شعر المتنبي فى فاتك، وجدنا فيه روح الحب وروح صدق المودة؛ ولسنا نستدل على ذلك بقصيدته التى مدحه بها . فقد يكون ذلك ناشئاً عن رغبته فى عطاياه . ولكننا نستدل عليه بقصائده التى رثاه بها؛ فهى ثلاث قصائد تفيض بالحب وصدق المودة؛ كما سنبين بعد مما يدلنا على أن روحيهما قد تآلفا، وأن المتنبي أخلص له المودة وصافاه وأخلص له المصافاة: وكان ذلك من الأسباب التى حملت كافوراً على بغض المتنبي وكراهته . . .

مدح المتنبي فاتكا بقصيدته التى مطلعها :

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا، وَلاَ مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ، إنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ

وهى قصيدة طويلة لم تبلغ إحدى قصائده فى كافور مبلغها؛ ولعل المتنبي أحس طولها؛ فأراد أن يعتذر من هذا التطويل الذى يكرهه بعض الناقدين للأدب، فقال :

وَقَدْ أَطَالَ ثَنَائِى طُولُ لاَبِسِهِ إنَّ الثَّنَاءَ عَلَى التِّنْبَالِ تِنْبَالُ

وقد أوحى إليه فكره ماشاء أن ينسبه إليه من كرم وشجاعة وفضل ونبل. وغالى فى ذلك أيما مغالاة حتى قال :

كَفَاتِكٍ، وَدُخُولُ الْكَافِ مَنْقَصَةٌ

كَالشَّمْسِ قُلْتُ، وَمَا لِلشَّمْسِ أَمْثَالُ

ولم ينس أن يرد على من يلقبه بالمجنون بقوله :

وَقَدْ يُلَقِّبُهُ الْمَجْنُونَ حَاسِدُهُ إذَا اخْتَلَطْنَ، وَبَعْضُ الْعَقْلِ عُقَّالُ

أى أن حاسده يلقبه بالمجنون إذا اختلطت السيوف والرماح، لما يراه من شجاعته وإقدامه، مع أن العقل فى مثل هذه الحال لا يحمد

أما الذى نستدل به على وفاء المتنبي لفاتك، فهو كما قلنا قصائد رثائه فيه، وهى ثلاث :

أولاها — أنشأها خاصة لرثائه، بعد أن ترك مصر، وقد حدثنا فيها عن

عواطفه إزاء الراحل العزيز لديه ، الحبيب إلى قلبه ؛ ثم سجل فى شعره لفاتك خلال السمو والنبل ، حتى لقدرفعه عن أهل زمانه ، وجعل قدره أسمى من أن يعيش معهم . وهو فى هذه القصيدة قد أراد أن يغيظ كافوراً من ناحية . وأن يوازن بينه وبين فاتك من ناحية أخرى ، وكانت نتيجة هـذه الموازنة وضعاً من شأن كافور ، ورفعاً من قدر فاتك . ولأنقل هنا بعض هذه القصيدة لترى فيها بعض ما ذكرت ؛ قال :

كُنَّا نَظُنُّ دِيَارَهُ مَمْلُوءَةً ... ذَهَباً ؛ فَمَاتَ وَكُلُّ دَارٍ بَلْقَعُ
وَإِذَا المَكَارِمُ وَالصَّوَارِمُ وَالقَنَا ... وَبَنَاتُ أَعْوَجَ ، كُلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ
المَجْدُ أَخْسَرُ وَالمَكَارِمُ صَفْقَةً ... مِنْ أَنْ يَعِيشَ لَهَا الهُمَامُ الأَرْوَعُ
وَالنَّاسُ أَنْزَلُ فِى زَمَانِكَ مَنْزِلاً ... مِن أَنْ تُعَايِشَهُم ، وَقَدرُكَ أَرْفَعُ
بَرِّدْ حَشَاىَ إِن استَطَعْتَ بِلَفْظَةٍ ... فَلَقَدْ تَضُرُّ إِذَا تَشَاءُ وَتَنفَعُ
مَنْ لِلْمَحَافِلِ وَالْجَحَافِلِ وَالسُّرَى؟ ... فَقَدَتْ بِفَقْدِكَ نَيِّراً لاَ يَطْلُعُ
وَمَنِ اتَّخَذْتَ عَلَى الضُّيُوفِ خَلِيفَةً ؟ ... ضَاعُوا ! وَمِثْلُكَ لاَ يَكَادُ يُضَيِّعُ
قُبْحًا لِوَجْهِكَ يَا زَمَانُ ؛ فَإِنَّه ... وَجْهٌ لَه مِن كُلِّ قُبْحٍ بُرْقُعُ
أَيَمُوتُ مِثْلُ أَبِى شُجَاعٍ فَاتِكٍ ... وَيَعِيشَ حَاسِدُهُ الْخَصِىُّ الأَوْكَعُ؟
أَبْقَيْتَ أَكْذَبَ كَاذِبٍ أَبْقَيْتَهُ ... وَأَخَذْتَ أَصْدَقَ مَن يَقُولُ وَيَسمَعُ
وَتَرَكْتَ أَنْتَنَ رِيحَةٍ مَذمومةٍ ... وَسَلَبْتَ أَطْيَبَ رِيحَةٍ تَتَضَوَّعُ

أما القصيدة الثانية فلم ينشئها قصداً لرثاء فاتك ، ولـكنه عرض لرثائه فى أثنائها ، والقصيدة فى الواقع أنشأها المتنبى يصف لنا فيها خروجه من مصر ، ويحدثنا عن بعض الفلسفة التى أوحتها إليه المدة التى قضاها فى مصر ، وسوف نعرض لهذا كله بعد : على أن بضعة الأبيات التى تحدث فيها عن فاتك لم تخل

من روح التعظيم له والاجلال ، فجعل الأحياء كلهم لا يشابهونه فى شيمة ، فلما مات لم يبق له خلف فيهم ، وأنصت إليه يقول :

لاَ فَاتِكٌ آخَرٌ فِى مِصْرَ نَقْصِدُهُ   وَلاَ لَهُ خَلَفٌ فِى النَّاسِ كُلِّهِمِ

مَنْ لاَ تُشَابِهُهُ الاحْيَاءُ فِى شِيَمٍ   أَمْسَى تُشَابِهُهُ الْأَمْوَاتُ فِى الرِّمَمِ

عَدِمْتُهُ ، وَكَأَنِّى سِرْتُ أَطْلُبُهُ   فَمَا تَزِيدُنِىَ الدُّنْيَا عَلَى الْعَدَمِ

أما القصيدة الثالثة ، فهى قطعة صغيرة لا تزيد على عشرة أبيات ، لم ينس فيها أن يعرض بملوك مصر ، وأنهم اذ أقيسوا بفاتك خرجوا أصفارا أنفع من وجودهم عدمه . وأجود من جودهم بخله ، وأحمد من حمدهم ذمه ، وأشرف من عيشهم موته

— ٥ —

أقام المتنبى فى مصر نحو ثلاث سنوات ونصف سنة ، مدح كافوراً فى أثنائها بأربع قصائد فى نصف السنة الأولى لمقدمه عام ستة وأربعين وثلاثمائة ، وباثنتين فى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، وبدا بعد ذلك الضجر على أبى الطيب ، وداخله حقد على كافور ، لأنه لم ينله أمنيته ، فلم يمدحه فى سنة ثمان وأربعين وثلثمائة إلا بقصيدة ظاهرها مدح وباطنها هجاء مقذع مر ، وفى سنة تسع وأربعين وثلثمائة ألقى آخر سهم فى كنانته ، فمدحه فى شوال من تلك السنة بآخر قصيدة ظل بعدها عاما لا يلقى كافورا ، وإن كان يركب فى معيته حذرا من غضبه عليه ، والقارىء لشعر المتنبى يلمس فيه قوة أمل أبى الطيب واتساع رجائه فى أشعاره الأولى التى مدح بها كافورا ، وقد لا نغالى إذا قلنا إن كافورا من ناحيته قد أكرم مثواه ، وخلع عليه ، ووهبه ؛ فان التاريخ يحفظ له أنه كان نصير الأدب ، وكان براً بالأدباء ، جوادا معطاء ، وإن كان كافور فى هذه المدة قد داخله الشك فى صحة احترام المتنبى له ، واعتقاده صدق ما يقول فيه ؛ فقد ذكر صاحب الصبح المنبى أن المتنبى كان يقف بين يدى كافور . وفى رجليه خفان ، وفى وسطه سيف

ومنطقة ، ويركب بحاجبين من مماليكه ، وهما بالسيوف والمناطق ، وكان لايجلس في مجلس كافور ؛ وروى الرواة أن كافورا دس إلى أبي الطيب من قال له : قد طال قيامك في مجلس كافور . يريد أن يعلم ما في نفسه له ، فقال ارتجالا :

يَقِلُّ لَهُ الْقِيَامُ عَلَى الرُّءوسِ   وَبَذْلُ الْمَكْرُمَاتِ مِنَ النُّفُوسِ

وكثيرا ما سئل المتنبي عن السبب الذى حدا به إلى الوقوف بين يدى كافور مع رفضه ذلك بين يدى سيف الدولة ، والسبب فى الحقيقة هو تلك الأمنية الكبيرة التى كان يرجو تحقيقها على يدى كافور ، فلما انقضى عامان على مقدم أبى الطيب بدأ أمله يبعد ، وبدأ يرى أن كافورا لن يبلغه مآربه ، فداخله الحقد عليه ، وهاجت به عوامل الثورة والنقمة ، حتى إنه حين ذكر قتل شبيب العقيلى الثائر على كافور ؛ لم يستطع أن يخفى ما بقلبه من ضغينة عليه ، فتهكم به ، وحدثه أنه نال ما ناله بالحظ ، لا بالسعى والجد ، وإذ كان كذلك فليس له فضل ولا فضيلة ، واستمع إلى التهكم القاتل فى قوله :

قَضَى اللهُ يَا كَافُورُ أَنَّكَ أَوَّلٌ   وَلَيْسَ بِقَاضٍ أَنْ يُرَى لَكَ ثَانِ
فَمَالَكَ تَخْتَارُ الْقِسِيَّ وَإِنَّمَا   عَنِ السَّعْدِ يَرْمِى دُونَكَ الثَّقَلَانِ
وَمَالَكَ تُعْنَى بِالْأَسِنَّةِ وَالْقَنَا   وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ
وَلِمْ تَحْمِلُ السَّيْفَ الطَّوِيلَ نِجَادُهُ   وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنْهُ بِالْحَدَثَانِ!

ولما لم يجد من كافور سامعا لتلبية رغباته ، عزم على الرحيل من مصر ، وتجسمت فكرة الرحيل عن مصر فى رأسه ، منذ عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة ، فقد أصابته الحمى ، فى شهر ذى الحجة من تلك السنة ، فوصفها ، وفى أثناء وصفها عرض برغبته فى الرحيل عن مصر ، وشكى حالته التعسة بها ، مما يشعرنا بأن الجفوة وجدت سبيلها إلى فؤادهما ، حتى أصبح كافور يبتسم فقط إلى أبي الطيب من غير أن تكون هذه الابتسامة دليلا على صفاء الحب وإخلاص المودة ، والمتنبي من ناحيته يجازيه على هذه الابتسامة بابتسامة أخرى لا تزيد على ابتسامته

ولعل أبا الطيب لم ينج فى مصر أيضا من الحساد والحاقدين ، وقلة الأصدقاء المخلصين ، مما جعله يزيد ملالا فى مصر وأهل مصر ، وحقا إن مثل أبى الطيب ما كانت لتطيب له مصر ، أو ليهدأ فيها ، ما دام أمله الذى جاء من أجله لم يتحقق فليغادرها إلى حيث يجد لنفسه الطموح مكانا ، واسمعه يقول فى قصيدة وصف الحمى :

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا ... جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ ... لِعِلْمِى أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ ، فَلَا وَرَائِى ... تَخُبُّ بِىَ الرِّكَابُ وَلَا أَمَامِى
وَمَلَّنِىَ الْفِرَاشُ ، وَكَانَ جَنْبِى ... يَمَلُّ لِقَاءَهُ فِى كُلِّ عَامِ
قَلِيلٌ عَائِدِى ، سَقِمٌ فُؤَادِى ... كَثِيرٌ حَاسِدِى ، صَعْبٌ مَرَامِى

✲ ✲ ✲

أَلَا يَا لَيْتَ شِعْرَ يَدِى : أَتُمْسِى ... تَصَرَّفُ فِى عِنَانٍ أَوْ زِمَامِ ؟

✲ ✲ ✲

يَقُولُ لِىَ الطَّبِيبُ : أَكَلْتَ شَيْئًا ... وَدَاؤُكَ فِى شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
وَمَا فِى طِبِّهِ أَنِّى جَـوَادٌ ... أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الْجِمَامِ

وروى أن المتنبى قال : كنت إذا دخلت على الأسود « كافور » هش لمقدمى وفرح به وابتسم لى ، فلما أنشدته : ولما صار ودّ الناس خبّا . البيت ، كفّ عن الابتسام والضحك ، وتلك الرواية تؤيد صحة ما استنبطناه فيما سبق ، غير أن كافوراً لم يسمح لأبى الطيب بالرحيل عن مصر ، وأبى عليه أن يغادرها ، حتى لقد استأذنه مرة أن يخرج إلى الرملة ، ليقضى مالا كتب له به فمنعه ، وحلف عليه ألا يخرج ، وقال : نحن نوجه من يقضيه لك ، فغضب أبو الطيب ، وحنق عليه فى قلبه

غير أن بيتين قالهما فى تلك الحادثة أحب أن أوجه إليهما النظر قال :

إِذَا سِرْنَا عَنِ الْفُسْطَاطِ يوماً فَلَقِّنِى الْفَوَارِسَ وَالرِّجَالاَ
لِتَعْلَمَ قَدْرَ مَنْ فَارَقتَ مِنى وَأَنكَ رُمْتَ مِنْ ضَيْمِى مُحَالاَ

فهل حقاً كان كافور يقصد إذلال المتنبى وإلحاق الضيم به كما قال؟ إن بعض الروايات ترجح هذا الذى قاله. ولعل كافوراً حين علم أن المتنبى يبغضه ويحتقره ويدبر الهرب من مصر خشى أن يهجوه، ويقذع فى هجائه، فضيق عليه سبيل الهرب قصد إيلامه وإذلاله.

— ٦ —

قلت إن آمال المتنبى التى أنزلها بوادى كافور لم تجد سبيلها إلى التحقق، ولم يظفر منها المتنبى بقليل أو كثير. فلم يبق بد من أن يجد اليأس سبيله إلى قلبه. واليأس يبعث فى نفس صاحبه الحقد والضغينة والغضب، كما بعثت فى قلب المتنبى فثار وغضب، وانقلبت محامد كافور فى نظره مساوىء ومخازى، وبدأ يهجوه هجاء مراً مقذعاً فى تهكم قاتل مرير فى أثناء وجوده بمصر، فقد نظر مرة إلى شقوق برجليه، فقال قصيدة منها:

أَمَيْنًا، وَإِخْلاَفاً، وَغَدْراً، وَخِسَّةً وَجُبْناً، أَشَخْصاً لُحْتَ لِى، أَمْ مَخَازِيَا؟
تَظُنُّ ابْتِسَامَاتِى رَجَاءً وَغِبْطَةً وَمَا أَنَا إِلاَّ ضَاحِكٌ من رَجَائِيَا
وَتُعْجِبُنِى رِجْلاَكَ فِى النَّعْلِ، إِنَّنِى رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إِذَا كُنْتَ حَافِيَا
وَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى أَلَوْنُكَ أَسْوَدٌ مِنَ الْجَهْلِ أَوْ قَد صَارَ أَبيَضَ صَافِيَا
وَيُذَكِّرُنِى تَخْيِيطُ كَعبِكَ شَقَّهُ وَمَشْيَكَ فِى ثَوبٍ مِنَ الزيتِ عَارِيَا
وَمِثْلُكَ يُؤْتَى مِن بِلاَدٍ بَعِيدَةٍ لِيُضحِكَ رَبَّاتِ الحِدَادِ البَوَاكِيَا

وأخذ المتنبى يضرب على وتر هجائه، ويرميه بمقذع القول، حتى إن المتنبى لم يشتهر بهجاء مثل شهرته بهجاء كافور، مما جعل كثيراً من الأدباء ينسبون كل هجاء قاله المتنبى ولم يعرف فيمن قاله إلى أنه قاله فى كافور، وحقاً لقد أقذع فيه كل الإقذاع كقوله فيه:

مِن أية الطُّرقِ يأتي نحوكَ الكَرَمُ؟ أينَ المَحَاجِمُ يا كافورُ، والجَلَمُ؟
سَادَاتُ كلِّ أناسٍ من نفوسهمُ وسَادَةُ المُسلِمِينَ الأعبُدُ القزمُ
أغايةُ الدِّينِ أن تحفُوا شوَاربَكُم يَا أمَّةً ضَحِكَت من جهلِهَا الأمَمُ
ألاَ فتًى يُوردُ الهِنْدِيَّ هَامَتَهُ كَيمَا تَزُولَ شكُوكُ النَّاسِ والتُّهَمُ!
فإنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِي القُلُوبَ بهَا مَنْ دِينُهُ الدَّهرُ والتَّعطِيلُ والقِدَمُ

ولقد جلب المتنبي على نفسه عداوة وزير كافور ايضاً، وهو أبو الفضل جعفر بن الفرات، المعروف بابن حزابة، فلم يمدحه مع أنه وزير كافور، والمقرب لديه، وهو من بيت شريف أهل وزارة ورياسة، ومن أهل العلم والأدب. وروى ابن خلكان أن المتنبي حين قصد مصر مدح كافوراً، ومدح وزيره أبا الفضل بقصيدته الرائية التي أولها: « بَادٍ هوَاكَ صَبَرتَ أمْ لَمْ تَصْبِرَا ». وجعلها موسومة باسمه فتكون إحدى القوافي جعفراً وكان منها

صُغْتُ السِّوَارَ لأيِّ كَفٍّ بشَّرَتْ بابْنِ الفُرَاتِ؟ وأيُّ عَبْدٍ كَبَّرَا

فلما لم يرضه صرفها عنه، ولم ينشده إياها، فلما توجه إلى عضد الدولة قصد ارجان، وبها أبو الفضل بن العميد، فحول القصيدة إليه، ومدحه بها فأبدل ابن الفرات بابن العميد. اه ولهذا أحاطت العداوات بالمتنبي، ففكر جدياً في ترك مصر. وهنا في هذا الظرف العصيب ذكر سيف الدولة وما كان يلقاه في جانبه من الخفض والدعة فقال:

فَارَقْتُكُمْ فإذا مَا كانَ عِنْدَكُمُ قبلَ الفِرَاقِ أذًى، بَعْدَ الفِرَاقِ يَدُ
إذا تذَكَّرْتُ مَا بَيْنِي وبَيْنَكُمُ أعَانَ قَلْبِي على الشَّوْقِ الَّذِي أجِدُ

عمل المتنبي في الخفاء على ترك مصر، فبدأ يعد كل مايحتاج إليه بلطف ورفق كي لا يعلم به أحد من غلمانه، وهو مع ذلك يظهر الرغبة في المقام، ثم كتب إلى عبد العزيز بن يوسف الخزاعي في بلبيس، يطلب منه دليلا، فأرسل به إليه،

فمدحه بأربعة أبيات فاذا كان يوم العيد الأكبر سنة خمسين وثلثمائة ، انتهز فرصة اشتغال الناس بالعيد ، حتى لا يلحظ تغيبه ، وفر هارباً من مصر ناجيا من الضيق الذى أحاطه به كافور ، ويقول المؤرخون إن كافوراً لما علم بهربه بذل جهده فى اقتفاء أثره فلم يفلح ، ونجا المتنبى منه ومن سجنه ، ولا إخال أن كافوراً كان يخشى من المتنبى إلا لسانه وهجاءه المر المقذع ، وقبل أن يغادر المتنبى مصر بيوم واحد ، أنشأ قصيدة قوية السبك متينة الاسلوب ، بدأها بهذا البيت المشهور :

عِيدٌ ، بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يَا عِيدُ ... بِمَا مَضَى، أَمْ لِأَمْرٍ فِيكَ تَجْدِيدُ ؟

وفى هذه القصيدة مبالغة فى الاقذاع لكافور ، وحسبك أن تقرأ قوله :

إِنِّى نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ ضَيْفُهُمُ ... عَنِ القِرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مَحْدُودُ
جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الأَيْدِى وَجُودُهُمُ ... مِنَ اللِّسَانِ، فَلاَ كَانُوا وَلاَ الْجُودُ !
مَا يَقْبِضُ المَوْتُ نَفْسًا مِن نُفُوسِهِمِ ... إلاَّ وَفِى يَدِهِ مِنْ نَتْنِهَا عُودُ
أَ كُلَّمَا اغْتَالَ عَبْدُ السُّوءِ سَيِّدَهُ ... أوخَانَهُ ، فَلَهُ فِى مِصْرَ تَمْهِيدُ ؟
صَارَ الْخَصِيُّ إِمَامَ الآبِقِينَ بِهَا ... فَالْحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ ، وَالعَبْدُ مَعْبُودُ
العَبْدُ لَيسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ ... لَوْ أَنَّهُ فِى ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْلُودُ
لاَ تَشْتَرِ الْعَبْدَ إلاَّ وَالْعَصَا مَعَهُ ... إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ
مَنْ عَلَّمَ الأَسْوَدَ المَخْصِىَّ مَكْرُمَةً ... أَقَوْمُهُ البِيضُ ، أَمْ آبَاؤُهُ الصِّيدُ ؟
أَمْ أُذْنُهُ فِى يَدِ النَّخَّاسِ دَامِيَةً ؟ ... أَمْ قَدْرُهُ، وَهْوَ بِالْفَلْسَيْنِ مَرْدُودُ

ولم ينس فى شعره الهجائى أن ينال أهل مصر بالتقريع والهجو ، فهى أمة ضحكت من جهلها الأمم ، لطاعتها كافوراً وخضوعها له ، ومصر أهل كل عجيبة ، بها كثير من المضحكات . ولكنها مضحكات مبكيات ، قال المتنبى :

وَكم ذَا بِمصر مِنَ الْمُضحِكات ؟ وَلَكِنَّهُ ضَحِكٌ كَالبكا
بِهَا نَبَطِيٌّ مِن أَهْلِ السَّوَا دِ يَدرُسُ أَنساب أَهلِ الْفَلاَ
وأسوَدُ مشفَرُهُ نِصفُهُ يُقَالُ لَهُ : أنتَ بدرُ الدُّجَى

قالوا : إنه أراد بالنبطى أبا الفضل الوزير ، وبالأسود كافور .

وحقد المتنبي على المصريين ، ووسمه إياهم بالجهل والغفلة ، إنما هو لخضوعهم لكافور ورضاهم به ملكا ، وفى الحق أن المصريين لا يعابون على ذلك ، بعد أن نقبلوا الاسلام ديناً لهم ، والاسلام يحث على طاعة أولى الأمر من أى شعب كانوا ، ولسنا نريد أن ندخل فى تفصيل النظريات الاسلامية التى قبلها المصريون ودانوا بها ، تلك النظريات التى درسناها لم تعب على المصريين خضوعهم لكافور

هذا وقد كان المتنبي أمام مشكلة جديدة : تلك هي مدحه لكافور ، فماذا يصنع؟ لم يكن بد من أن يكذب نفسه فيه ، ويقول :

وَشِعرٌ مَدحتُ بِهِ الكَركدَنَّ م بَينَ القرِيضِ وَبينَ الرُّقَى
فَمَا كَانَ ذَلِكَ مدحاً لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجوَ الوَرَى

وليس أقوى من شعر المتنبي فى كافور ، دلالة على السخط على الحظوظ والنقمة عليها ، حين يرى مواهبه وملكاته تزيد على مواهب كافور (فى نظره هو) ولكنه لم يؤت حظه .

خرج المتنبي من مصر قاصداً الكوفة وحدثنا عن المواضيع التى مر بها فى طريقه إليها : فى مقصورة أنشأها لهذا الغرض ؛ ولقد وصف خروجه من مصر فى قصيدة رثى فاتكا ؛ وفيها يقول :

لاأبغضُ العِيسَ، لَكِنِّى وَقَيتُ بِهَا قلبِي مِنَ الْحُزنِ، أو جِسمِى مِنَ السَّقَمِ
طَرَدْتُ مِن مِصْرَ أيدِيهَا بأَرجُلِهَا حَتى مَرَقنَ بنَا مِن جوشَ وَالعَلَمِ
تَبرِى لَهُنَّ نَعَامُ الدَّوِّ مُسرَجَةً تُعَارِضُ الْجُدُلَ المُرخَاةَ بِاللُّجُمِ

فِي ذِلَّةٍ أخطارُ وأرواحهم ورضوا بما لقين ، رضا الأيسار بالزّلم

وهكذا كان مقامه بمصر ذكرى مؤلمة ، تمر بقلبه ، فتثير فيه عوامل الغضب والحقد والأسى والحسرة ، فتزيد نقمته على كافور ، ويهجوه ويهجو أيامه ؛ هذا ولأن المتنبي جاء إلى مصر لغرض خاص هو توليته ولاية فى مصر أو فى الشام ، لم يأبه كثيرا لآثار مصر وما توحيه إلى النفس من معنى الجلال والخلود ، فلم نر فى شعره إلا ألفاظ النيل والهرم والمقطم فحسب فى قوله :

أينَ الَّذِى الْهَرَمَانِ مِنْ بُنيَانِهِ مَا قَوْمُهُ ، مَا يَومُهُ ، مَا الْمَصرَعُ ؟

وقوله فى قصيدة أخرى من قصائده الأولى فى كافور بعد أن ذكر خيله وإبله :

وَسَمنَا بِهَا الْبَيْدَاء حتَّى تَغَمَّرَت مِنَ النِّيلِ واستَذرَت بِظِلِّ المقَطَّم

وفى الحق لقد شغل الأمل قلب المتنبى عن كل شىء ، فأين هو من آثار مصر وما فى مصر من جمال وجلال ؟

— ٧ —

أثرت فى نفسية المتنبى تلك المدة التى قضاها بمصر . فأوحت إليه بمبادىء فلسفية آمن بها ، لأنها كانت نتيجة اختباراته فى المدة التى قضاها بمصر ، فاظهر هذه المبادىء ثلاثة : أولها فلسفة النقمة على الدهر وسوء الظن به ، والحقد على تصاريفه ، وذلك نتيجة طبعية لما صادفه المتنبى من خيبة الأمل وانهيار الرجاء ، مع اعتقاده فى نفسه أنه خير كثيرا من هذا الذى يتقلد زمام الملك فى البلاد ، وأولى منه بالرياسة والسلطان ، ولهذا كان أتعب الناس لدى المتنبى كبير الهمة ، بعيد الأمل ، واسع المطامع ، إذا لم يبلغ مآربه وقصر وجده عما تشتهى نفسه ، وخير دواء رآه المتنبى لذلك هو لقيان الدهر من غير اكتراث وتهوين ما يشق على النفس وقعه (وإن كان هو لم يعمل بما قال) وأنصت إلى قوله :

وأتعبُ خَلقِ اللهِ مَن زَادَ همُّهُ وقَصَّرَ عمَّا تشتَهى النفسُ وُجدُهُ

ويقول فى أخرى :

لاَ تلقَ دَهرَكَ إلاَّ غيرَ مكترِثٍ ... مَادَامَ يَصْحَبُ فيهِ رُوحَكَ الْبَدَنُ

فَمَا يُدِيمُ سُرُوراً مَا سُرِرْتَ بِهِ ... وَلاَ يَرُدُّ عَلَيْكَ الفائِتَ الْحَزَنُ

ثانيها فلسفة سوء الظن بالناس وعدم الثقة بوعودهم وأحاديثهم وصدقهم ، ووفائهم ، فلا خليل إلا وهو مشكوك فى صحة خلته لأنه بعض الأيام ، ولا صديق إلا وهو مطوى الصدر على الخب والخداع ، فلا يغرنك منهم ابتسامة طويلة ، ولا تحبب ظاهر تحتـه الغش والخيانة ، وهـذا نتيجة طبيعية لحياته مع كافور الذى لم ينل منه أمله ، وإنما نال ابتساما فجازاه بابتسام ، واسمعه يقول :

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا ... جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ

وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ ... لِعِلْمِى أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ

ويقول :

هَوِّنْ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنْظَرُهُ ... فَإِنَّمَا يَقَظَاتُ الْعَيْنِ كَالْحُلُمِ

وَلاَ تَشَكَّ إِلَى خَلْقٍ فَتُشْمِتَهُ ... شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْغِرْبَانِ وَالرَّخَمِ

وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتُرُهُ ... وَلاَ يَغُرَّكَ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ

غَاضَ الْوَفَاءُ ، فَمَا تَلْقَاهُ فِى عِدَةٍ ... وَأَعْوَزَ الصِّدْقُ فِى الإِخْبَارِ وَالْقَسَمِ

ثالثها فلسفة كانت فى الحقيقة نتيجة رحلته فى مصر ، تلك هى فلسفة القوة والسيف ونبذ فلسفة القول ، والشك فى أنها تجدى ، وذلك أنه رأى نفسه ، مع تملكه عنان البلاغة وأزمة القول لم يبلغ ما كان يريد بلوغه من الولاية والملك والسلطان ، فشك فى فائدة الشعر ثم عاد فآمن بأن القلم خادم السيف ، وأنه لا يجدى إلا إذا كان السيف هو الآمر المطاع ، وأنصت إلى قوله :

حَتَّى رَجَعْتُ ، وَأَقْلاَمِى قَوَائِلُ لِى : ... الْمَجْدُ لِلسَّيْفِ ، لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ

أُكْتُبْ بِنَا أَبَدًا، بَعْدَ الْكِتَابِ بِهِ   فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلأَسْيَافِ كَالْخَدَمِ
أَسْمَعْتِنِي، وَدَوَائِي مَا أَشَرْتِ بِهِ   فَإِنْ غَفَلْتُ فَدَائِي قِلَّةُ الْفَهَمِ
مَنِ اقْتَضَى بِسِوَى الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ   أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمِ

وإذا تدبرت قوله «رجعت» فى الشطر الأول علمت أن تلك النتيجة كانت كما قلنا – أكبر ما جناه من رحلته بمصر [1].

أحمد أحمد بدوى

---

(١) المراجع :
ا – ديوان المتنبى .
ب – الصبح المنبى عن شخصية المتنبى .
ج – وفيات الأعيان لابن خلكان .
د – النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة .

المتنبي فى مصر

بقلم على النجدى ناصف

مفتش المعارف بعلوى

متى فكر فى رحيله الى مصر ؟

لم تكن فكرة ارتحال المتنبي إلى مصر وليدة الساعة التي أزمع فيها الخروج من حلب ، ولكنها كانت فكرة مدبرة ، يرجع عهدها إلى تغير سيف الدولة عليه ، وشعور المتنبي أن قد حانت آخرة أيامه عنده . وآية ذلك قوله فى قصيدة العتاب التي أنشده إياها على أثر الدسائس التي دسها أبو فراس وشيعته :

أَرَى النَّوَى تَقْتَضِينِي كُلَّ مَرْحَلَةٍ لَا تَسْتَقِلُّ بِهَا الْوَخَّادَةُ الرُّسُمُ
لَئِنْ تَرَكْنَ ضُمَيْرًا عَنْ مَيَامِنِنَا لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُمْ نَدَمُ

فضمير جبل قريب من دمشق ، يكون على يمين السائر إذا انحدر الى الجنوب (١)

طريقه الى مصر :

إذاً ، فقد بارح المتنبي حلب ، وإنه ليعلم أين يقصد ؟ لذلك لا ندرى لماذا عاج على دمشق ، ولم يمض لطيته قدما ؟ أفتراه كان يتلبث بها لعل الأمير يراجع نفسه ، ويعيد النظر فى أمره ، فيبدو له فيه ، ويبعث فى استرضائه ؟ أم تراه قصد أن يتمهل ريثما تنتهى إلى كافور أخبار مفارقته سيف الدولة وسخطه عليه ، فيطلبه ، وتكون هجرته إليه بدعوة منه ؟ لقد كان المتنبي فى مصر نادما حزينا

(١) شرح التبيان : ٢ : ٢٦١

لفراق سيف الدولة . وها هو ذا يأسف أن أسرع المسير عنه ، وجانب الطريق إليه ، حيث يقول :

وَلِلّهِ سَيْرِى ، مَا أَقَلَّ تَئِيَّةً عَشِيَّةَ شَرْقِىَّ الْحَدَالَى وَغُرَّبُ

عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِى مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الذِى أَتَجَنَّبُ(١)

وسنرى عما قريب أنه لم يُغِذّ السير إلى مصر حتى جاءه الطلب من كافور . نعم ، لقد كتب كافور إلى عامله فى دمشق ، يطلب المتنبى ، ولكن العامل فيما نرجح لم يبلغ المتنبى رغبة كافور ، وكتب إليه يدعى أن المتنبى يقول : لم أقصد العبد ، وإن دخلت مصر فما أقصد إلا ابن سيده ، ذلك بأن العامل سأل أبا الطيب أن يمدحه ، فلم يفعل (٢)

ولا ندرى كم لبث المتنبى فى دمشق ، ولكننا نستطيع أن نقول : إنه لم يلبث فيها طويلا ؛ لأنه دخلها على نية السفر ، ولم تكن علاقته بواليها مرضية .

فى الرملة :

ثم انحدر إلى الرملة ، وكان أميرها الحسين بن طغج ، فأكرم وفادته ، وأهدى إليه هدايا نفيسة ، وخلع عليه ، وقلده سيفا محلى ، وحمله على فرس بمركب ثقيل (٣) . ونعتقد أن المتنبى لم يمدح الأمير بما أفضل عليه . فكل ما قاله فيه لا يزيد على قصيدة واحدة . وطائفة من المقطعات ، ارتجلها فى مناسبات معروفة ، ليس بينها الشكر على هبات . فجميعها إذاً مما نظمه الشاعر حين زار الرملة من قبل ، تلبية لدعوة الأمير .

وإذًا يكون من العجائب حقا أن يتقبل الشاعر عطايا الأمير ، ثم يسكت عن مدحه ، كأنْ لم يفِدْ منه شيئا ، وهو القائل لفاتك :

---

(١) الحدالى بفتح الحاء وضمها موضع بالشام ، وغرب جبل هناك . التئية التلبث .

(٢) الصبح المنبى : ١ : ١٠٩

(٣) الصبح المنبى : ١ : ١٠٩ ، ١١٠

وَمَا شَكَرْتُ لِأَنَّ الْمَالَ فَرَّحَنِى سِيَّانِ عِنْدِىَ إِكْثَارٌ وَإِقْلَالُ
لٰكِنْ رَأَيْتُ قَبِيحاً أَنْ يُجَادَ لَنَا وَأَنَّنَا بِقَضَاءِ الْحَقِّ بُخَّالُ

فليت شعرى هل علم الشاعر أن الأمير لم يعطه هذه العطايا رغبة المدح، ولكن برا بسابقة المودة والتعارف ليس غير؛ لأنه لا يرى من حسن الذوق أن يمدحه المتنبي قبل أن يمدح ولى الأمر فى الدولة، بعد إذ صح عنده أنه فى طريقه إليه؟ ربما كان ذلك، ولكن ليس بعيدا أيضا أن تكون هذه الهبات من كافور لا من ابن طغج، بعثها إليه؛ ليستهويه، ويحبب إليه القدوم على مصر، وإذاً يكون المتنبي قد ادخر الجزاء عليها إلى يوم يلقى صاحبها.

شوق كافور للقاء المتنبي:

أما كافور، فكان يتحرق شوقا إلى المتنبي أن يقصده، ويقول فيه شعرا، نفاسة على سيف الدولة، ونزوعا إلى ما كان ينزع إليه سائر الملوك، وأصحاب الجاه والسلطان يومئذ، حتى لقد كان يسائل أصحابه حين وصل المتنبي إلى الرملة، يقول لهم فى قلق وإشفاق: أترونه يبلغ الرملة ولا يجيئنا؟ كأن ما نقله عامل دمشق كان يريبه فى أمر المتنبي، ويلقى فى روعه أنه ليس بزائره، ولو قرب مزاره منه.

ثم كتب كافور إلى أمير الرملة، يطلب المتنبي، فسار إليه، ودخل مصر سنة ٣٤٦. وربما كان ذلك (كما يقول العكبرى) فى أعقاب الصيف، أو مطلع الخريف (١)؛ لقوله فى إحدى كافورياته، يصف جوّ الصحراء، كما قاساه فى مقدمه على مصر:

أَلاَ لَيْتَ يَوْمَ السَّيْرِ يُخْبِرُ حَرُّهُ فَتَسْأَلَهُ، وَاللَّيْلَ يُخْبِرُ بَرْدُهُ

(١) التبيان: ١: ٢٥٢

إقامته بمصر :

وقد أمر له كافور بمنزل يقيم فيه ، ويظهر أنه كان منزلا حسن الأثاث ، وثير الفراش ، كما يفهم من قوله فى قصيدة الحمى :

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إلاَّ فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا المَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَافَتْهَا، وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي

وعهد بخدمته إلى طائفة من الغلمان ، يلازمونه ، ويركبون معه إذا ركب . قال :

أَنَا الْيَوْمَ مِنْ غِلْمَانِهِ فِي عَشِيرَةٍ لَنَا وَالِدٌ مِنْهُ يُفَدِّيهِ وُلْدُه

قالوا : وقد وكل به كافور جماعة ، وأظهر التهمة له (١) وإذا فقد وُضع الشاعر تحت المراقبة منذ هبط مصر ، فلم يكن حرا يتنقل حيث يشاء ، أو يتصل بمن يريد ، غير مقيد ولا محاسب . ولا بد أن المتنبى قد ساءته هذه المعاملة الشاذة ، فأنكرها ، واحتج عليها . ولذا رأيناه يعرض عن مدحه ، ويصبر على الإعراض عنه حين طالبه به ، حتى اضطر كافورا أن يلاطفه ، ويأخذه بالإحسان والمخادعة ، فخلع عليه ، ووعده أن يبلغه جميع ما فى نفسه ، فهدأت ثائرة الشاعر ، ومدحه ، ورضى عنه إلى حين(٢)

ولعل آثار هذه المراقبة تبدو أوضح ما تكون فى أمرين : أولها أن ليس فى أخبار الشاعر التى نعرفها ، ولا فى شعره دلالة على أنه اتصل بأونوجور ، أو مدحه ، اللهم إلا أبياتا قلائل جاءت عرضا فى مرثية رثى بها والده الاخشيد ، وليست فى الديوان ، ومطلعها :

هُوَ الزَّمَانُ مُشِتٌّ بِالَّذِي جَمَعَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تَرَى مِنْ صَرْفِهِ بِدَعَا

(١) الصبح المنبى : ١ : ١١٢

(٢) الصبح المنبى : ١ : ١١٢ ، ١١٣

ومن أبيات المدح فيها قوله :

ثَبتُ الْجَنَانِ، فَلاَ نِكْسٌ وَلاَ وَرِعٌ ... تَلْقَاهُ مُتَّزِرًا بِالْحَزْمِ مُدَّرِعَا

وَلَوْ أَبَتْ أَخَذَتْ أَسْيَافُهُ البِيَعَا ... أَعْطَتْ أَبَا الْقَاسِمِ الْأَمْلاَكُ بَيْعَتَهَا (١)

وكأن المتنبي كان يرى أن مدح أونوجور واجب لا مفرّ منه، ولا هوادة في أدائه ؛ لأنه ولى الأمر، وحاكم البلاد الشرعي، فلما أن تعذر عليه مدحه قصدا، رأى أن يعمل الحيلة لمدحه، فرثى أباه. ثم تخلص من الرثاء إلى التعزية والمدح.

بينه وبين فاتك :

الأمر الثاني أن المتنبي لم يستطع أن يتصل بفاتك، أو أن يمدحه إلا بعد لأي ومصابرة، وترقب للمصادفة المواتية أن تأتي بمالا يحتسب، فقد سمع المتنبي بفاتك فأحبه، وأعجب بشجاعته وسخائه. وكان فاتك يسأل عنه. ويرسل السلام إليه، ثم التقيا في سفر على غير موعد، فتعارفا. وأنس كلاهما بصاحبه. ولما رجع فاتك حمل إليه هدية جليلة، قيمتها ألف دينار، ثم تتابعت عليه صلاته وهداياه، فاستأذن كافورا في مدحه، فأذن له، ولكن على كره منه ؛ لأنه كان يخاف فاتكا، ويتكلف له الحب والكرامة، مداهنة ورئاء (٢) فمدحه المتنبي بقصيدة واحدة، لم يزد عليها، مع أنه لبث في مصر بعدها نحو ثلاث سنين. وتلك هي القصيدة الطنانة، التي مطلعها :

لاَ خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلاَ مَالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ، إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

وإذا صح أن فاتكا توفي في شوال سنة ٣٥٠، وأن المتنبي لم يرثه إلا بعد فراره من مصر - يكون الشاعر قد شهد وفاته، ولكن حيل بينه وبين رثائه في حينه (٣).

(١) راجع زيادات ديوان شعر المتنبي ١ ص : ٢٩، ٣٠

(٢) النجوم الزاهرة : ٤ : ٥

(٣) وفيات الأعيان : ١ : ٥١٤

ولئن كان المتنبي فى مصر لم يستطع أن يؤدى حق فاتك عليه حيا وميتا ، لقد عرف بعد خروجه من مصر كيف يؤديه على الوجه الذى يرضى الشهامة والإخلاص ، فقد ظل على حبه والوفاء له ، يرثيه ويتوجع لفقده كلما بدت مناسبة ؛ رثاه أولا بعينيته الرائعة :

الْحُزْنُ يُقْلِقُ ، وَالتَّجَمُّلُ يَرْدَعُ وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِىٌّ طَيِّعُ

ودخل عليه صديق ، وبيده تفاحة من ندّ ، عليها اسم فاتك ، وكانت مما أهداه إليه فهاجته الذكرى ، وتملكه الأسى ، فقال كلمته المؤثرة ، التى منها :

يُذَكِّرُنِى فَاتِكًا حِلْمُهُ وَشَىْءٌ مِنَ النَّدِّ فِيهِ اسْمُهُ

وَلَسْتُ بِنَاسٍ ، وَلَكِنَّنِى يُجَدِّدُ لِى رِيحَهُ شَمُّهُ

ونظم بعد خروجه من بغداد سنة ٣٥٢ ، قصيدة ذكر فيها مسيره من مصر وألم فيها برثاء فاتك كذلك ، وأولها :

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِى النَّجْمَ فِى الظُّلَمِ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلاَ قَدَمِ ؟!

ومن أبيات الرثاء فيها :

لاَ فَاتِكٌ آخَرٌ فِى مِصْرَ نَقْصِدُهُ وَلاَ لَهُ خَلَفٌ فِى النَّاسِ كُلِّهِمِ

مَنْ لاَ تُشَابِهُهُ الْأَحْيَاءُ فِى شِيَمٍ أَمْسَى تُشَابِهُهُ الْأَمْوَاتُ فِى الرِّمَمِ

ولعل المراقبة التى فرضت على المتنبي لم تكن خاصة ،ولعل سببها أن كافورا كان يومئذ فى موقف حرج تساوره المخاوف ، وتأخذه الشكوك من كل جانب ؛ لكثرة حساده والمزاحمين له ، أن أوتى من بسطة السلطان ، وعلو الكلمة فى البلاد ، مالم يؤت أحد غيره ، على سوء منبته ، ونقص رجولته ، فمن الخير له ألا يتصل الناسُ إلا على رقبة وتخوف ، وألا يرتفع صوت بالمدح إلا له وحده ليكبت الخصوم . ويأمن شر الدسائس .

وما كان كافور فى توجسه من ناحيتى أونوجور وفاتك واهما ولا مسرفا

فى الحذر ؛ فقد حدث ـ والمتنبى بمصر ـ أن طائفة من الغلمان اتصلوا بأونوجور يريدون أن يكيدوا لكافور ، ويفسدوا الأمر عليه ، ففطن كافور لهم ، وعرف ما يبيتون له ، فطالب أونوجور بتسليمهم إليه ، فسلمهم ، وتم الصلح بينهما ، وأنشأ أبو الطيب فى ذلك قصيدته :

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الْأَعَادِى وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الْحُسَّادِ
وَأَرَادَتْهُ أَنْفُسٌ ، حَالَ تَدْبِيـ رُكَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُرَادِ

ومنها :

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ ، وَالْأَبُ الْقَا طِعُ أَحْنَى مِنْ وَاصِلِ الْأَوْلَادِ (١)
لَا عَدَا الشَّرُّ مَنْ بَغَى لَكُمَا الشَّرَّ م وَخَصَّ الْفَسَادُ أَهْلَ الْفَسَادِ
أَنْتُمَا ـ مَا اتَّفَقْتُمَا ـ الْجِسْمُ وَالرُّو حُ ، فَلَا احْتَجْتُمَا إِلَى الْعُوَّادِ !
وَإِذَا كَانَ فِى الْأَنَابِيبِ خُلْفٌ وَقَعَ الطَّيْشُ فِى صُدُورِ الصِّعَادِ

وأما فاتك فكان رفيق كافور فى خدمة الإخشيد ، فلما مات الاخشيد . وأقيم كافور قيما على أونوجور ـ لم يطق فاتك الاقامة معه ؛ أنفة من أن يكون أدنى رتبة منه ، فرحل إلى الفيوم ، وكانت إقطاعا له ، ومازال بها حتى مرض ، وأحوجه المرض إلى دخول مصر للمعالجة ، وكان فاتك رجلا كريم النفس ، بعيد الهمة ، شجاعا مقداما (٢) . وإن رجلا له هذه المواهب والصفات ، لجدير إذا غبن أن يُتقى بأسه ، ويُحذر جانبه .

اتهامه كافورا بالنذالة :

ويدعى المتنبى فى غير تلوم ولا مواربة أن كافورا كان يأكل من زاده . تجد ذلك فى أهجيتين من أهاجيه فيه . قال :

---

(١) أى من الاولاد الواصلين ، من إضافة الصفة للموصوف

(٢) وفيات الأعيان : ١ : ٥١٣ ، ٥١٤

جَوْعَان ، يَأْكُلُ مِنْ زَادِي ، وَيُمْسِكُنِي
لِكَيْ يُقَالَ : عَظِيمُ القَدْرِ مَقْصُودُ

وقال :

لَوْ كَانَ ذَا الآكِلُ أَزْوَادَنَا ضَيْفًا ، لَأَوْسَعْنَاهُ إِحْسَانَا
لَكِنَّنَا فِي العَيْنِ أَضْيَافُهُ يُوسِعُنَا زُورًا وَبُهْتَانَا
فَلَيْتَهُ خَلَّى لَنَا سُبْلَنَا أَعَانَهُ اللهُ وَإِيَّانَا !

وهي دعوى غريبة ، لا ندري : أهي صادقة لا تخيل فيها ولا افتعال ، أم كاذبة دفعه إلى تلفيقها ، ووصم كافور بها مجرد الرغبة في ثلبه و التشنيع عليه ؟ فقد كان الرجل كريما كثير الهبات . يصنع في مطبخه مقادير وافرة من ألوان الطعام(١)

ويرى الواحدي أن هذه التهمة صحيحة ، ثم يذهب في تفسيرها والتماس العلل لها مذهبين : أحدهما أن المتنبي ربما أهدى اليه هدية فتقبلها منه ، ولم يكافئه عليها ؛ والآخر ، وهو أشبه بالصواب من قرينه ، وأقرب إلى المفهوم من قول الشاعر في ذلك ـ أن المتنبي ربما كان يأكل من خاصة ماله ، وينفق على نفسه مما حصل معه ، ثم كان يستأذنه في الخروج فلا يأذن له . فلم يكن يطعمه ، ولا يسمح له أن يقصد غيره ، ممن يتوسم فيهم الخير والجود . والمعروف على كل حال أن المتنبي عند كافور لم يكن مكفيّ الحاجة كما كان عند سيف الدولة ، فلم تكن له جراية يأكل منها ، ولا طعمة يستغلها .

وعده بالولاية :

ويذكر بعض الرواة أن كافورا وعد المتنبي بولاية بعض النواحي ، ولكنه لما رأى تعاليه في شعره ، وسموه بنفسه ـ أخلف الوعد ؛ مخافة أن يدعي الملك من بعده ، كما ادعى النبوة بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم (٢)

(١) النجوم الزاهرة : ٤ ٠ ٣ - ٦ ، هامش ص : ٩
(٢) وفيات الأعيان : ١ :٤٥

وعجيب حقا أن يتورط كافور على هذا النحو فى هذه الموعدة الجليلة ، يضيق بها على نفسه واسعا ، ويلزمها ماليس لازما ، وإن له عنها مندوحة وسعة . فالخطب هين ، والرجل معروف بسعة الحيلة ، وحصافة الرأى (١) . وهو لا جرم يعلم أن كذبة الأمير بلقاء مشهورة ، كما يقول زياد . فهل تراه يوم وعد هذا الوعد كان جادا فيه ، وعازما على الوفاء به ؟ وإذاً فما باله غير رأيه ، ورجع عما عزم عليه ؟ لا أظن السبب كما يقول بعض الرواة ، أن كافورا رأى منه فى أشعاره تعاليا وطموحا لاعهد له بهما من قبل ، لأن الذى أطفأ ثورة المتنبي ببادية السماوة عامل من عمال الاخشيدية ، ولأن المتنبي من قبل أن يدخل مصر كان أسير شعرا وأنبه ذكرا من أن تخفى نفسيته ومطامعه على مثل كافور .

وليت شعرى لماذا وعده كافور بالولاية إذا لم يكن حقا يعرف نزوعه اليها ، وشغفه بها ، ولم يكن يريد بهذه الموعدة أن يصانع نزعته ، ويغلى مرضاته ، عسى أن يختصه من مدحه بما لم يختص به أحدا من ممدوحيه ؟ فقد درج الناس فى مكافأة الشعراء على الاكتفاء باسناء الجائزة ، ورفع المنزلة .

وليس فى كلام البديعى مايدل على أن كافورا وعد المتنبي بالولاية صراحة ؛ فكل ما ذكره فى هذا المقام أن كافورا وعد المتنبي أن يبلغه جميع ما فى نفسه(٢)

وعندى أن هذا الأسلوب فى مرونته وعمومه أشبه بكلام الأكياس ومتعاطى السياسة من الأمراء ، فهو جدير أن يصدر عن كافور ، وأن يصح انتسابه اليه ؛ وإذاً لم يكن هناك وعد صريح بولاية ، ولا بأى مأرب معين ، وإنما كان هناك وعد مرن يمكن أن يتسع حتى يشمل كل مأرب ، وأن يضيق حتى يغص بأى مأرب ، لكن المتنبي على ما يظهر صرفه إلى الولاية ، وقصره عليها ، حتى كان كأنه وعد بها . ولا غرو فقد كان السلطان أعلق الأمانى بذهنه ، وأكثرها امتزاجا به ، وتسلطا عليه .

ولم يشأ المتنبي بعد ذلك أن يترك أمنيته هذه رهنا بارادة كافور ، يتفضل بها

(١) النجوم الزاهرة : ٤ : ٦

(٢) الصبح المنبي : ١ : ١١٣

عليه متى أراد ، ولذا راح يتنجزها عنده ، كأنها حق من حقوقه الثابتة ، ولا ندرى ماذا كان جواب كافور يوم بدأ المتنبى يطالبه ؟ ولكننا نستطيع أن نفهم من تشبث المتنبى بالمطالبة ، وتماديه فيها ـ أن كافورا على الأقل لم ينكر عليه التطلع إلى الولاية ، ولم يصده عن السعى لها .

وقد فصلنا أطوار هذه المطالبة كما تدرج فيها المتنبى ، منذ دخل مصر إلى خروجه منها ، فى العدد الأول من أعداد السنة الثانية لهذه الصحيفة ، فارجع اليها إن شئت .

بين المتنبى ووزير كافور :

والظاهر أن كافورا لم يكن يأبى على المتنبى أن يتولى بعض أعماله ، ولكن الوزير ابن الفرات زين له ألا يتورط فى ذلك ؛ لأنه كان يطمع أن يمدحه المتنبى لكن المتنبى أعرض عنه ، فحقد عليه ابن الفرات ، واتخذه غرضا للوقيعة والدس ووجد فى بعض كافورياته منفذا الى غايته ، قال الواحدى : « كنت بمصر ، وبها أبو الطيب ، ووقفت من أمره على شفا الهلاك . ودعتنى نفسى ـ لحب أهل الأدب ـ إلى أن أحثه على الخروج من مصر ، فخشيت على نفسى أن يشيع ذلك عنى ، وكان هو مستعداً للهرب وإنما فات أظافير الموت ، ومخالب المنية من قرب ، وهو جنى ذلك على نفسه ، لأنه ترك مدح ابن حنزابة وهو وزير كافور ، والمقرب منه . وأنشد القصيدة اليائية ، وأولها مما يتطير منه ، كيف لا و براعتها :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا ... وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
تَمَنَّيْتَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَى ... صَدِيقاً ، فأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا

وهذا الابتداء مما تمجه الأسماع ، فقبح ابن حنزابة أثره ، ثم لم يزل يذكر سواد كافور ووراءه من ينبه على عيوبه . (١)

(١) الصبح المنبى ١ : ١٦١ - ١٢٥

المتنبي يخرج – فى ايذاء كافور – من التلويح الى التصريح :

ومن الأبيات التى تعمد فيها أن يؤلمه ، ويسيء اليه فى صراحة وقلة اكتراث قوله فى إحدى مدائحه وقد تقدم :

وَلِله سَيْرِى ، مَا أَقَلَّ تَئِيَّةً عَشِيَّةَ شَرْقِىَّ الْحَدَالَى وَغُرَّبُ
عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِى مَنْ جَفَوْتُه وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّذِى أَتَجَنَّبُ

وقد أشار المتنبي إلى سعاية ابن الفرات فى قوله فى مدح كافور :

وَأَبْلَجَ يَعْصِى بِاخْتِصَاصِى مُشِيرَهُ عَصَيْتُ بِقَصْدِيهِ مُشِيرِى وَلُوَّمِى
فَساقَ إِلَىَّ الْعُرْفَ غَيْرَ مُكَدَّرٍ وَسُقْتُ إِلَيْهِ الشُّكْرَ غَيْرَ مُجَمْجَمِ

وكان ظاهر أمر المتنبي يدل على أنه كان يجل كافورا أكثر من سيف الدولة ، إذ كان لا يجلس فى مجلسه ، ولا ينشده إلا قائما . وكأن كافورا رابه هذا الخضوع فى مراسم الزيارة والانشاد ، يصطفيه به على سيف الدولة ، وقد كان سيف الدولة أحق به وأهله ؛ فدس عليه من يقول له :

« قد طال قيامك يا أبا الطيب فى مجلس كافور » يريد أن يعلم مافى نفسه فقال :

يَقِلُّ لَهُ الْقِيَامُ عَلَى الرُّءُوسِ وَبَذْلُ الْمَكْرُمَاتِ مِنَ النُّفُوسِ
إِذَا خَانَتْهُ فِى يَوْمٍ ضَحُوكٍ فَكَيْفَ تَكُونُ فِى يَوْمٍ عَبُوسِ ؟(١)

على أن المتنبي قد زاد التكبر فى مظهره ، بمقدار ما نقص منه فى حضرة كافور ، فقد كان يخرج وفى وسطه منطقة وسيف ، ويركب فى موكب من مماليكه ، وهم بالسيوف والمناطق (٢) . ومظهر هذا وذاك فيما يبدو – إلى طمعه فى الولاية ، وتهيئه لها ، وشدة حرصه على الظفر بها .

(١) الصبح المنبى : ١ : ١١٣ ، ١١٤ ، والتبيان : ١ : ٣٦٤
(٢) المصدر الأول نفسه ، وأدب اللغه العربية فى العصر العباسى : ٢٧٩

يأس المتنبي من كافور :

ولما طال عليه أمد الانتظار دون أن ينال من بغيته منالا ، أراد أن يعلم نية صاحبه فى الأمر ، ليقطع بالرأى الحاسم هذه الحالة المعلقة ، فإما نجاح معجل يبلغه الولاية فى غير مراوغة ولا مطال ، وإما حرمان لا تردد فيه يحل اليأس محل الرجاء ، وينتهى به من صاحبه إلى وضع جديد ، فتقدم إليه يسأله أن يوليه صيداء أو غيرها من بلاد الصعيد ، فقال له كافور : أنت فى حال الفقر . وسوء الحال ، وعدم المعين سمتْ نفسُك إلى النبوة ، فإن أصبت ولاية وصارلك أتباع فمن يطيقك ؟ ثم وقعت الوحشة بينهما ، ووضع عليه العيون والأرصاد ، خوفا من أن يهرب ؛ وأحس المتنبى بالشر (١)

ولم يعزب عنكافور وقد جابه المتنبى بالحرمان فى هذا الأسلوب الجافى . أنه حرمه أكرمأمانيه وأعزها عليه ، وصدمهصدمة قاسية ، ستثير فى نفسه الكراهة والحقد ، وتنتزع كل أثر من آثار الثقة به ، والإخلاص له ؛ فلذلك أعد كافور للأمر عدته ، وشدد المراقبة على المتنبى مخافة أن يهرب . ويبسط فيه لسانه بالذم والتشهير . ولعله كان يعلم أن مجال القول فى ذمه أوسع منه فى مدحه ، وأن المتنبى قادر على أن يذيقه من آلام الهجاء أضعاف ما أطربه من بدائع المدح ، فأصر على استبقائه عنده حيا أو ميتا . وقد مر بك قريبا أنه قبيل أن يفر من مصر كان مشرفا على الهلاك .

إصراره على الخروج من مصر :

وقد قابل المتنبى هذا الإصرار من كافور بإصرار مثله على الخروج من مصر ؛ استمع له ، وهو يلمح إلى كراهة البقاء فيها ، والعزم على الرحيل منها . قال:

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ ، فَلاَ وَرَائِى تَخُبُّ بِىَ المَطِىُّ ، وَلاَ أَمَامِى.
وَمَلَّنِىَ الفِرَاشُ ، وَكَانَ جَنْبِى يَمَلُّ لِقَاءَهُ فِى كُلِّ عَامِ

(١) الصبح المنبى : ١ : ١١٥

وقال :

أَلاَ يَالَيْتَ شِعْرَ يَدِي : أَتُمْسِي ... تَصَرَّفُ فِي عِنَانٍ أَوْ زِمَامِ ؟
وَهَلْ أَرْمِي هَوَايَ بِرَاقِصَاتٍ ... مُحَلاَّةِ الْمَقَاوِدِ بِاللُّغَامِ ؟
فَرُبَّتَمَا شَفَيْتُ غَلِيلَ صَدْرِي ... بِسَيْرٍ ، أَوْ قَنَاةٍ ، أَوْ حُسَامِ
وَضَاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ مِنْهَا ... خَلاَصَ الْخَمْرِ مِنْ نَسْجِ الْفِدَامِ
وَفَارَقْتُ الْحَبِيبَ بِلاَ وَدَاعٍ ... وَوَدَّعْتُ الْبِلاَدَ بِلاَ سَلاَمِ
يَقُولُ لِيَ الطَّبِيبُ : أَكَلْتَ شَيْئاً ... وَدَاؤُكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ
وَمَا فِي طِبِّهِ أَنِّي جَوَادٌ ... أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الْجَمَامِ
تَعَوَّدَ أَنْ يُغَبِّرَ فِي السَّرَايَا ... وَيَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ فِي قَتَامِ
فَأُمْسِكَ ، لاَ يُطَالُ لَهُ فَيَرْعَى ... وَلاَ هُوَ فِي الْعَلِيقِ وَلاَ اللِّجَامِ
فَإِنْ أَمْرَضْ فَمَا مَرِضَ اصْطِبَارِي ... وَإِنْ أُحْمَمْ فَمَا حُمَّ اعْتِزَامِي

واستأذن كافورا في المسير إلى الرملة ؛ ليخلص مالا له ، فتبين كافور فيما يظهر أنه يحتال للهرب ، فلم يأذن له ، وقال: نحن نبعث في خلاصه ، ونكفيك مئونة السفر . فاستاء ، ونظم مقطعة يذكر فيها هذه الواقعة ، قال :

أَتَحْلِفُ لا تُكَلِّفُنِي مَسِيراً ... إِلَى بَلَدٍ أُحَاوِلُ فِيهِ مَالاَ
وَأَنْتَ مُكَلِّفِي أَنْبَى مَكَاناً ... وَأَبْعَدَ شُقَّةً ، وَأَشَدَّ حَالاَ
إِذَا سِرْنَا عَنِ الْفُسْطَاطِ يَوْماً ... فَلَقِّنِيَ الْفَوَارِسَ وَالرِّجَالاَ
لِتَعْلَمَ قَدْرَ مَنْ فَارَقْتَ مِنِّي ... وَأَنَّكَ رُمْتَ مِنْ ضَيْمِي مُحَالاَ

اعتياد للخروج :

ورأى أخيرا أن يعمل الحيلة فى أمره . ويستعين على نجاحها بالخديعة والكتمان ، فأظهر الرغبة فى المقام بمصر ، وراح على مر الأيام يعد كل ما تحتاج إليه رحلته بلطف ورفق ، ولا يعلم أحد من غلمانه شيئا مما استقر رأيه عليه ، ثم كان عيدالنحر ، وكان رسم السلطان ـ فيما يقول البغدادى ـ أن يُستقبل العيد بيوم وتعد فيه الخلع والحملانات وأنواع المبار لرابطة جنده ، وراتبة جيشه . وصبيحة العيد تفرق . وثانى اليوم يذكر له من قبل ، ومن رد واستزاد ، فاهتبل المتنبى غفلة كافور ، وخرج فدفن الرماح فى الرمال ، وحمل بغاله وجماله ، وانطلق ليلة العيد سنة ٣٥٠ ، يطوى المفاوز ، ويجتاز بالحلل والمياه فى طريقه إلى الكوفة (١)

ويروى البديعى أن فرار المتنبى كان يوم العيد نفسه (٢) ، لكن المتنبى ذكر فى القصيدة التى قص فيها قصة فراره أنه خرج ليلا . قال :

وَنَامَ الخُوَيْدِمُ عَنْ لَيْلِنَا   وَقَدْ نَامَ قَبلُ عَمًى ، لاَ كَرَى

أما كافور فقد ارتاع لمهربه ارتياعا شديدا ، ولم يترك وسيلة تخطر بباله ، ويظن أنها قد ترده عليه إلا التمسها واستعان بها ؛ فكتب إلى عماله فى طلبه ، وبذل الرغائب الجليلة لمن يجىء به . فترصدته العيون بكل مرصد ، وثارت وراءه البادية والحاضرة من كل جانب ، فلم يهتدوا إليه ، ولم يظفروا به ، كأنما غاص بين سمع الأرض وبصرها ، حتى قال بعض البادية : هبه سار ، فهل محا أثره ؟ وحتى قال بعض المصريين من فرط الحيرة والدهش : لقد سلك طريقا تحت الأرض (٣) ذلك لأن المتنبى كتم أمره ، وأخفى طريقه ، وأغذّ السير فى مراحله الأولى ، ولأن كافورا فيما يظهر من مراسم العيد ــ لم يعلم نبأ فراره إلا ثانى يوم العيد ، أى بعد يوم وليلة على الأقل . وبلغ المتنبى الكوفة فى جمادى الآخرة سنة ٣٥١

---

(١) خزانة الأدب : ٢ . ٣٠٨ ، ٣٠٩

(٢) الصبح المنبى : ١ : ١٣٩

(٣) المصدر نفسه

فدخلها جاهدا مكدودا ، بعد رحلة طويلة مضنية ، شدما ساورته فيها الوساوس والمخاوف فى كل طريق سلكه ، وكل منزل نزل به .

حوادث رحلته :

ووقعت فى هذه الرحلة حوادث . أحصاها المتنبى فى شعره ، وتحدث البديعى عنها ، قال : « . . . ودخل أبو الطيب إلى موضع يعرف بنخل ، بعد أيام ، وسار حتى قرب من النقاب ، فرأى رائدين لبنى سليم على قلوصين ، فركب الخيل وطردهما حتى أخذهما ، فذكرا له أن أهلهما أرسلوهما رائدين ، فاستبقاهما . ورد عليهما القلوصين . وسلاحهما . وسار معهما حتى توسط بيوت بنى سليم آخر الليل ، فضرب له ملاعب خيمة بيضاء . وذبح له ، وسار إلى البقيع ، فنزل بادية معن ، فذبح له ، وسار إلى أن دخل حِسْمَى . وهى أرض كثيرة النخل . وطابت له حسمى . فأقام بها شهرا ؛ وكان نازلا عند وردان بن ربيعة الطائى ؛ فاستغوى عبيده . . . فكانوا يسرقون له الشىء بعد الشىء من رحله . وكاتب الأسود سائر قبائل العرب فى طلبه . . . فلما أنكر أبو الطيب أمر العبيد . ووقف على مكاتبة الأسود ، ترك عبيده نياما ، وتقدم إلى الجمال فشد عليها أسبابه ، وسار والقوم لا يعلمون برحيله ، وطرح عبيده على الإبل ، وهم لا يعلمون . وأخذ فى السير ، ومن قوله يهجو وردان هذا :

إِنْ تَكُ طَيِّئٌ كَانَتْ لِئَاماً فَألأَمُهَا رَبِيعَةُ أَوْ بَنُوهُ
وَإِنْ تَكُ طَيِّئٌ كَانَتْ كِرَاماً فَوَرْدَانٌ لِغَيْرِهِمُ أَبُوهُ
مَرَرْنَا مِنْهُ فِى حِسْمَى بِعَبْدٍ يَمُجُّ اللؤْمَ مَنْخِرُهُ وَفُوهُ

ولما توسط بسيطة ، وهى أرض تقرب من الكوفة ، رأى بعض عبيده ثورا ، فقال : هذه منارة الجامع ، ونظر آخر إلى نعامة ، فقال : هذه نخلة ، فضحك أبو الطيب ، وضحكت البادية التى كانت معه ، وقال :

بُسَيْطَةُ ، مَهْلاً ، سُقِيتِ القِطَارَا تَرَكْتِ عُيُونَ عَبِيدِى حَيَارَى

فَظَنُّوا النَّعَامَ عَلَيْكَ النَّخِيلَ وَظَنُّوا الصِّوَارَ (١) عَلَيْكَ الْمَنَارَا
وَأَمْسَكَ صَحْبِي بِأَكْوَارِهِمْ وَقَدْ قَصَدَ الضِّحْكُ فِيهِمْ وَجَارَا (٢)

وفى الكوفة نظم المتنبى مقصورته المشهورة ، يصف فيها رحيله من مصر ، ويذكر المفاوز التى مر بها أو استراح فيها ، ويفخر بوفائه وإبائه ، وشجاعته ومضائه ، ثم يهجو كافورا ويعرض بالوزير ابن الفرات ، ومطلعها :

أَلاَ كُلُّ مَاشِيَةِ الْخَيْزَلَى فِدَى كُلِّ مَاشِيَةِ الْهَيْدَبَى

ومنها فى هجاء كافور :

وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ يُقَالُ لَهُ : أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى
وَشِعْرٍ مَدَحْتُ بِهِ الْكَرْكَدَنَّ بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى
فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الْوَرَى

وجملة ما قال المتنبى فى كافور سبع عشرة قصيدة ، منها سبع فى الهجاء ، وسائرها فى المدح والتهنئة .

ويظهر أن صدمة الخيبة التى منى بها فى مصر كانت شديدة الوقع عليه ، عميقة الأثر فى نفسه . ولذا نراه فى شعبان سنة **٣٥٢** ، أى بعد فراره من مصر بقريب من عامين ـ ينشىء قصيدة خاصة ، يذكر فيها مسيره من مصر مرة أخرى ، ويحزن على مافاته فيها حزنا ممضا ، تخالطه حرقة الغيظ ، ومرارة اليأس ؛ وأولها :

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِى النَّجْمَ فِى الظُّلَمِ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلاَ قَدَمِ ؟
وَلاَ يُحِسُّ بِأَجْفَانٍ يُحِسُّ بِهَا فَقْدَ الرُّقَادِ غَرِيبٌ بَاتَ لَمْ يَنَمِ !

---

(١) القطيع من البقر

(٢) الصبح المبى : ١ : ١٣٩ - ١٤٤، وشرح العكبرى : ١ : ٣٢٩

ومنها :

لا أبغض العيس، لكني وقيت بها قلبي من الحزن، أو جسمي من السقم

طردت من مصر أيديها بأرجلها حتى مرقن بنا من جوش والعلم

ومنها :

هون على بصر ما شق منظره فإنما يقظات العين كالحلم

ولا تشك إلى خلق فتشمته شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

وكن على حذر للناس تستره ولا يغرك منهم ثغر مبتسم

اهمال المتنبي وصف مصر :

ويعتب بعض المصريين على المتنبي أن أهمل وصف مصر وآثارها الفخمة، ولم يتغن بجمال مشاهدها الرائعة، كما فعل ببحيرة طبرية قبل أن يزور مصر، وكما فعل بشعب بوان ودشت الأرزن بعد أن خرج منها. ولا شك أن محاسن مصر وآثارها الباهرة، جديرة أن تثير الاعجاب والروعة في نفس الوافد عليها، ولاسيما إذا كان كأبي الطيب شاعرا متنبه الإحساس، متهيء الملاحظة، مستقيم الفطرة؛ ولكن أبا الطيب في الواقع كان منغص الإقامة، كثير الهموم. وهيهات مع ذلك أن يلتفت الحس إلى فخامة أو جمال، التفاتا يثير داعية الشعر، ويحفز إلى التعبير عن خواطر النفس، واجتلاء صور الخيال؛ فقد جاء مصر مغاضبا سيف الدولة أحب ممدوحيه إليه، وأكثرهم أيادي عنده؛ وفي مصر ضيقت حريته، وضربت الرقابة عليه، وحطمت آماله، وأحدق الخطر بحياته من قريب؛ ولذا غلب على شعره في مصر التبرم والانقباض، حتى ما تكاد تخلو منها قصيدة مما نظم وهو فيها، أو بعد خروجه منها وكانت ذات صلة بها.

هجاؤه للمصريين :

فلأبى الطيب من هذه الناحية شفاعة مسموعة ، يمكن أن تدرأ عنه الملامة والعتب ؛ ولكن الذى يستحق عليه المؤاخذة ، فلا يغنى فى نفيها عنه شفاعة ولا اعتذار - أن يحمله شنآن كافور على أن يهجو المصريين ، ويرميهم بالجهل الفاضح تشيع أخباره ، ويضحكَ الناسَ بحمقه ومفارقاته ، قال :

جَازَ الأُلى مَلَكَتْ كَفَّاكَ قَدْرَهُمُ فَعُرِّفُوا بِكَ أَنَّ الكَلْبَ فَوْقَهُمُ
لَا شَيءَ أَقبَحُ مِن فَحلٍ لهُ ذَكَرٌ تَقُودُهُ أَمَةٌ لَيسَت لَهَا رَحِمُ
سَادَاتُ كُلِّ أُنَاسٍ مِنْ نُفُوسِهِمِ وَسَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْأَعْبُدُ القَزَمُ
أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ؟ يَا أُمَّةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الْأُمَمُ!

نعم ، لا نعرف سببا لهذا الهجاء إلا حقد أبى الطيب على كافور ؛ وإلا فأى ذنب جناه المصريون على أبى الطيب ، فاستحقوا منه كل هذا التحقير والازدراء ؟ إنهم ولا شك لا ذنب لهم فيما أصابه من الخيبة والإخفاق ؛ فلا هم دعوه إلى زيارة بلادهم ، فيتخذ من إخفاقه فيها ذريعة للنقمة عليهم والانتقام منهم ؛ ولا هم غرروا به وأطمعوه حيث لامطمع ؛ ولا هم وعدوه ثم أخلفوه ما وعدوا ؛ بل لعلهم لم يسيئوا إليه أى نوع من أنواع الإساءة .

إننا نوافق أبا الطيب على أن إحفاء الشوارب ليس غاية الدين ، ونزيد أنه ليس ركنا فيه ، ولا شرطا له ، ولا عملا من أعماله الواجبة ؛ ولكننا لا نوافق أبا الطيب ، ولا نعرف أحدا يوافقه أيضا ، على أن إسناد الولاية إليه عمل من أعمال الدين كتب على المصريين أن يجاهدوا فى سبيله ، ويستحلوا دماء من يحول دونه ، فإن فعلوا فقد أدوا الواجب ، وإن لم يفعلوا فجزاؤهم لعنة الله وهجاء أبى الطيب .

أليس ذلك هو ما يومىء إليه أبو الطيب فى أبياته السابقة ، ويدعو بسببه صراحة إلى صفع كافور وقتله ، حيث يقول :

أيْـدٍ مُقَطَّعَةٌ حَوَالَىْ رَأسِهِ وَقفاً يَصِيحُ بِهَا : ألاَ مَنْ يَصْفَعُ ؟

وحيث يقول :

ألاَ فَتًى يُورِدُ الْهِنْدِىَّ هَامَتَهُ كَيْمَا تَزُولَ شُكُوكُ النَّاسِ والتُّهَمُ ؟

إن أقل ما يقال عن إحفاء الشوارب أنه عمل غير ضار ، ولكن ماذا عسى أن يقال عن هذه الصيحة من أبى الطيب إلا أنها دعوة باغية ، تحض على سفك الدماء ، والتضحية بأمْن الجماعة من أجل مأرب خاص ، كل ما فيه من خير أو منفعة إنما يعود على امرئ لايعنيها من أمره كثير ولا قليل .

وإذا كان إحفاء الشوارب والقعود عن الفتنة والقتل من أجل أبى الطيب ـ مما يدل فى رأيه على الجهالة العمياء ، فعلام تدل صيحته هذه فى شرعة الحق والإنصاف ؟

الحق أن أبا الطيب لم يكن منصفا فى هجاء المصريين ، ولو كان هذا دأبه فى كل أهاجيه لكان التحامل والعدوان أظهر صفاته وألزمها له فى الهجاء .

وما لأبى الطيب لم يذكر الكرامة وعزة النفس يوم سعى إلى كافور ، وأنزل بساحته آماله ، وراح يتملقه ويبالغ فى مدحه ما شاء ؟ وهل لو ولىَ أبو الطيب صيداء مثلا كان يهجو المصريين ويتهكم بهم ؟ أو كان يقول كما قال ، والأمر بينه وبين كافور على ما يحب :

فَالاَّ تَكُنْ مِصْرُ الشَّرَى أوْعَرِينَهُ فَإِنَّ الَّذِى فِيهَا مِنَ النَّاسِ أُسْدُهُ ؟

غفر الله لأبى الطيب ، وأثابه أجزل الثواب على ما أسدى إلى اللغة والثقافة من صنيع .

على الجبرى ناصف

مفتش المعارف بحلوى

الوصف فى شعر المتنبى

بقلم المتولى قاسم

المدرس بمدرسة محمد على الملكية الاميرية للبنات

— ١ —

الوصف فى الشعر العربى من أهم أغراضه وأجداها على اللغة ، لخصبه وتنوع فنونه ؛ فإنه كالرسم والتصوير ، يتناول من الكون نواحى شتى : فيمثل المناظر الطبيعية ، من السماء بليلها ونهارها ، ونجومها وشمسها وقمرها ، وغيمها وصحوها : ومن الأرض بما عليها من بحار وأنهار ، وبحيرات وغدران ؛ وما فيها من صحارى ذات رمال ، ووحش وحيوان ، ومن بساتين وحقول ، تهتز وتموج بالنجم والشجر ، والزهر والثمر ؛ وينتظم ما يصطنعه الناس على هذه الأرض ، من آثار باقية ، وقصور رفيعة ، وقلاع حصينة ؛ بل إنه ليسجل لنا ما لا يطول أمده : من المجالس وما تزدان به ، وما يجرى فيها من حركات ، وما يسمع من أحاديثها وأغانيها ؛ ويجلو علينا ما فاتتنا رؤيته وشهوده ، من الحرب والطرد والصيد ؛ بل إنه لينقل إلينا شعور النفوس وإحساسها ، ويعرض على أبصارنا وأسماعنا خلجات القلوب ووجدانها ، وصفات الناس وسجاياها .

فهو غرض واسع النواحى ، بعيد ما بين الأطراف ؛ وقلما يلمّ الشاعر بأطرافه جميعا ، فضلا عن الإجادة فيها ؛ ولكل من الشعراء الوصافين فن أو فنون من الوصف ، تستأثر بنفسه ، وتظهر فيها براعته ؛ وذلك بحسب مناظر البيئة التى تقلب فيها ، والظروف التى اكتنفته واتصلت بإحساسه ، وتغلغلت آثارها فى مجرى حياته ، فكان يمثلها بصره وعقله ، وينبض بها قلبه ، ويفيض التذكرها شعوره ؛ فلا ينتظر من الشاعر أن يجيد إلا فى الناحية التى هيأته لها

حياته ، فجعلتها مناط شاعريته ، ومهبط وحيه ، ومصدر إحساسه ، ومثار آماله وآلامه .

وكذلك الناس فى حياتهم ؛ فقد زرت (المعرض) ومعى شيخ من كبار الزراع ، له مع الزراعة صداقة خمسين سنة وخبرتها ، وكان يصحبنا شاب خلىّ من تبعات الحياة ، فهو لا يزال سادرا فى اللهو واللعب ، مقبلا على هواه . . . فلما أجزنا الباب ، وتوسطنا الساحة التى تُفضى إلى أقسام المعرض ، وقفنا نُجيل الرأى فيما يحسن البدء بزيارته : فاقترحت أن نعجّل بمعرض وزارة المعارف ، ورغب الشيخ الفلاح فى المعروضات الزراعية ؛ أما الشاب فلم يؤثر شيئا على آخر ، فما كان همه إلا الإسراع ، لتبقى له فسحة من الزمن فى (الملاهي) .

وهكذا حال الشعراء الوصافين ؛ فمنهم من يسرف فى وصف الطبيعة الجميلة ؛ لغرامه بها ، وتقلبه بين مناظرها . وقلة ما يصرفه عن اجتلاء محاسنها . . . ومَن يصف المفاوز والإبل وحيوان البر ؛ لكثرة ما تتقاذفه الفيافى ، وطول ماعاش بين رمال البوادى ، فهى دنياه ومجلى هواه . . . ومَن يصف البحر وما فيه ؛ لكثرة ما ركبه وعانى من أحواله ، وتكرار ما شاهد فُلْكه وجزره وخلجانه . . . إلى غير ذلك مما لا سبيل إلى استيفائه الآن .

— ٢ —

ولقد كان شاعرنا أبو الطيب رجلا بعيد الهم ، طموحا إلى المجد ، يشعر بأن له حقا عند الأيام تمطله به ، فهو يسعى جهده لإدراكه ؛ وقد نشأ منذ نعومة أظفاره عالى الهمة ، كبير النفس ، بعيد مرمَى الأمانىّ ، مشغولا بتحقيق مطالبه ، وإدراك مآربه ؛ وقد رأى أن الوسيلة إلى ذلك إنما هى القوة والحرب ؛ فلن ينال ما يبغى من هذه الحياة ، إلا بالقنا المشتجرة ، والسيوف المرهفة ، والخيول السوابق ، والجنود الأقوياء ؛ وقد شهد الحرب منذ نشأته . ووعت نفسه الشاعرة مناظرها ، وهيئاتِ المحاربين وآلات القتال ؛ واتصل بكثير من القادة فى حياته ، وعاشر سيف الدولة ، ولازمه زمنا مديدا ، وحضر وقائعه مع الروم ، ومع الخارجين عليه من الأعراب ؛ وانغمس فى تيار الحياة لعهده ، وهى تدور على

قطبُ الحرب والقتال ؛ فلا غرو بعد ذلك أن يجيد أبو الطيب وصف الجيوش، وسلاحات الوغى، وآلات القتال من خيل وسيوف ورماح، ومظاهر الانتصار والانهزام . . .

وهذه صورة لجيش الحسن بن عبيد الله بن طغج، قد رسمها المتنبى، فجلا أمامك هذا الجيش، كأنك تسمع جلَبته، ويملك سمعَك ضوضاؤه، وترى كثرته تغطى الأرض، فرماته لا يفلت الطير من نبالهم، ولا يفوت الوحش المنزعج عن مكامنه سهامهم، بل لا يلبث كلاهما أن تناله أيديهم وسلاحهم ؛ ثم تقلّب وجهك فى السماء، فترى النسور تزدحم فوقه حائمة محلّقة، فلا تجد الشمس طريقا إلى الأرض من زحمة القشاعم وتلاصُق ريشها ؛ فإذا صادف ضياؤها فرجة رسم دراهم مستديرة على المغافر ؛ وتشهد لمعان السلاح فى جوانبه يطغى على البرق فيُخفيه، وتسمع همهمة الفوارس تعلو هزيم الرعد فتغطيه :

وَلاَ يَتَلَقَّى الحَرْبَ إِلاَّ بِمُهْجَةٍ ... مُعَظَّمَةٍ مَذْخُورَةٍ لِلْعَظَائِمِ
وَذِى لَجَبٍ، لاَ ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ ... بِنَاجٍ، وَلاَ الْوَحْشُ الْمُثَارُ بِسالِمِ
تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهْىَ ضَعِيفَةٌ ... تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ
إِذَاضَوْءُهَا لاَقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً ... تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ
وَيَخْفَى عَلَيْكَ الْبَرْقُ وَالرَّعْدُ فَوْقَهُ ... مِنَ اللَّمْعِ فِى حَافَاتِهِ وَالْهَمَاهِمِ

* * *

وقد وصف إيقاع سيف الدولة ببنى عقيل، وقشير، وبنى العجلان، وبنى كلاب ؛ فصور الطراد بين الجيش، وانهزام الثائرين من هذه القبائل، ومثّل شدة اضطرابهم حينما لاذوا بالفرار، وإرهاق نسائهم المردفات على الخيل، ووقوع الأطفال تحت سنا بكها ؛ وهذا كله بتصوير بليغ، لاتشك إذ تقرؤه أنه يعرض عليك مناظر واضحة متتابعة على سبيبة الخيالة(١) فقال (والضمير لخيل سيف الدولة) :

---

(١) شريط السينما

تشير على سلمية مسبطراً ... تناكر تحته لولا الشعار(١)
عجاجاً تعثر العقبان فيه ... كأن الجو وعث أو خبار(٢)
وظل الطعن في الخيلين خلساً ... كأن الموت بينهما اختصار
فلزهم الطراد إلى قتال ... أحد سلاحهم فيه الفرار(٣)
مضوا متسابقي الأعضاء فيه ... لأرؤسهم بأرجلهم عثار
يشلهمو بكل أقب نهد ... لفارسه على الخيل الخيار(٤)
وكل أصم يعسل جانباه ... على الكعبين منه دم ممار(٥)
يغادر كل ملتفت إليه ... ولبته لثعلبه وجار(٦)

... ...

وجاءوا الصحصحان بلا سروج ... وقد سقط العمامة والخمار(٧)
وأرهقت العذارى مردفات ... وأوطئت الأصيبية الصغار.

ألا ترى إلى إبراز المعانى ماثلة للأبصار ، آخذة بالألباب ؟ إننى كلما أنشدت هذا أو مثله من شعر المتنبى ، تذكرت على الفور بيتين للأستاذ الجارم فى شعر المرحوم شوقى بك :

(١) سلمية : مكان ـ المسبطر : الغبار الثائر الممتد ـ الشعار : علامة تميز الفرسان
(٢) الوعث : الرمل تغيب فيه القوائم ـ والخبار : الأرض اللينة .
(٣) لزهم : ألجأهم .
(٤) الأقب من الخيل : الضامر ـ النهد : العالى المشرف .
(٥) الأصم من الرماح : الشديد غير الأجوف ـ يعسل : يضطرب ـ ممار : اسم مفعول من أماره إذا أساله فهو الجارى .
(٦) الثعلب من قناة الرمح ما يدخل فى السنان ـ الوجار : بيت الضبع .
(٧) الصحصحان : المكان المستوى من الأرض .

وإن وصف الحرب خلتَ الحِراب تســـد من الأرض أقطارها
فتُمسك جنبك ذعراً ، تخاف قناها ، وترهب بتارهـــا !

٭ ٭ ٭

وفى إحدى مدائحه لكافور ، يقصّ عليه بعض متاعبه فى أسفاره ، فيقول : إنه كان يكمن النهار ويسرى الليل ، خشية أن يشغله أعداؤه عما هو بسبيله ، وكان (فى مكمنه) يتخذ أذنىْ حصانه مقياسا للأمن والفزع ، فيجعل بصره معقودا بهما ؛ فإن الحصان إذا رأى شيئا نصبهما متشوفا ، فيعلم الفارس ذلك ؛ وهنا تسنح الفرصة لوصف الحصان ، فيغتنمها الشاعر ، ويوفيه بعض حقه ، ولا يقتصر على جسمه ، بل يصف مرحه ونشاطه ، وسرعة عدوه وقوّته وصلابته . حتى ليدركُ الوحوش فلا يدركه نصب ولا يحس الكلال :

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ أُرَاقِبُ فِيهِ الشَّمْسَ : أَيَّانَ تَغْرُبُ ؟
وَعَيْنِى إِلَى أُذْنَىْ أَغَرَّ كَأَنَّهُ مِنَ اللَّيْلِ ، بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ
لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ فِى إِهَابِهِ تَجِىءُ عَلَى صَدْرٍ رَحِيبٍ وَتَذْهَبُ
شَقَقْتُ بِهِ الظَّلْمَاءَ ، أُدْنِي عِنَانَهُ فَيَطْغَى ، وَأُرْخِيهِ مِرَاراً فَيَلْعَبُ
وَأَصْرَعُ أَىَّ الْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

ولخبرة شاعرنا بالخيل ، وكثرة معاناته لأمورها ، يقف بالسامع بعد هذا الوصف يلقى عليه درس خبير بصفاتها ومنافعها ، ويحذّره أن يشغله عن الصفات ظاهر أعضائها ؛ ولكنه لا ينسى أن يلتفت إلى معنى يملك عليه نفسه فيسجله ، وهو ندور الإخلاص فى الأصدقاء .

وَمَا الْخَيلُ إِلاَّ (كَالصَّدِيقِ) قَلِيلَةٌ وَإِنْ كَثُرَتْ فِى عَيْنِ مَنْ لاَ يُجَرِّبُ
إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيرَ حُسنِ شِيَاتِهَا وَأَعضَائِهَا ، فَالْحُسنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ

وهنا نلاحظ أن أبا الطيب لا يقف كثيرا عند ظاهر الألوان والحركات؛ ولا يلبث أن تسابق بصيرته المفكرة عينه المبصرة، لتسجيل صفات الأشياء ومايرجو من جدواها؛ فانظر إلى وصفه للخيل بقوة الحوافر وصلابتها، وصدق النظر فى الظلام وبعد مداه، وحدة السمع، ووضوح ما تسمع، على ما به من شديد الخفاء:

تَمَاشَى بِأَيْدٍ كُلَّمَا وَافَتِ الصَّفَا ... نَقَشْنَ بِهِ صَدْرَ الْبُزَاةِ حَوَافِيَا (١)

وتَنْظُرُ مِنْ سُودٍ صَوَادِقَ فى الدُّجَى ... يَرَيْنَ بَعِيدَاتِ الشُّخُوصِ كَمَاهِيَا

وَتَنْصِبُ لِلْجَرْسِ الْخَفِيِّ سَوَامِعًا ... يَخَلْنَ مُنَاجَاةَ الضَّمِيرِ تَنَادِيَا

☆☆☆

ومثل ذلك وصفه للسيوف برقة المضارب، لتكون أسرع نفاذا فى الضرائب؛ وباللمعان كشُعَل النار، لتكون أشد رهبة فى نفوس الأعداء؛ وبالعرى كالمُحْرِمين مع أنها تدين بحل الدماء:

وَعَوارٍ لَوَامِعٍ دِينُهَا الْحِـــلُّ، وَلكِنَّ زِيَّهَا الْإِحْرَامُ

وأجمل ما وصف به السيف أنه يهتدى إلى المقاتل فى ظلام النقع، حيث لا يرى المحارب نفسه:

يَرَى حَدُّهُ غَامِضَاتِ الْقُلُوبِ ... إِذَا كُنْتُ فِى هَبْوَةٍ لَا أَرَانِى

ولكن لا يفوتنا هنا أن نشهد لابن دريد بسبق أبى الطيب إلى هذا، بل كان أبلغ منه وأكثر مبالغة، إذ يقول فى مقصورته:

يُرِى المنونَ حين تقفو إثره ... فى ظُلَم الأكباد سبلا لا تُرى

ويصف أبو الطيب أسنة الرماح فيقول:

نَوَاضٍ مَوَاضٍ، نَسْجُ دَاوُدَ عِنْدَهَا ... (إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ) كَنَسْجِ الْخَدَرْنَقِ (٢)

---

(١) الصفا: الصخر، وهى تؤثر فيه أشباه صدور البزاة

(٢) الخدرنق: العنكبوت

تَفُكُّ عَلَيْهِمْ كُلَّ دِرْعٍ وَجَوْشَنٍ وَتَفْرِى إِلَيْهِمْ كُلَّ سُورٍ وَخَنْدَقِ

غير أن هذا الوصف (الذى يميل نحو المعنويات) لا يصح أن يشغلنا عن رواية بيتين له فى وصف السيف حسيا، لما فيهما من جمال التصوير، فانظر إلى شُطَب السيف التى تشبه طرق النمال، كيف يتخيلها أبو الطيب ماء استعمل فى الرقم على لهب النار، فكان أدق شىء كالخط الذى فى العوذ (الأحجبة)، واعجب كيف يبرق البصر ويتحير من رقراق ماء السيف وتموجاته:

تَحْسَبُ الْمَاءَ خَطَّ فِى لَهَبِ النَّا رِ أَدَقَّ الْخُطُوطِ فِى الْأَحْرَازِ

كُلَّمَا رُمْتَ لَحْظَهُ مَنَعَ النَّا ظِرَ مَوْجٌ، كَأَنَّهُ مِنْكَ هَازِى

☆☆☆

— ٣ —

أما البادية فلها أكبر الأثر فى نفس أبى الطيب، فهى تعرفه وهو يعرفها ويستريح إليها، وكم عاش فيها، وتقلب بين نواحيها، وكم سلك منها مهالك تخون الذئب فيها نفسه، وتخذل الغراب قوائمه، حتى صار بها مغرما، يغلب على شعره ذكر مناظرها، ويصطبغ بصبغتها أسلوبه؛ بل إنه ليؤثرها على الحاضرة. ويفضل فى غزله أن يهيم بالبدويات ذوات الحسن الأصيل الموهوب، دون الحضريات ربّات الجمال المصطنع المجلوب:

هَامَ الْفُؤَادُ بِأَعْرَابِيَّةٍ سَكَنَتْ بَيْتاً مِنَ الْقَلْبِ لَمْ تَمْدُدْ لَهُ طُنُبَا

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وَفِى الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ

أَفْدِى ظِبَاءَ فَلَاةٍ، مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الْكَلَامِ، وَلَا صَبْغَ الْحَوَاجِيبِ

فليس عجيباً أن يختزن فى نفسه صور حيوان البادية: من نوافر الظباء، وأوابد الوحوش، ونجائب الابل، وعتاق الطير، وكلاب الصيد؛ حتى إذا عرض له ما يدعو إلى وصفها كانت صورها واضحة فى ذهنه، لا يحتاج الى استدعائها، ولا يعنّى نفسه فى تلمسها واستحضارها، بل إن أوصافها لتفيض على لسانه لأقل

الدواعى والمناسبات . استمع اليه إذ يصف الجيش كأنما ينظر إليه من طيارة ، تسبق اليه صورة العقاب ، فلطالما رآها وألف مشاهدتها ، حتى ارتسمت فى قلبه وتمثلت فى عينه :

يَهُزُّ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبَيْهِ كَمَا هَزَّتْ جَنَاحَيْهَا الْعُقَابُ

فالبيداء هى مدرسته الأولى ، التى غذت بمناظرها خياله ، وأطلقت فى تصويرها بيانه ، وحسبك دليلا على ذلك أن تراجع ديوانه ، فترى أنه لم يجعل الوصف من الأغراض التى يخصص لها قصيدة ، إلا فيما يمت إلى البادية بأقوى الأسباب؛ فليس فى الديوان (على كثرة ما فيه) قصيدة قائمة على الوصف فحسب ، إلا أرجوزة فى حصان تأخر عنه ظهورُ الكلأ لوقوع الثلج ، وأخرى طويلة يروى أنه نظمها ارتجالا فى وصف كلب صيد عنّ له غزال ، فانقض عليه واقتنصه بعد طراد ؛ وثالثة قصيرة فى نزهة جبلية وكلاب صيد أيضا ، ومقطوعة صغيرة فى وصف باز انطلق على حجلة فدق عنقها .

وهو فى أكثر هذا الوصف يمثل رؤبة ، والعجاج ، وأبا النجم ، فى أراجيزهم (على بعد العهد بهم) ولا عجب فقد استوحى البادية الأغراض ، واستلهمها الخيال ، واستملاها الألفاظ ، حتى لقد آثر فى جلها أن يجلوها فى معرض الرجز ، وهو بحر البادية ، ووزن الترحل بين أرجائها ، وغناء المائحين والماتحين بالدلاء على الآبار ؛ ونلاحظ هنا أن الروح الحربية قد ساعدت النزعة البدوية : أما فى الحصان فإنه من عدة الحرب كما أسلفنا ، وأما البقية فهى صيد وقنص ، ولا شك أن البراعة فى الصيد والطرد تخدم المهارة فى الحرب وتعين عليها . على أن الطرد حرب ، وإن خلا القِرن فيه من السلاح والضغينة والأحقاد ـ وهنا نجد شعر المتنبى متسقا مع نفسه ، مصورا لشعوره أصدق تصوير ، حتى فى الميزان والأسلوب .

وقع الثلج وطال أمد إقامته ، فتأخر ظهور الكلأ ، ثم ذاب الثلج ، وظهر مكانه نبت قصير فى أماكن متباعدة ، فانطلق مهر أبى الطيب يرعى هذا النبت القليل ، فجعل ينظر اليه ، ويصفه وصفا غريبا ، وكأنما اصطلحت الظروف على

الإغراب، فكان اسم ذلك المهر أشد غرابة، فالمتنبي يقدمه للقارىء باسم (الطخرور)، وجاءت الأرجوزة على حرف القاف مثال الشدة والقلقلة؛ ولكنه مع هذا وصف بارع بديع؛ وإنى أسوق صدرا منه واعدا بشرحه، فلا تكونن غرابته حائلةً دون روايته وتدبر معانيه:

مَا لِلْمُرُوجِ الْخُضْرِ وَالْحَدَائِقِ يَشْكُو خَلاهَا كَثْرَةَ الْعَوَائِقِ؟
أَقَامَ فِيهَا الثَّلْجُ كَالْمُرَافِقِ يَعْقِدُ فَوْقَ السِّنِّ رِيقَ الْبَاصِقِ
ثُمَّ مَضَى، لاَعَادَ مِنْ مُفَارِقِ! بِقَائِدٍ مِنْ ذَوْبِهِ وَسَائِقِ

فهو يقول: إن نبت هذه المراعى الفسيحة، قد منعته التبكيرَ فى الظهور موانعُ جمة، كالبرد، والثلج الذى طالت إقامته فيها، ولشدة برده يجعل ريق الباصق جامداً على أسنانه (وهذا وصف بدوى جاف أبرد من جليد القطبين). ولما أذابه الحر انحسر، فمضى متدفعا يسوق بعضه بعضا.

وبعد ذلك يصف النبت بالقصر والقلة، وكأن المهر (إذ يرعاه متنقلا مسرعا لتباعده) منطلقٌ إثر إنسان هارب يبغى إدراكه؛ ويزيد فى وصف النبت أنه لاصق بالأرض، وأن تناول الحصان له (مترددا هنا وهناك) شبيه بمحوك الحبر من الصحائف، متنقلا من هذه إلى تلك مسرعا، ثم يشبهه بالشاهين (فى عبارة بدوية لا أثر فيها للحاضرة):

كَأَنَّمَا الطُّخْرُورُ بَاغِى آبِقِ يَأْكُلُ مِنْ نَبْتٍ قَصِيرٍ لاَصِقِ
كَقَشْرِكَ الْحِبْرَ مِنَ الْمَهَارِقِ أَرُودُهُ مِنْهُ بِكَالسُّوذَانِقِ (١)

ويصفه بمخالفة يمناه باقى القوائم لونا، وبطول عنقه، وغلظ أطرافه، وتدانى مرافقه، وسعة صدره، وشرف أخلاقه لكرمه وعتقه، واتساع منخره،

(١) السوذانق: الشاهين معرب، والكاف بمعنى مثل، والهاء فى أروده للنبت، وفى منه للحصان ـ أرود هذا النبت بمثل الشاهين من هذا الحصان.

ضمور خاصرته ، والتحجيل ، وارتفاع الجسم وإشرافه ، وحمرة لونه حمرة
وسطة ، وتوسطه بين السمين والمهزول :

طَلْقِ الْيُمْنَى ، طَوِيلِ الْفَائِقِ عَبْلِ الشَّوَى،مُقَارِبِ الْمَرَافِقِ (١)
رَحْبِ اللَّبَانِ ، نَائِهِ الطَّرَائِقِ ذِى مَنْخَرٍ رَحْبٍ ، وَأَطْلٍ لاَحِقِ
مُحَجَّلٍ ، نَهْدٍ ، كُمَيْتٍ ، زَاهِقِ

وقبل أن نودع هذا الحصان لايفوتنا أن نروى فيه أبياتا أخف من السابقة ؛
لكنها أدل على بدوية أبى الطيب ، وسعة معرفته بالبادية وحيوانها ومظاهرها ،
يزعم لحصانه من الفضل : أنه فاق الخيل العتاق الضاربة فى السن ولما يفارقه
البطن ، وأربى على ذُكرانِ النعام بدقة الساق وصلابتها ، ويبالغ فى قوة
حوافره وصلابتها ، فوقع حوافره فى الأرض أشد من فعل الصواعق ؛ ثم يزعم
أوفى على الأرانب فى انتصاب الآذان ودقتها ، وهو بعدُ أحذر من العقعق
وهو طائر كالغراب يضرب به المثل فى الحذر) ـ وهنا تحمى بالمتنبى مبالغته
فنى على حصانه صفات لا يمتاز بها كثير من بنى الإنسان ، فهو خبير بالكلام
يعرف هزله وجده ، ذكى حاد لا ينام الليل ، بل يحرس الركب النيام ، وينذرهم
اللص إذا أحس اقترابه ، وهو ماهر حكيم فيما يأتى وما يدع ، ولكنه قد يظهر
بعض الحمق ، لشدة جريه ، وتناهيه فى عدوه :

زَادَ عَلَى الْمَذَاكِى وَهْوَ فِى الْعَقَائِقِ وَزَادَ فِى السَّاقِ عَلَى النَّقَانِقِ
وَزَادَ فِى الْوَقْعِ عَلَى الصَّوَاعِقِ وَزَادَ فِى الأُذْنِ عَلَى الْخَرَانِقِ
وَزَادَ فِى الْحِذْرِ عَلَى الْعَقَاعِقِ يُمَيِّزُ الْهَزْلَ مِنَ الْحَقَائِقِ
وَيُنْذِرُ الرَّكْبَ بِكُلِّ سَارِقِ يُرِيكَ خُرْقاً وَهْوَ عَيْنُ الْحَاذِقِ

* * *

ويروى أن أبا على الأوراجى أرسل كلبا على ظبي فقنصه ، فتدفق أبو الطيب

---

(١) الفائق مفصل الرأس فى العنق ـ كناية عن طول الرقبة .

بحرا متلاطم الموج ، وجعل يهدر فى تصوير هذا المنظر بأرجوزة طويلة ، حتى استكمل الصورة ، برسم مكانها ، وتصوير الظبى ، ثم الاطناب فى الكلب وطرده الظبى حتى غلبه وعلاه : فوصف الروض الذى نزلوه بأنه غير معد لاقامتهم ، بل هو منزل تباكره أيدى السحائب الهواطل ، فهو رطب الخزامى ، ذكى رائحة القرنفل ، تغدو فيه الوحوش وتروح ، وليس يحله الناس :

وَمَنْزِلٍ لَيْسَ لَنَا بِمَنْزِلِ ... وَلاَ لِغَيْرِ الْغَادِيَاتِ الهُطَّلِ

نَدِى الخُزَامَى ، ذَفِرِ القَرَنْفُلِ ... مُحَلَّلٍ مِ الْوَحْشِ ، لَمْ يُحَلَّلِ (١)

ثم انتقل إلى الظبى فكان فيه متغزلا رقيقا ، كأنما ينسب به ويشبب تشبيبا ، فوصفه وصفا تحسده عليه الغانيات لولا قرناه ، وأنه هالك بعيد النجاه :

عَنَّ لَنَا فِيهِ مُرَاعِى مُغْزِلِ ... مُحَيَّنُ النَّفْسِ ، بَعِيدُ الْمَوْئِلِ (٢)

أَغْنَاهُ حُسْنُ الْجِيدِ عَنْ لُبْسِ الْحُلِى ... وَعَادَةُ الْعُرْىِ عَنِ التَّفَضُّلِ

كَأَنَّهُ مُضَمَّخٌ بِصَنْدَلِ ... مُعْتَرِضاً بِمِثْلِ قَرْنِ الأَيِّلِ

يَحُولُ بَيْنَ الْكَلْبِ وَالتَّأَمُّلِ

وتدفع سيله فى وصف الكلب عن تجربة واختبار ، فقال : إنه واسع الشدقين ذو ساجور وسلسلة فى عنقه ، ضامر مفتول ، يسطو بشراسة ، وفى خلقه طول ، وليس يلهيه ولا يفزعه ويحيره بغام الغزال ، بل يمضى فى الانقضاض عليه ، مع شدة متنه وفقاره ، ولين مفاصله ، ليكون مقداما سريع العدو والقنص ؛ وهو (فوق ذلك) كثير التلفت ، حديد البصر ؛ فيرى مدبرا كما يلحظ مقبلا ، وعينه فى صفاء المرآة ، يسرع فى الحزون سرعته فى السهول ، فإذا تسابق مع كلاب أخر وكان فى أول الشوط تاليا متأخرا ، بلغ نهاية الشوط سابقا متبوعا لا تابعا :

---

(١) يريد من الوحش ، فحذف النون على لغة تجرى بها ألسنتنا الآن فى الدارجة

(٢) المغزل : الظبية وراءها ولدها . ومراعيها : ظبى يرعى معها ــ والمحين من الحين وهو الهلاك

فَحَلَّ كلاَّبِى وَثَاقَ الْأَحْبُلِ عَنْ أَشْدَقٍ، مُسَوْجَرٍ، مُسَلْسَلِ
أَقَبَّ، سَاطٍ، شَرِسٍ، شَمَرْدَلِ مِنْهَا، إِذَا يُثْغَ لَهُ لاَ يَغْزِلِ(١)
مُؤَجَّدِ الفِقْرَةِ، رِخْوِ الْمَفْصِلِ لَهُ ـ إِذَا أَدْبَرَ ـ لَحْظُ الْمُقْبِلِ
كَأَنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ سَجَنْجَلِ يَعْدُو ـ إِذَا أَحْزَنَ ـ عَدْوَ الْمُسْهِلِ
إِذَا تَلاَ جَاءَ الْمَدَى وَقَدْ تُلِي

ثم ما ذا يرى القارىء فى هيئة الكلب مقعيا لأخذ الصيد، إذ يرسمه المتنبى بهذا البيت:

(يُقْعِى جلُوسَ الْبَدَوِىِّ الْمُصْطَلِى) ؟ إنه لتصويرٌ عبقرى مفتنٌ ! انظر كيف يجلو أمامك هذه الصورة فى هيئة البدوى الجالس مقبلا على النار بأعلى جسمه مباعدا بين ركبتيه ؛ ليستوفى أكثر ما يمكن من الدفء لأكثر الأعضاء.

والأرجوزة طويلة جدا، وجل أبياتها فى الحسن سواء، ومن حق المتنبى أن نرويها كلها، والمقام يضيق عنها كاملة. فلنقتصر (بعد ما مر) على طرد الكلب للظبى الذى وقع فى قبضة المنون، بأنياب ذلك الكلب الحداد كالنصال، وفيها الهلاك:

فَانْبَرَيَا فَذَّيْنِ تَحْتَ الْقَسْطَلِ قَدْ ضَمِنَ الْآخَرُ قَتْلَ الْأَوَّلِ
فِى هَبْوَةٍ كِلاَهُمَا لَمْ يَذْهَلِ مُقْتَحِماً عَلَى الْمَكَانِ الْأَهْوَلِ(٢)
يَخَالُ طُولَ الْبَحْرِ عَرْضَ الْجَدْوَلِ حَتَّى إِذَا قِيلَ لَهُ : نِلْتَ، افْعَلِ

---

(١) الثغاء : صوت الشاة شبه به بغام الغزال ـ وجزم فعلين باذا ـ وهو خاص بالشعر فى لغة. كما قال الأول:

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل.

(٢) الهبوة : الغبرة، والقسطل : الغبار أيضا.

إِفْـتَرَّ عَنْ مَذْرُوبَةٍ كَالأَنْصُلِ ... لاتَعْرِفُ الْعَهْدَ بِصَقْلِ الصَّيْقَلِ
مُرَكَّبَاتٍ فِى الْعَذَابِ الْمُنْزَلِ ... كَأَنَّهَا مِنْ سُرْعَةٍ فِى الشَّمْأَلِ
كَأَنَّهَا مِنْ ثِقَلٍ فِى يَذْبُلِ ... كَأَنَّهَا مِنْ سَعَةٍ فِى هَوْجَلِ (١)
كَأَنَّهُ مِنْ عِلْمِهِ بِالْمَقْتَلِ ... عَـلَّمَ بِقْرَاطَ فِصَادَ الأَكْحَلِ

☼☼☼

ولما أوقع عضد الدولة بالأكراد، عاد يتلهّى بالصيد فى برّية جبلية فى طبرستان، مأهولة بصنوف الطير المائى، وضروب الحيوان الوحشى: من أيايل، وأسود وخنازير، وأشبال وخنانيص (٢)، ودِبَبه وغزلان، ونعام ورئال، وضباب وأورال (٣)، وبقر وثيران؛ وهنا وجدت شاعرية صاحبنا مناظر خصبة، فيها لعينه مجال، ولخياله مدد فياض، ووجد هو مكان القول ذا سعة فقال، وأوسع تلك البرية وصفا، ولم يمدح عضد الدولة بمقدار ما أسرف فى وصف حيوانها، ولا سيما الوعول (التيوس الجبلية) فقد أبدع فى تصويرها تصويرا ساخرا بليغا، وكانت لِحاها أشد ما هاج سخريته البارعة؛ فانظر إليه يصف قرونها، فيجلوها قِسيًّا من شجر الضال طويلة مسترسلة على ظهورها، لا تفتر أطرافها عن نخس أكفالها، حتى لتكادُ تنفذ من خواصرها:

وَأَوْفَتِ الْفُدْرُ مِنَ الأَوْعَالِ ... مُرْتَدِيَاتٍ بِقِسِىِّ الضَّالِ (٤)
نَوَاخِسَ الاطْرَافِ لِلأَكْفَالِ ... يَكَدْنَ يَنفُذْنَ مِنَ الآطَالِ

(١) الهوجل: الأرض الواسعة.

(٢) الخنانيص جمع خنوص: صغار الخنازير.

(٣) جمع ورل: دويبة شبيهة بالضب.

(٤) الفدر: جمع فدور على فعل «بضمتين» وأسكنها للوزن. والفدور من الوعول: المسنة الضخمة. وأوفت: أشرفت.

ثم انظر كيف استخفت لحى الأوعال وقاره، وذهبت برزانته واتزانه، وسعها استهزاء وسخرا لا يخلو من معنى مقصود سنعود إليه بعد :

لحى سود بلا سبال ... تصلح للإضحاك لا الإجلال (١)
أثيث نبتها، متفال ... لم تغذ بالمسك ولا الغوالى (٢)
ضى من الأدهان بالأبوال ... ومن ذكى المسك بالدمال (٣)
سرحت فى عارضى محتال ... لعدها من شبكات المال

بين قضاة السوء والأطفال

ولا بد هنا من استكمال صورة الأوعال، وهن يتساقطن من رءوس الجبال، أن أثخنتها سهام الرماة بالجراح، فهن يعدون على فقار الظهور والأقفاء، شاكيات من الكلال، فقد كفاهن الانحدار إياه، ولا خائفات من الضلال، أرض غاية السفر ونهاية مداه :

فهن يهوين من القلال ... مقلوبة الأظلاف والإرقال
يرقلن فى الجو على المحال ... فى طرق سريعة الإيصال (٤)
ينمن فيها نيمة الكسال ... على القفى أعجل العجال
لا يتشكين من الكلال ... ولا يحاذرن من الضلال

***

(١) السبال : شعر الشفة العليا
(٢) الأثيث : الكثير الملتف، ومتفال : منتنة الريح
(٣) الدمال : زبل الدواب (السرقين : السرجين)
(٤) الإرقال : نوع من السير، فعله أرقل يرقل، والعامة المعنيون بالدواب يقلبون جيما مصرية

— ٤ —

وليس عجيبا أن يتبع المتنبى هذا الأسلوب فى هذا النوع من الوصف ، ويؤثر الإغراب فيه على الوضوح ، ويختار له وزن الرجز خاصة ؛ فإن أبا نواس مع كثرة دعوته للتجديد ، وشدة نفرته من الأساليب البدوية ، أراد أن يظهر براعته وسعة علمه بالغريب . فنظم فى مثل أسلوب أبى الطيب (بل أقوى منه وأصلب) أرجوزته التى أولها : وبلدة فيها صعَرْ ـ ويقول فيها :

مَرْتٍ إذا الذئبُ اقتفرْ بها من القوم الأثر[١]
كان له من الجزر كل جنين ما اشتكر[٢]
ولا تعلاّه شعَر ركبتها على غرر . . . الخ

وله فوق هذا أرجوزتان فى كلب الصيد ، هما مثال الجزالة والإغراب : وإن بشارا نظم أرجوزته التى أولها : (يا طللَ الحى بذات الصمدِ) تحديا لمن استعجزه أن يجيد النسج على هذا المنوال ، وهما بعدُ من الموالى غير المحافظين فى لغة العرب على القديم ؛ فكيف بالمتنبى وهو العربى الصميم ، والبدوى القح حتى فى الغزل والنسيب ؟

وإذ ترامى بنا القول إلى بشار وأبى نواس ، وجب أن نذكر عاملا ثالثا كان عميق الأثر فى شاعرية أبى الطيب؛ وفى هذا النوع من الوصف على الخصوص ؛ ذلك هو استيعابه لكثير من شعر السابقين ، وليس من شك فى أنه كان جيد الحفظ قوى الذاكرة ، وقد سبق عهد التدوين أيامه ، واستبحرت دراسة الأدب القديم ، وقد كان (فيما يروى) يغشى الورّاقين ويطيل اللبث عندهم ، ويتناول كتبهم فيشبع منها نهمه فى طلب الأدب ، ويروى غلته بحفظ الشعر الكثير ، وكان (فيما يقال) يحفظ ديوان أبى تمام ويُعجَب به ؛ ومن كل ذلك نرى أنه قد حفظ كثيراً من الشعر القديم (ولا سيما ما يتعلق بالبادية) حفظ متدبر ، وهضم محفوظه ، فاستطاع أن يمثله ولكن على طريقته . يقول أبو نواس فى الخمر :

---

(١) اقتفر : اقتفى وتتبع الأثر

(٢) اشتكر : نبت عليه شعر البطن ، وهذا كناية عن إجهاض النوق

فى كئوس كأنهن نجوم جاريات ، بروجها أيدينا
طالعات مع السُّقاة علينا فاذا ما غرَبن يغربن فينا

فيتأثره (أو مثله) المتنبى فى التصوير ، فيصف السيوف قائلا :

خُلِقْنَ شُمُوساً ، وَالْغُمُودُ مَشَارِقٌ لَهُنَّ ، وَهَامَاتُ الرِّجَالِ مَغَارِبُ

أما بيان مبلغ تأثره القدماء ومقدار تأثير شعرهم فى شعره ، فحسبنا الآن أن نلاحظ حرصه على الرجز فى الطرد ، وأنه لم يتحلل من طريقة الأقدمين ، فكأن الطرد عندهم لايجمل إلا فى حلل الأراجيز ؛ أما استيعاب هذا الموضوع فيجور بنا عن القصد ، ولا نستطيع هنا أن نأتى فيه بما يشفى الغليل ، ويكفى أن نشير إلى بعض أطرافه فى تضاعيف الكلام . وقد تجمعت كل العوامل السابقة ، فأعانته على الاجادة والإتقان فى كثير من الوصف ، ولاسيما وصف الأسد ؛ فمناظر البادية متمكنة من نفسه ، والروح الحربى يمتلك لشعوره وحسه ، وهو طبعا قرأ وحفظ وصف البحترى والفرزدق للذئب ، واجتمع إلى كل هذه العوامل إعجابه بالرجال الأقوياء ، الذين يرجو أن يعود على أيديهم مجد العرب سيرته الأولى ، كبدر بن عمار (الرجل) الذى نازل الأسد وتغلب عليه ، وكان قد أعجله عن انتضاء سيفه ، فبادره بالسوط ، وكانت لابن عمار الغلبة ، وهو منظر يستدعى الشعر ، ويدعو إلى التجويد فيه والابداع ، وكلام المتنبى فيه متعالَم مشهور ، فلا نروى منه إلا بيتا يدلك على مبلغ دهشة الشاعر وإعجابه بابن عمار . استمع إليه وهو يصيح مناديا :

أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الْهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولاَ ؟!

***

— ٥ —

وأنت ترى أبا الطيب يستوحى هذين العاملين القويين فى تكوين خياله وأسلوبه : (البادية وحيواناتها ، والحرب وآلاتها) فاذا شهد ما يمت إليهما بنسب ، أو يتصل معهما بسبب ، جاشت شاعريته ، فكان مصورا لبقا بارعا ، وأتى بالعجب

العجاب ، ومن ذلك وصفه لفازة كان فيها سيف الدولة . وهى خيمة ديباج ، عليها صورَ رياض ذات دوح وطير وحيوان ، وهى مؤلفة من عدة أثواب ، كل منها ذو وجهين ، وعلى حواشيه دوائر بيض لطيفة ، كأنها اللؤلؤ المنظوم ، وقد رُسم الحيوان فى هيئة المهارشة والمهاجمة والمدافعة ، لكنه فى الصورة جماد ليس بينه هراش ولا هجوم ولا دفاع ، فاستمع إليه ، وانظر إلى الصور الجمادية ، التى ينفخ فيها من روح الشعر ، ويضفى عليها من قوة الخيال ، مايحركها أمام ناظريك ، وينقل أصواتها إلى مسمعيك :

حَيَا بَارِقٍ فِى فَازَةٍ أَنَا شَائِمُهْ (١) وَأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّبِيبَةِ كُلِّهِ
عَلَيْهَا رِيَاضٌ ، لَمْ تَحُكْهَا سَحَابَةٌ وَأَغْصَانُ دَوْحٍ ، لَمْ تُغَنِّ حَمَائِمُهْ
وَفَوْقَ حَوَاشِى كُلِّ ثَوْبٍ مُوَجَّهٍ مِنَ الدُّرِّ ، سِمْطٌ لَمْ يُثَقِّبْهُ نَاظِمُهْ
تَرَى حَيَوَانَ الْبَرِّ مُصْطَلِحًا بِهَا يُحَارِبُ ضِدٌّ ضِدَّهُ ، وَيُسَالِمُهْ

وتأمل البيت الآتى بوجه خاص . فهو ينقل اليك صورة الخيل فى الميدان ، وصورة الأُسد تَخْتِل الظباء لتصيدها ، وتطردها لتدركها (يعبر عن ذلك بالفعل تدأى)

إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ ، كَأَنَّهُ تَجُولُ مَذَاكِيهِ ، وَتَدْأَى ضَرَاغِمُهْ

وإنه ليذكّرنا قول البحترى فى إيوان كسرى وما عليه من نقوش حربية :

والمنـــايا مواثـل ، وأنو شرْ وانَ يُزجى الصفوف تحت الدِّرفس (٢)
يغتلى فيهمُ ارتيـــابىَ حتى تتقـــرّاهمو يداى بلمس

وكذلك قول أبى نواس فى كأس ذهبية ، عليها نقوش فارسية :

تدار علينا الراح فى عسجديةٍ حبَتْها بأنواع التصاوير فارسُ

---

(١) بريد بقوله (حيا بارق) سيف الدولة على الاستعارة التصريحية .
(٢) الدرفس : العلم .

قرارتَها كسرى ، وفى جنباتها مهاً تدرّيها بالقسىّ الفوارسُ

ومن بين تلك النقوش (على الفازة) رسم ملك الروم ، وقد تخيله المتنبى (مادح سيف الدولة بإخلاص) ذليلا مهينا ، لكثرة ما أوقع به ذلك الممدوح ، حتى إذا رسم الصانع صورته على هذه الثياب ، فلا مفر من ظهور الذلة عليها ؛ إذ أصبحت ضربة لازب على هيئته لا تفارقها :

وَفِى صُورَةِ الرُّومِىِّ ذِى التَّاجِ ذِلَّةٌ لِأَبْلَجَ ، لاَتِيجَانَ إِلاَّ عَمَائِمُهْ

و يرى بعض الباحثين المعاصرين (فيما حاضر به عن سيف الدولة و نزعته الفنية) :

(ا) أن لسيف الدولة صورةً على أحد وجهَى الفازة ، وأمامها صورة ملك الروم فى ذلة وخضوع . وإنا نلتمس له بعض العذر فيما ارتأى ، فنى بعض شروح الديوان بعد هذا البيت ما يأتى : « يقول صورة ملك الروم على هذا الثوب ساجد (كذا) لسيف الدولة ، وقد خضع له وتذلل على عادته وإن كان متوّجا » لاحظ قوله (على عادته) يساعدك فيما تستقبل من رأينا .

(ب) ويرى أيضا أن ثلاثة الأبيات الآتية تكملةٌ لوصف النقوش التى على الفازة ؛ وها هى ذى .

تُقَبِّلُ أَفْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطَهُ وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُمُّهُ وَبَرَاجِمُهْ (١)

قِيَامًا لِمَنْ يَشْفِى مِنَ الدَّاءِ كَيُّهُ وَمَنْ بَيْنَ أُذْنَىْ كُلِّ قَرْمٍ مَوَاسِمُهْ (٢)

قَبَائِعُهَا تَحْتَ الْمَرَافِقِ ، ذِلَّةً وَأَنفَذُ مِمَّا فِى الْجُفُونِ عَزَائِمُهْ (٣)

ولا عذر لمن يصطنع هذه الدعوى الثانية ، فليس فى الكلام ما يُسيغها .

والذى نرضاه هو أن حقيقة ملك الروم فى خيال المتنبى ذليلة (كما أسلفنا)

(١) البراجم : عظام ظاهر الكف ، أو رءوس مفاصل الأصابع .

(٢) يكنى بالداء عن غوائل الأعداء ، وبالكى عن الضرب والطعن ، والقرم : السيد ، والمواسم : جمع ميسم ، وهو الذى يوسم به ، شبيه بالمكواة .

(٣) القبائع جمع قبيعة، وهى الحديدة على مقبض السيف

وأنّ هذه الفازة (فيما نرى) ليست من صنع العرب ، وإنما هى من عمل الروم ، وقد تكون وقعت لسيف الدولة مغنما أو شراء ؛ وقد كانت المتاجر متبادلة بين المتجاورين ؛ وقد أهدى سيف الدولة لأبى الطيب (فيما كان يُهدى) ثيابَ ديباج من صنع الروم ، وعليها صور بعض ملوكهم ، وصور قيان مغنيات وخيل وأشياء أخرى ، فقال فيها :

ثِيَابُ كَرِيمٍ مَا يَصُونُ حِسَانَهَا ... إِذَا نُشِرَتْ كَانَ الْهِبَاتُ صِوَانَهَا

تُرِينَا (صَنَاعُ الرُّومِ) فِينَا مُلُوكَهَا ... وَتَجْلو عَلَيْنَا نَقْشَهَا وَقِيَانَهَا

وَلَمْ يَكْفِهَا تَصْويرُهَا الخَيْلَ وَحْدَهَا ... فَصَوَّرَتِ الأَشْيَاءَ إِلا زَمَانَهَا

وَمَا ادَّخَرَتْهَا قُدْرَةً فِى مُصَوَّرٍ ... سِوَى أَنَّهَا مَا أَنْطَقَتْ حَيَوَانَهَا (١)

فأنت ترى (معى) أن هذه الثياب من الديباج ، والفازة من الديباج ؛ وعلى كل منهما صورة ملك الروم والخيل ، وزادت الثياب صورة القيان ، واختصت الفازة بالأسد والحيوان والدوائر البيض . ثم ترى نصا صريحا فى البيت الثانى هنا أن الثياب المهداة من عمل (صناع الروم) لاشبهة فى ذلك ؛ فهل من شك (بعد هذا النص وهذا التشابه فى أكثر الصور) أن الفازة من صنع الروم ؟ بل إن ثياب الفازة (فيما نرى) من نوع ثياب الهدية . وقد وصف كلتيهما الشاعر ، فأتى ببعض الوصف مشتركا فيهما ، واختص كلا منهما بزيادة يقتضيها مقامها . (وبعد) فلا أرى أن صناع الروم كانت تفكر فى رسم سيف الدولة ، فضلا عن تصويره عظيما ، وتصوير ملكها أمامه ساجدا ذليلا خاضعا ؛ فلا نرضى كلام الشرح ، ولاماذهب إليه الباحث الذى اعتمد عليه ؛ وفى قول الشرح (على عادته) لاتعترف به صناع الروم ، بل لايوافق إلا خيال المتنبى فى تصوير خصمه وخصم ممدوحه ، ووسمه بالذلة والهوان .

ونذهب فى الدعوى الثانية (بعد ما عرفت من رد النقش إلى صناع الروم)

---

(١) ضمن ادخر معنى حرم ، فعداه إلى مفعولين ثانيهما قدرة .

ن لا صورة على الفازة لسيف الدولة وللملوك خاضعين يقبلون بساطه ؛ بل هذا ستكمال لحقيقة سيف الدولة فى خيال الشاعر ؛ وهو قد استأنف المدح بعد الوصف أراد أن يذكر (لمناسبة ذلة الرومى) رفعة مقام الممدوح على الملوك وخضوعهم ، يعمم بذلك ولا يخص ملك الروم ؛ والمضارع (تقبل . . .) فى أول ثلاثة الأبيات للاستمرار التجددى ، أى أن هذه الهيئة تتكرر كثيرا حينا بعد حين ، لو صح أن الصورة تمثل تقبيل البساط ، وقد وقع الملوك إلى الأرض ساجدين ، ا صح فى البيت الثانى (قياما . . .) وليس من المعقول أن يقعوا للبساط مقبلين ، قبائع السيوف تحت المرافق (فى البيت الثالث) ـ وملاحظة أخرى تحول دون ساغة هذا التأويل ؛ وهى ذلك الشطر الأخير (وأنفذ مما فى الجفون عزائمه) كيف يكون مدحا تفضيل العزائم على السيوف الصورية ؟ إنها إذن عزائم من ذروق الهشيم ، وسوافى الهواء ، وسوابح الهباء !

لم تر أن السيف يقبح وصفه   إذا قيل : هذا السيف خير من العصا ؟ !

***

— ٦ —

ولئن كان أبو الطيب ينبعث على سجية نفسه ، وينسجم مع مصادر شعوره وحسه ، حينما يجد مناظر البادية أو ما يقاربها ، إنه ليستغل خيالها فيما هو أبعد ن ذلك : يرى سبى سيف الدولة من نساء الروم فى وقعة على نهر (أَرْسَنَاس) وقد ركبن السفن لعبور هذا النهر ، فيثب خياله إلى كُنُس الظباء فى جوف البادية ، فيقول (يحكى عن سيف الدولة ، وضمير فوقه لنهر أرسناس) : —

ثَلَ الْحِبَالَ مِنَ الْغَدَائِرِ فَوْقَهُ   وَبَنَى السَّفِينَ لَهُ مِنَ الصُّلْبَانِ
وَحَشَاهُ (عَادِيَةً) بِغَيْرِ قَوَائِمٍ   عُقْمَ الْبُطُونِ ، حَوَالِكَ الْأَلْوَانِ
تَأْتِى بِمَا سَبَتِ الْخُيُولُ ، كَأَنَّهَا   (تَحْتَ الْحِسَانِ) مَرَابِضُ الْغِزْلَانِ

وهذا وصف بارع جميل لولا المبالغة فى البيت الأول ، وليست غريبة من

شاعرنا ، فكأنه أبو عُذرها ، وحافظ سرها ؛ ألا ترى إلى السفن خيلا عاديات بغير قوائم ، ليس من شأنها الولادة والنتاج ، ينتظمها كلّها لون واحد هو لون القار ؟ والشطر الأخير ولا سيما (مرابض الغزلان) فيه جمال لا يقوم به كلام آخر فى هذا الباب ، ويشف عن رقة غزلية ، لا تتهيأ إلا لنفس ناعمة هانئة ؛ ولعل نشوة النصر قد أثلجت صدره ، وهزت عطفه ، وأشعرته هدوء البال ، ولعله فى هذا الطور من حياته كان يحسّ هدنة بينه وبين الدنيا على غير عادته ، أو لعلها خطرة من الخطرات تسنح ثم تمضى !

* * *

أما وصفه لبحيرة طبرية فقد استلهم فيه خياله البدوىّ ، واستجاش شعوره الحربى : يذكر فى هدير الموج فحول الإبل تهدر بين النياق من غير شهوة للضراب (قَطَم) ويتخيل فى سبح الطير فوق زبد الماء مضطربة ذاهبة كل مذهب ، منظر فرسان ركضوا مهارا بُلقاً ، قد انتكثت أعنة لجُمها ، فهى تذهب حيث تشاء ، ولا بد أن يستحضر نزالا وطعانا بين جيش : هازم ومهزوم ، إذ يرى الرياح تضربها ، فتصطفق الأمواج ، فتضطرب الطيور يتبع بعضها بعضا : —

وَالْمَوْجُ مِثْلُ الْفُحُولِ مُزْبِدَةً ... تَهْدِرُ فِيهَا ، وَمَا بِهَا قَطَمُ
وَالطَّيْرُ (فَوْقَ الْحَبَابِ) تَحْسَبهَا ... فُرْسَانَ بُلْقٍ تَخُونُهَا اللُّجُمُ
كَأَنَّهَا (وَالرِّيَاحُ تَضْرِبُهَا) ... جَيْشَا وَغًى : هَازِمٌ وَمُنْهَزِمُ

فإذا انتقل إلى منظر البحيرة العام وما يحف بها ، لم يزد على غيره من الشعراء إلا لفظة البدوى الغريب ، وإلغازه الممقوت المعيب ؛ وذلك فيما نروى لك هنا ، واللغز عن السمك فى البيت الثانى :

كَأَنَّهَا (فِى نَهَارِهَا) قَمَرٌ ... حَفَّ بِهِ مِنْ جِنَانِهَا ظُلَمُ
نَاعِمَةُ الْجِسْمِ ، لاَ عِظَامَ لَهَا ... لَهَا بَنَاتٌ ، وَمَا لَهَا رَحِمُ
تَغَنَّتِ الطَّيْرُ فِى جَوَانِبِهَا ... وَجَادَتِ الرَّوْضَ حَوْلَهَا الدِّيَمُ

فَهْيَ كَمَاوِيَّةٍ مُطَوَّقَةٍ جُرِّدَ عَنْهَا غِشَاؤُهَا الْأَدَمُ

ومن يقرأ هذا الوصف فلا بد أن ينتقل ذهنه فورا إلى قصيدة البحترى فى بحيرة المتوكل ؛ فيجد فيها جمالا ورقة حضرية . وتصويرا لبقا ، ليس للمتنبى من كل ذلك ما يسامى البحترى فيما نرى ؛ وبحسبنا أن نشير إليها عامة ، ونذ ر منها هذا البيت خاصة عنوانا على محاسنها :

كأنما الفضة البيضاء (سائلةً من السبائك) تجرى فى مجاريها

وليس فى المقام سعة لروايتها كلها والموازنة بينهما ؛ فليرجع إليها من يشاء يجد كلا الشاعرين قد تأثر فى وصفه ببيئته وحياته ؛ وليس علينا أن نطيل القول هنا .

— ٧ —

وإذ قد ترامى بنا القول إلى ذكر المعانى الحضرية فى الوصف ، فإنا نلاحظ أن المناظر البدوية كانت تطغى على نفسه ، وتكاد تستأثر بها ، فلا تترك فيها مجالا لمناظر الحاضرة ، وكأن الآثار الأولى التى تحرك لها حسه ، وحفلت بها نفسه الشاعرة ، هى التى بقيت على مر الزمان ، منقوشة على صفحة قلبه ، فجعلت تزاحم بالمناكب والمرافق كل جديد ، فلا يظفر هذا الجديد بخيلة ترسمه رسما واضحا جليا ؛ هذا إلى الهموم التى تصطرع فى قلبه ، فتتقاضاه أن يقصر عليها ما عنده من تفكير وشعور . فنسمعه يهتف من أعماقه صائحا :

لَحَى اللّٰهُ ذِى الدُّنْيَا مُنَاخًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ !

ويشكو من الدهر كثرة مساويه إليه ، وتزاحم رزاياه عليه ، فيستصرخ غير سميع بأندى صوت وأعلاه :

رَمَانِى الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِى فِى غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ !

فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِى سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ !

وينظر فى نجوم الليل ، فلا يقول فيها ما يقول ابن المعتز ، المنعم فى قصر

الخلافة : (درر نثرن على بساط أزرق) بل لا يجود عليها بانها حلى على حالك ليل ، إلا ليطيل بعد ذلك فى وصف طول الليل ، وليعد هذه النجوم الدرارى أرقاما حسابية ، يحصى بها ذنوب الزمان وبلاياه :

اقَلِّبُ فِيهِ أجْفَانِى كَأَنِّى أعُدُّ بِهِ عَلى الدَّهْرِ الذُّنُوبَا !

ولذلك لا يتوقع منه أن يفرغ لوصف المناظر الحضرية الجميلة ، كالبحترى وابن المعتز ، ولا يتقلب بين جنات هـذه الدنيا ، حتى يبدع فى وصف الأنهار والبساتين ، كابن خفاجة وابن حمديس ، ولا تطيب لنفسه كثيرا مجالس الأنس والغناء ، لكى يعزف مع ابن الرومى على أوتار القيان ، ويركض معه فى هذا الميدان :

تتغنى كأنها لا تغنى من سكون الأوصال وهى تجيد
لا تراها ـ هناك ـ تجحظ عين لك منها ، ولا يدرّ وريد
من هدوّ ، وليس فيه انقطاع وسُجُوّ ، وما به تبليد
مدّ فى شأو صوتها نفس كا فٍ ، كأنفاس عاشقيها مديد
وأرقّ الدلالُ والغنج منه وبراه الشجا ، فكاد يبيد
فتراه يموت طورا ويحيا مستلـذ بسيطه ، والنشيد

وليس هو بالذى يشرب على الورد من حمراء كالورد ، فيتابعَ أبا نواس ، وينهز مع الغواة بدلوهم ، ويُسيمَ سرح اللهو حيث أساموا ، ويتداوى من داء الخمار بداء العقار ، ويستريحَ إلى هذه الراح ، ويتفننَ فى تزيينها بالبارق اللماح :

فتمشّت فى مفاصلهم كتمشّى البرء فى السقَمِ
فعلتْ فى البيت إذ مُزجت مثل فعل الصبح فى الظُلَمِ

وأنّى له كل هذا ، والخمر ليس من أربه كما ينادى ، ولا يهتز للأغانى فيما يقول :

أَصَخْرَةٌ أنَا ؟ مَالِى لاَ تُحَرِّكُنِى هٰذِى الْمُدَامُ ، وَلاَ تِلْكَ الْأغَارِيد ؟

وكذلك لم يجد فى دنياه صديقا يأنس إليه ، ويستريح إلى صداقته ، وكم لقى من عنت الأيام ولؤم الأنام ! فهل فى قلبه بقية لم يحوها الظلام ؟ ثم إنه لم

يفكر إلا فى نفسه وحقه على الدنيا ، فيمر بكثير من المناظر لا يجود عليها بنظرة ولا التفاتة ، كما تخرج إلى الشارع . تسعى لأمر يعنيك أن ينتهى إلى تمام ، فترى الأشياء ولا تراها ، فاذا سئلت عن منظر فى طريقك أنكرته ، وغيرك يعرفه بعيه ، وفارغو البال من حولك يُسَبْهلون (١) فى الطريق . ويقلّبون البصر فيما وراء المعارض الزجاجية ، من ثياب مطوية ومنشورة . إلى حلىّ براقة مصفوفة ، إلى غيرها من كل ملهّي ومنظر (أنيق لعين (الفارغ) المتوسم) ومن هنا نرى حقيقا باللوم من يلحَى أبا الطيب ، وينعىٰ عليه أنه ورد مصر وتفيأ فى ظلالها ، لم يظفر منه النيل بقصيدة ، ولم تفز الأهرام منه بمقطوعة ؛ فقد كان فى مصر (كما يقول) حرا يتيما بين عبدان لئام :

حَلَلْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ عَلَى عَبِيدٍ كَأَنَّ الْحُرَّ بَيْنَهُمُو يَتِيمُ

فلم يستروح نسيم الجمال فى أفيائها ، ولا أحس فضل النيل على أهلها ، كما أحس ذلك أستاذنا (الشيخ عبد المطلب) رحمة الله عليه فقال :

يا نيل مصر سقيتنا ماء الحياة نميرا
لولاك ما فاح النسيم بارض مصر عبيرا
والله لقّانا بفضلك نضرة وسرورا
لا زال فيضك جاريا بين البلاد غزيرا
يكسو الأباطح سندسا من نسجه وحريرا
فترى الرياض نضيرة وترى النبات نضيرا
أنواره زُهر ، ترُيك اللؤلؤ المنثورا

وماعرف فضل بناة الأهرام ، ولا كان يعبأ بجلالها ، ولايبالى ما تدل عليه ، حتى يقول فيها ما قال البارودى وصبرى وشوقى (رحمهم الله !)

***

وما نظنه أجاد وصفَ شِعب بوّان فى طريقه إلى عضد الدولة بشيراز ،

(١) سبهل : مشى فى الطريق جيئة وذهوبا لغير عمل (يضرب بلطة) ومن كلام عمر رضى الله عنه : «إنى لأكره أن أرى أحدكم سبهللا ، لافى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة »

إلا متحسراً على مجد العرب ، الذى غلب عليه أولئك الأعاجم ، واستأثروا بهذه الجنة من جنات الدنيا وأمثالها دونهم ، فصار العربى فيها غريبا : وجها ويدا ، وكلاما ! وتجد هذه الحسرة ظاهرة فى بعض لفتاته فى القصيدة النونية . التى نروى لك صدرها هنا ، وفى تدبّر هذه اللفتات مقنع أى مقنع :

مَغَانِى الشِّعْبِ طِيباً فى الْمَغَانِى ... بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
(وَلٰكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِىَّ فِيهَا ... غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ)
(مَلاَعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا ... سُلَيْمَانٌ ، لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ)
طَبَتْ فُرْسَانَنَا وَالْخَيْلَ ، حَتَّى ... خَشِيتُ (وَإِنْ كَرُمْنَ) مِنَ الْحِرَانِ
غَدَوْنَا تَنْفُضُ الْأَغْصَانُ فِيهِ ... عَلَى أَعْرَافِهَا مِثْلَ الْجُمَانِ (١)
فَسِرْتُ وَقَدْ حَجَبْنَ الشَّمْسَ عَنِّى ... وَجِئْنَ مِنَ الضِّيَاءِ بِمَا كَفَانِى
وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِى ثِيَابِى ... دَنَانِيراً تَفِرُّ مِنَ الْبَنَانِ

ولا بد أن نقف عند هذا البيت ، وتصويره ضوء الشمس إذ يتسلل من بين الورق المتزاحم ، فيمثل الدنانير التى لا تستقر فى الكف ، بل تسرع هاربة من البنان ، ونرجع إلى بيت آخر فى مثل هذا المعنى ، وقد مرت لنا روايته فى حربياته :

إِذَا ضَوْءُهَا لاَقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً ... تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

فانظر تجده مبدعا فى كلا البيتين ؛ ولكنه تدارك فى بيت الشعب ما فاته فى بيت الحرب ، من تسجيل حركة الضوء الدائبة ، لكثرة التذبذب فيما يحول دون الضوء ويحجبه ، من الورق هنا ، وريش القشاعم هناك ؛ وكأنه عاش ليستكمل هذا المعنى البديع فى خريف حياته ؛ ثم هنا ملاحظة أخرى ، وهى

(١) يقصد قطرات الندى ، فهى تحكى الجمان ، وهى حبات من الفضة مستديرة شبيهة باللؤلؤ .

.امه بذكر الدراهم والدنانير ، التى يراها الطريق إلى المجد ، والوسيلة حافظة عليه .

ثم نعود إلى ما نحن بسبيله ، فننقل بقية وصفه ولفتاته :

لَهَا ثَمَرٌ تُشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهَا بِأَشْرِبَةٍ وَقَفْنَ بِلاَ أَوَانِ

فهل تجد أحسن من هذا فى وصف الثمار برقة البشرة ، حتى لتَشفُّ بشرتها تحتها من الماء ، كما ينم عليه صافى الزجاج ؟ ثم استمع إلى صلصلة الحصباء ت الماء الجارى ، الذى يدحرجها ، ويمتزج صليلها بخريره

وَأَمْوَاهٌ يَصِلُّ بِهَا حَصَاهَا صَلِيلَ الْحَلْىِ فِى أَيْدِى الْغَوَانِى

وفيما يأتى يظهر التهكم بهؤلاء الأعاجم ، الذين لا يستحقون السكنى حول ه الجنة ، وفى طيات هذا الاستهزاء ، من التحسر آهات وأنات :

إِذَا غَنَّى الْحَمَامُ الْوُرْقُ فِيهَا أَجَابَتْـهُ أَغَانِىُّ الْقِيَانِ

وَمَنْ بِالشِّعْبِ أَحْوَجُ مِنْ حَمَامٍ إِذَا غَنَّى وَنَاحَ إِلَى الْبَيَانِ

وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصْفَانِ جِدًّا وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ

ومن الخير أن يضم إلى هذه الأبيات ، ذلك البيت الذى يَسمُهم بشدة العجمة ، إن سليمان لا يفهم عنهم ، ولا هم عنه يفهمون إلا بترجمان ؛ وأعجب من كله أن المتنبى (وليس مثل سليمان) يفهم عن حصانه ، بل ينطقه بالشعر غ على لسان الحال إذ يقول :

يَقُولُ بِشِعْبِ بَوَّانٍ حِصَانِى أَعَنْ هٰذَا يُسَارُ إِلَى الطِّعَانِ ؟

أَبُوكُمْ آدَمٌ سَنَّ الْمَعَاصِى وَعَلَّمَكُمْ مُفَارَقَةَ الْجِنَانِ !

وكما يشير إلى حسرته اللاذعة وألمه الدفين ببيت (ولكنّ . .) يجلوها واضحة على لسان الحصان . (أعن هذا ؟) ، (سنّ المعاصى) ، (مفارقة ـان) إن هذه الكلمات لتفيض بالأنين ، وتُصعّد لهيب الزفرات ، وتموج قد اللوعات ! !

على أنه فى هذه القصيدة يتمنى أن لو كانت هذه المغانى (هى دمشق) إذنْ لكان له فيها شأن غير هذا الشأن ، فدمشق مستقر العرب الأمجاد ، ومنازل الأسخياء الأجواد :

وَلَوْ كَانَتْ دِمَشْقَ ، ثَنَى عِنَانِى لَبِيقُ الثُّرْدِ صِينِىُّ الجِفَانِ (١)
يَلَنْجُوجِىُّ مَا رُفِعَتْ لِضَيْفٍ بِهِ النِّيرَانُ ، نَدِّىُّ الدُّخَانِ (٢)

فهو يستكثر هذا النعيم على أبناء العجمة ، ويود لو انتقل ما عندهم من الخير لأبطال العروبة .

***

ولقد نراه مع هذا قد جاوز فى هذه النونية حدود الإجادة والإتقان ، وبث كل مافى نفسه من هموم وأشجان ؛ فوفق أيما توفيق ، وأبدع ما شاء له الابداع ؛ فلو صفا له الجو ، ونال ما يرجو من المطالب ، وعاش فى الحواضر عيش الحضرى المهنأ النفس ، الناعم الحال ، الهادىء البال ـ لرجونا أن تجلو شاعريته محاسن الحضر ، ومنظر السماء والسحاب والمطر ، والبساتين النواضر ، غب الغمائم المواطر ؛ ولتوقعنا أن يجود على هذه النواحى التى أهملها باوصاف تشنف الآذان ، وتزرى بنغمات الأوتار والعيدان ، وتفوق ألحان الأطيار ، فى نسائم الأسحار . فلقد فاتنا من سحر أبى الطيب وإبداعه فى فنه خير كثير . إنه نزل لُبنان وعاش فيها زمنا ، ولكن لم يكن كالمرحوم شوقى بك مصطافا للذة والمتاع ، والاحتفال بحسن المناظر ، واهتبال النهزة لاجتلاب السرور ، بين إخوان له مكرمين ، وعلى راحة نفسه حريصين ، فلذلك لم يكن يهش لها حتى يقول مثل شوقى فى قصيدته التائية مثلا ، ومطلعها :

السحر من سود العيون لقيتُهُ والبابلىّ بلحظهن سُقيتُه

---

(١) لبيق الثرد : حسن الثريد

(٢) اليلنجوج عود يتبخر به ، وكذلك الند ، ومعنى النسب إليهما : أنه يوقد النار للضيفان بذاك العود ، ودخانها يصاعد رائحة الند .

إذ يقول منها:

لُبنان والخلد اختراع الله ، لم يُوسَمْ بأزينَ منهما ملكوته
وكأنّ أيام الشباب ربوعه وكأن أحلام الكَعاب بيوته
وكأن ريْعانَ الصبا ريحانه سر السرور بجوده ويقوته (١)
وكأن أثداء الكواعب تينه وكأن أقراط الولائد توته

وهذا شعر ينم على شعور بالنعمة عميق ، وحب للطبيعة الجميلة شديد ، ونفس رغت (ولو إلى حين) من هموم الحياة إلى اللذة والمتاع ؛ بل أكاد أقسم : تالله هذا شعرا ؛ إن هو إلا مداعبة لطفلة مضحاك لعوب، وتدليل لطفل غرير بسام ، مناغاة عذبة ، ما أحلى وقعها فى الآذان ، وما أخف ألحانها على القلوب والنفوس.

أما المتنبى فقد نزل لبنان نزول الرعيان ، وقطاع الطريق ورجال العصابات ذلك الزمان ؛ وإنه ليحدثنا عن هذا فى قصيدة له يمدح بها عضد الدولة ، يستعيد ذكريات لُبْنان وقد بعد عهده بها ، والذكريات (جميلةً أو غير جميلة) زيزة على النفس ، حبيبة إلى القلب ، كأنها أفلاذ الأكباد :

أُحِبُّ حِمْصًا إِلَى خُنَاصِرَةٍ وَكُلُّ نَفْسٍ تُحِبُّ مَحْيَاهَا
حَيْثُ التَّقَى خَدُّهَا وَتُفَّاحُ لُبْـنَانَ وَثَغْرِى عَلَى حُمَيَّاهَا
وَصِفْتُ فِيهَا مَصِيفَ بَادِيَةٍ شَتَوْتُ بِالصَّحْصَحَانِ مَشْتَاهَا
إِنْ أَعْشَبَتْ رَوْضَةٌ رَعَيْنَاهَا أَوْ ذُكِرَتْ حِلَّةٌ غَزَوْنَاهَا
أَوْ عَرَضَتْ عَانَةٌ مُقَزَّعَةٌ صِدْنَا بِأُخْرَى الجِيَادِ أُولَاهَا (٢)
أَوْ عَبَرَتْ هَجْمَةٌ بِنَا تُرِكَتْ تَكُوسُ بَيْنَ الشُّرُوبِ عَقْرَاهَا (٣)

---

(١) بجوده : بمطره من جاده ، مثل جادك الغيث . . . ويقوته : يطعمه .
(٢) العانة : القطيع من حمر الوحش ـ مقزعة . مفرقة كالقزع ، وهى قطع السحاب.
(٣) الهجمة من الابل : ما بين السبعين إلى المائة ـ كاس البعير يكوس : مشى على

وَالْخَيْلُ مَطْرُودَةٌ وَطَارِدَةٌ تَجُرُّ طُولَى الْقَنَا وَقُصْرَاهَا[١]

فكيف نطلب إليه (بعد ذلك كله) أن يحوّل بصره عن البادية وخشونتها ، إلى الحياة الناعمة اللينة ؛ ليجلو علينا مباهجها ، ويبرز لنا محاسنها تتراءى فى حلة من الشعر مزدانة ، وتختال فى معرض من التصوير يأسر الألباب ؟ أرأيت نجديا يصف غابات الهند ؟ أم هل سمعت قطبيا يتغزل فى شمس خط الاستواء ، وألوان الطيف منها عند مساقط الماء ؟ . . . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

— ٨ —

وإن تعجب فعجب أن المتنبى (على براعته) قد يهرب من الوصف حينما يطلب إليه ؛ ولعلك تحسب هذه الدعوى منا جرأةً وتجنيا عليه ؛ ولكن لا تعجل ولا تذهب مع بعض الظنون ، فقد نسوق إليك البرهان ، ونحاول تعليل ذلك بدواعى الاطمئنان :

(ا) إن كافورا بنى دارا ، ورغب إلى أبى الطيب أن يذكرها فى شعره ، والذى أستطيع فهمه فى مثل هذا المقام أنه يطلب وصف الدار بذكره محاسنها ، أما التهنئة بها ، والدعاء للبانى بطول البقاء والتمتع بها ، وإنشاء أمثالها ، فكل ذلك يجىء عرضا فى حواشى الغرض ، والوصف هنا هو عمود الكلام — . فماذا فعل أبو الطيب ؟ إنه زاغ من الوصف ، إى وربك ؛ ولا وحرمة الأدب ما سخت شاعريته لها عن شطر واحد ، بله البيت والأبيات ! ! ولكنه وقف يتهكم بكافور ويضحك منه ومن سواد لونه ، بذلك النوع الخبيث من المديح ، فى قصيدة همزية مطلعها :

إِنَّمَا التَّهْنِئَاتُ لِلأَكْفَاءِ وَلِمَنْ يَدَّنِى مِنَ الْبُعَدَاءِ
وَأَنَا مِنْكَ ، لاَ يُهَنِّىءُ عُضْوٌ بِالْمَسَرَّاتِ سَائِرَ الأعْضَاءِ

(ب) وقد مد نهر حلب حتى أحاط بدار سيف الدولة ، فما تندى لسان

ثلاث والرابعة معقورة ـ الشروب : جمع شرب : جمع شارب ، أى شاربى الخمر ـ العقرى جمع عقير ، مثل قتلى وقتيل .

(١) الطولى والقصرى : أنثى أطول وأقصر

ساجبنا بقطرة واحدة فى وصف هذا المنظر ، بل انطلق يرتجز ارتجالا ، فى نفس بس بالقصير ، واتخذ المدّ تُـكأة ومعتَمداً ، كى يقول فى مدح البحر الأكبر لذى يزرى بالبحار ؛ وصار يظن الماء ، يزاحمه فى طلب العطاء ؛ أو يريد مباراة لمدوح . . . الخ

حَجَّبَ ذَا الْبَحْرَ بِحَارٌ دُونَهُ ... يَذُمُّهَا النَّـاسُ وَيَحْمَدُونَهُ
يَا مَاءُ هَـلْ حَسَدْتَنَا مَعِينَهُ ؟ ... أَمْ اشْتَهَيْتَ أَنْ تُرَى قَرِينَهُ ؟

(ح) ونثر عضد الدولة فى مجلسه ورداً ، وأبو الطيب حاضر ، فبدأ شعرا فى المدح وأتمه بالمدح ، ولم يعرض للورد إلا ببيت واحد ، وهو على ذلك غث بارد لا روح فيه :

كَأَنَّمَا مَائِجُ الْهَوَاءِ بِهِ ... بَحْرٌ حَوَى مِثْـلَ مَائِهِ عَنَمَا

(ى) وأحضر له أبو العشائر جوشنا (درعا) وقال : كيف تراه ؟ والمراد الطبع أن يصف ، فارتجل بيتين كأنهما ليسا من شعر المتنبى ، يقول فيهما : إن من بسه يأمن على نفسه بين الصفوف ، وينصح لأبى العشائر أن يتركه ، فإنه من قوم تى شجاعتهم وسلاحهم عن الدروع .

فاذا عرض للوصف فى مثل هذه الأحوال ، كان فاترا لا تماسك به ولا غناء

(١) أحضره أبو الفضل بن العميد مجمرة محشوة بالنرجس والآس ، الدخان يخرج من خلال ذلك ، فقال فيها :

أَحَبُّ امْرِىءٍ حَبَّتِ الْأَنْفُسُ ... وَأَطْيَبُ مَا شَمَّهُ مَعْطِسُ
وَنَشْرٌ مِنَ النَّـدِّ لٰـكِنَّهُ ... مَجَامِرُهُ الآسُ وَالنَّرْجِسُ
وَلَسْنَا نَرٰى لَهَباً هَاجَـهُ ... فَهَلْ هَاجَهُ عِزُّكَ الْأَقْعَسُ ؟
وَإِنَّ الفِئَامَ الَّتِى حَوْلَهُ ... لَتَحْسُدُ أَرْجُلَهَا الْأَرْؤُسُ

الفئام : الجماعة ونراه هنا مس الموصوف مسا خفيفا ، وحفه بالمدح من بين يديه ومن خلفه ، والمبالغة السخيفة ،فقال (كما فى الشرح) إن الرءوس تحسد الأرجل لقيامها فى خدمة الممدوح .

(ب) وناوله محمد بن طغج سيفا ؛ فأشار الشاعر به إلى بعض الحاضرين قائلا :

أَرَى مُرْهَفاً ، مُدْهِشَ الصَّيْقَلِينَ وَبَابَةَ كُلِّ غُلَامٍ عَتَا (١)

أَتَأْذَنُ لِى (وَلَكَ السَّابِقَاتُ) أُجَرِّبُهُ لَكَ فِى ذَا الْفَتَى ؟

(اطلع يا قاتل !)

وإنك لتراه فى أكثر ما سبق غير مخلص لفنه من الوصف ، فلا يرضى الناحية الفنية بقدر ما يبغى رضا ممدوحيه ؛ ويتخذ الحادث سلما لإرضاء نزعتهم إلى المدح ورغبتهم فيه ، ولعله كان يعرف فيهم هذه الرغبة ، فيضحى بالفن الخالص فى سبيل تملقهم ؛ وقد تحيرت فى تفسير هذه الظاهرة ، حتى هدانى أبو الطيب نفسه إلى هذا التعليل ، فإنه حضر عند بدر بن عمار وهو على الشراب ، والفاكهة حوله ، فقال فيه مدحا جاء فى تضاعيفه :

بِأَبِى رِيحُكَ ، لاَ نَرْجِسُنَا ذَا وَأَحَادِيثُكَ ، لاَ هٰذَا الشَّرَابُ !

أما الغريب حقا فهو أن يطلب إليه سيف الدولة وصف حصان لكى يهديه إليه ، فلا ينشط للوصف ، ولا يجىء إلا بثلاثة أبيات فائية : أولها مدح ، وفى ثانيها إجمال لوصف الحصان بلفظ (مطهم) والثالث تفويض الأمر إلى الأمير فيما يختار مع شىء من المديح .

— ٩ —

والظاهر أن المتنبى كان متكبرا واثقا بنفسه ، فلا يهتز لمثل هذه الأمور ؛ فقد أحضر له بدر بن عمار (بمشورة عدوه الأعور ابن كروّس) لعبة فى مجلسه ليختبر بداهته وسرعة خاطره ؛ وهى ذات شَعر ، وفى يدها طاقة ريحان ، وتدور

(١) البابة : الآلة

على رجل واحدة ، فارتجل فيهما ثلاثة أبيات من بحر ، ثم ثلاثة من بحر آخر ، يغلب على الجميع المدح والوصف المعنوى ، وقد كان فطن للاختبار ، فسأل بدرا فى ذلك ، فقال : أردت أن أنفى الظنة عن أدبك ، فقال بيتين نروى ثانيهما الذى يفيض ثقة بالنفس :

إِنِّى أَنَا الذَّهَبُ الْمَعْرُوفُ مَخْبَرُهُ   يَزِيدُ فِى السَّبْكِ لِلدِّينَارِ دِينَارَا !

وهذا يذكرنى موقف ابن حمديس الشاعر من ابن عباد الملك : دخل عنده لأول مرة فأجلسه ، وأمره أن ينظر من نافذة وراءه ، فرأى نارا مشبوبة وراء طاقين مفتوحين ، وقد جعل الموكل بها يقفل كلا من الطاقين ، ثم يفتحه على التبادل ، ثم ترك أحدهما مفتوحا تتراءى منه النار ، والآخر مقفلا يمنع ضوءها ، فقال ابن عباد : أجز

انظرهما فى الظلام قد نجما   فأجاب : كما رنا فى الدُّجُنَّة الأسدُ

فقال :

يفتح عينيه ثم يقفلها (١)   « : فعلَ امرىء فى جفونه رمد

فقال :

فابتزه الدهر نورَ واحدة   « : وهل نجا من صروفه أحد؟

فهل لنا أن نفضل ابن حمديس على المتنبى بسرعة البديهة والاجادة فى وصف بديها ؟ إن موقف ابن حمديس يدعو حقا إلى الاعجاب ، يجيب بسرعة على وزن لغيره لاخيار له فيه ، والمتنبى فى مثل موقفه مطلق حر الاختيار ، ويتبلد فى الوصف ، ويستن فى ميدان المديح !!

لكن لا يفوتنا أن الشاعر الصقلى ورد ساحة ملك شاعر ، راجيا الحظوة عنده ، ولا وسيلة له ولا شفيع يكشف عن مكانته للملك ، وهو بعد لا يعرفه ،

(١) يريد يقفلهما ـ والشيئان إذا اصطحبا وقام كل منهما مقام صاحبه ، جرى عليهما كثيراً مايجرى على الواحد . قال الشاعر :

لمن زحلوقة زل   بها العينان تنهل ؟

راجع تنبيه البكرى على أمالى القالى ص ٣٩ طبع دار الكتب المصرية

فكان هذا داعية الإتقان ، أما أبو الطيب فكأنما يرى مختبريه أطفالا ، ويحسب كلامهم نقيق ضفادع ، فلا يأبه لهم ولا يباليهم . وهو بعد مولع بالحرب وأسباب المجد ، فلا يصرف همه إلى مثل هذه الصغائر ، التى يراها لونا من العبث ، وضربا من فضول العقل واللسان . رأى فى يد أبى العشائر بطيخة سوداء حولها قشر من الخيزران ، والظاهر أنها نوع من اللُّعب التى كانت تعرض له فى مجالسه ، فقال:

مَا أَنَا وَالْخَمْرَ وَبِطِّيخَةً سَوْدَاءَ فِى قِشْرٍ مِنَ الْخَيْزُرَانْ ؟
يَشْغَلُنِى عَنْهَا وَعَنْ غَيْرِهَا تَوْطِينِىَ النَّفْسَ لِيَوْمِ الطِّعَانْ !

ودخل عند أبى العشائر أيضا ، فوجد بين يديه من ينشده قصيدة وصف لبركة فى داره ، فأنف لأبى العشائر أن يُلقى السمع لمثل هذا الهراء ؛ وأبدى رأيه جليا فيما يحسن فيه الكلام ، وما يليق به الترك والإهمال؛ فاستمع لما ينشد مرتجلا:

لَئِنْ كَانَ أَحْسَنَ فِى وَصْفِهَا لَقَدْ تَرَكَ الْحُسْنَ فِى الْوَصْفِ لَكْ
لِأَنَّكَ بَحْرٌ ، وَإِنَّ الْبِحَارَ لَتَأْنَفُ مِنْ مَدْحِ هٰذِى الْبِرَكْ !

وإن هذا وحده ليفسر لنا إعراضه عن الوصف إلى المدح فى أكثر الأحوال .

— ١٠ —

وقد آن لنا أن نراجع بعض لفتاته فى الوصف ، وإنها لكثيرة فى شعره بجميع ضروبه ، وقد لاحظنا أن هذا الضرب لا يخلو منها ؛ وقد مر بك فى صدر المقال (عند وصف الحصان) أنه يشكو قلة الأصدقاء المخلصين الأوفياء (وما الخيل إلا كالصديق قليلة) ، ويرشد بعد ذلك إلى الحذر من الاغترار بالظواهر ، ويوصيك بالتغلغل وراءها . لتدرك مبلغ صدق عنوانها على باطنها (إذا لم تشاهد . . .) وكأنه يضرب ذلك (فى الخيل) مثلا لحكم عام تجعله ميزانك فى كل الأمور .

وقد رأيت كثيرا من هذه اللفتات فى وصف شعب بوان ، وعرضنا ثَمَّ لبيان مصدرها وموردها ، أما الذى مر فى وصف الأوعال ، والضحك والإضحاك

من لحاها ، فلعله يقصد به إلى قوم بأعيانهم ، قد اتخذوا مظاهر التقوى والصلاح جُنة لهم يستدفعون بها انتقاد الناس ، ويظهر أنه كان يطلع على خائنة منهم ، فليس هو بالذى يغره الغلاف ، فتخدعه زينته عن استبطان صحائف الكتاب ، والتفتيش عما وراء السطور والكلمات ، وأكبر الظن أنه يريد بعض من يدّعون العلوية ، وليسوا منها ولا قلامة ظفر ، لا عملا ولا نسبا ولا خُلقا . يضاف إلى هذا التفاته إلى ذيل الكلب فى أرجوزة الطرد : (يَخُطّ فى الأرض حِسَاب الجُمَّلِ) والذين يدعون العلوية يزعمون أن عليا (كرم الله وجهه) كان عالما بكل الحوادث المنتظر وقوعها ، وأودع علمه ذلك (كتاب الجفر) الذى يحوى عبارات رمزية ، لا تلقى إليك بأسرارها ، حتى تعالجها علاج الرموز ، بوضع الأرقام والأعداد موضع الحروف والكلمات ، ثم تستشف ما وراءها من تواريخ ، ووقائع ، وأعلام أشخاص ، وأسماء أماكن وبُلدان . ويصطنعون حساب الجمّل لمعرفة تلك الأمور الغيبية من سعود ونحوس ، وإقبال وإدبار ؛ ولا شك أن المتنبى كان يتحرق على هؤلاء الأدعياء غيظا ، ولعلهم هم الواترون ، وهو الموتور ألا ترى إلى أوضح التفاتة فى وصف بحيرة طبرية :

يَشِينُهَا جَرْيُهَا عَلَى بَلَدٍ ... يَشِينُهُ الْأَدْعِيَاءُ وَالْقَـزَمُ

وأوضح من هذا قوله فى موطن آخر (يقصد طبرية)

وَفَارَقْتُ شَرَّ الْأَرْضِ أَهْلاً وَتُرْبَةً ... بهـا علوىٌّ (جَدُّهُ غَيْرُ هَاشِمِ)

ويقول فى قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين بن طاهر العلوىّ :

إِذَا عَلَوِىٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ ... فَمَا هُوَ إِلاَّ حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ

— ١١ —

ولأبى الطيب (بعد هذا كله) أوصاف تتصل بالغزل . وقد أبدع فى أكثرها ، وجاء فيها بفتنة القلوب والأسماع ، وإنا لنثبت بعضها مستغنين بالطل عن الوبل . قال فى خصر جميل يجتذب العيون من حوله ، فتثبت فيه ولا تتحول عنه كأنها عليه نطاق :

وَخَصْرٌ تَثْبُتُ الأَبْصَارُ فِيهِ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نِطَاقَا

وينظر إلى غانية يزين التثنى والبَخْترية مِشيتها فيقول :

كَأَنَّمَا قَدُّهَا إِذَا انْفَتَلَتْ سَكْرَانُ مِنْ خَمْرِ طَرْفِهَا ثَمِلُ

وكأن ابن زيدون قد لمح هذا البيت حينما قال فأحسن فى السبك :

ما للمدام تُديرها عيناك فيميل فى سكر الصبا عِطفاك ؟!

ويقول فى حسن التبختُر مع نعومة الجسم وجمال الثغور :

حِسَانُ التَّثَنِّى ، يَنْقُشُ الْوَشْىُ مِثْلَهُ (إِذَا مِسْنَ) فِى أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ

وَيَبْسِمْنَ عَنْ دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مِثْلَهُ كَأَنَّ التَّرَاقِى زُيِّنَتْ بِالْمَبَاسِمِ (١)

انظر كيف يترك الوشى شبيه صورته فى تلك الأجسام الناعمة ؟ وله فى موقف وداع :

وَجَلاَ الْوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِناً حَسَنُ الْعَزَاءِ (وَقَدْ جُلِينَ) قَبِيحُ

فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ ، وَطَرْفٌ شَاخِصٌ وَحَشاً يَذُوبُ ، وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ !!

وفى موقف مثله أيضا :

حُشَاشَةُ نَفْسٍ وَدَّعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَمْ أَدْرِ : أَىَّ الظَّاعِنَيْنِ أُشَيِّعُ ؟

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ ، فَجُدْنَا بِأَنْفُسٍ تَسِيلُ مِنَ الآمَاقِ، وَالسُّمُ أَدْمُعُ ! (٢)

٭٭٭

— ١٢ —

ولقد أتى بالبارع الباهر فى الأوصاف المعنوية ، وعواطف النفوس وما يصدر عنها ؛ فمن ذلك وصفه لموقف سيف الدولة فى الحرب : هادئا والموت

(١) التراقى : جمع ترقوة وهى العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق فى أعلى الصدر ومنه قوله تعالى « حتى إذا بلغت التراقى » .

(٢) السم : لغة فى الاسم ، وميمه مخففة ؛ والسين مثلثة

يتخطف الأرواح من حوله، باسما والأبطال يمرون به عبس الوجوه؛ وهو متعالم مشهور. ومنه أثر الوهم فى النفوس، كما يصور هرب الدُّمُسْتُق:

وَلٰكِنَّهُ وَلَّى، وَلِلطَّعْنِ سَوْرَةٌ إِذَا ذَكَرَتْهَا نَفْسُهُ لَمَسَ الْجَنْبَا

وكذلك هرب بنى تميم، وضيق الأرض بهم، أمام جيش سعيد بن عبد الله ابن الحسن الكلابى، فالوهم يخلق لهم أشباحا، فينفخ فيها فتصير رجالا:

وَضَاقَتِ الْأَرْضُ، حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلَا

وما أجمل وصفه للحب، إذا تردد بين خوف القطيعة ورجاء الوصال!:

وَأَحْلَى الْهَوَى: مَاشَكَّ فِي الْوَصْلِ رَبُّهُ
وَفِي الْهَجْرِ: فَهْوَ ـ الدَّهْرَ ـ يَرْجُو وَيَتَّقِي

ويصف بعض ممدوحيه بالوقار مع خفة الروح، ويعجب من اجتماع هاتين الخلتين عجبا ينبهك إلى جمال البيت:

يَرُوعُ رَكَانَةً، وَيَذُوبُ ظَرْفاً فَمَا نَدْرِى: أَشَيْخٌ أَمْ غُلَامُ؟!

ومثله فى الجمع بين وصفين متباعدين، جمعه بين الحياء الخجول والشجاعة المتجهمة:

نُصَرِّعُهُمْ بِأَعْيُنِنَا حَيَاءً وَتَنْبُو عَنْ وُجُوهِهِمُ السِّهَامُ

... ...

حَيِيُّونَ، إِلاَّ أَنَّهُمْ فِي نِزَالِهِمْ أَقَلُّ حَيَاءً مِنْ شِفَارِ الصَّوَارِمِ

وفى خَوْد ممنعة بصولة أهلها وحمايتهم لها يقول:

بَيْضَاءُ، تُطْمِعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِهَا وَعَزَّ ذٰلِكَ مَطْلُوباً إِذَا طُلِبَا!

كَأَنَّهَا الشَّمْسُ: يُعْيِي كَفَّ قَابِضِهِ شُعَاعُهَا، وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

وفى أخرى مثلها:

فِيهِنَّ منْ تقطُرُ السُّيُوفُ دَماً إِذَا لِسَانُ الْمُحِبِّ سَمَّاهَا

ووصفه الحمى التى أصابته بمصر أبلغ تصوير فى أبدع طراز :

وَزَائِرَتِى كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلاَّ فِى الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَافَتْهَا ، وَبَاتَتْ فِى عِظَامِى
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنْ جِسْمِى وَعَنْهَا فَتُوسِعُهُ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ
إِذَا مَا فَارَقَتْنِى غَسَّلَتْنِى كَأَنَّا عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامِ
كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِى مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةٍ سِجَامِ
أُرَاقِبُ وَقْتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ مُرَاقَبَةَ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ
وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا؛وَالصِّدْقُ شَرٌّ إِذَا أَلْقَاكَ فِى الْكُرَبِ الْعِظَامِ

وهذه القطعة الفنية غنية بنفسها عن التعليق ، تسبق معانيها إلى الأذهان. ألفاظها إلى الآذان . ولكن انظر إلى إبرازه الصورة المعنوية ، بحيث ترى ملموسة محسوسة . ألم يخدعك أبو الطيب : فتصورت غادة حسناء ، تسعى إليه تزوره على استحياء ، فتدرّع لذلك جلباب الظلماء ، خوفا وخفية من أعين الرقباء ؛ حتى إذا أقبلت استقبلها مرحبا كالمشغوف بها ، وقدّم إليها الفرش والغطاء ؛ ولا تزال به منخدعا حتى ينبهك إلى الحقيقة من طرف خفىّ ، إذا أبت الزائرة المطارف والحشايا ، وباتت منه فى العظام . وحينئذ فقط تدرك الخديعة ، وتعرف الحقيقة ، وتعلم ما كان من قبل يريد .

* * *

وما أنس من شىء لا أنس وصفه لِتيه الأسد وثقته بنفسه ، إذ يمشى على الأرض متمهلا . كأنه يريد أن يشعرها بمشيه فوقها ، لتأخذ حذرها ، فلا يأخذها ميد ولا اضطراب :

بَطَـأُ الثَّرَى ، مُتَرَفِّقاً ، مِنْ تِيهِهِ فَـكَأَنَّهُ آسٍ يَجُسُّ عَلِيـلاَ

فما قرأت هذا البيت ، أو سمعته ، أو تدبرته ، إلا ذكرت منظرا شبيها به ، لنمر بإحدى غاب الهند ، تراءت صورته على سبيبة الخيالة ، فشاهدته يمشى هادئا مترفقا ، يمد قوائمه إلى الأمام ، وينقل الخطو بانتظام ، كأنما يوقع الخطا على أوتار الغطرسة فى نفسه والكبرياء ، وعيناه تجول حوله : غايةً فى الهدوء ونهاية فى السكون .

هذا إلى وصفه الزمان وتقلبات الأيام ، بما لا يتفق مثله لكثير من الشعراء .

— ١٣ —

وبعد : فإنى قدرت لهذا الموضوع (حين استقبلته) كراسة أو ما يدانيها ، فلما أقبلت أجيل الرأى فيه ، تشعب أمامى وتباعدت نواحيه ، فما زلت به أروض نوافره ، وأجمع متفرقه ، حتى استقاد وتدانت أطرافه ، وفى نفسى أنى ما شفيت منه نفسى ، فقد كنت آمل أن أجلو منزلة المتنبى فى الوصف بين الشعراء الوصافين ، بطريقة يسندها البرهان ، ويطمئن لها العقل والوجدان . ولكنى رأيت ذلك محتاجا إلى تأليف كتاب ضخم ، يتناول جل وصف المتنبى ، وكثيرا من وصف سابقيه ولاحقيه : عرضا وتحليلا ، ونقدا وموازنة وتعليلا ، حتى نتبين مبلغ تأثره السابقين ، ومقدار تأثيره فى اللاحقين ، فهل إلى ذلك من سبيل ؟ إن قلبى يحدثنى بمحاولة هذا الكتاب ، فيما يستقبل من الزمان ، فعسى الله أن يصرف الشواغل ، ويرزقنى التوفيق فيما أحاول ؛ فإنه (تعالى) هو الموفق والمستعان ؟

المتولى قاسم

شذوذ المتنبي

بقلم الأستاذ محمود مصطفى
مدرس الأدب في كلية اللغة العربية بالازهر

— ١ —

الشذوذ هو الخروج عما ألف : من خلق . أو عادة ، أو شكل فى صورة ، أو قول . هذا هو مصداقه فى جميع العلوم والفنون ، وهو بهذا الإطلاق يشمل الخروج مرضيا ومسخوطا ، ومقبولا ومرفوضا ؛ ولكن الاصطلاح يخصه بما ينبو عنه الطبع ، على حين يحبو الجانبَ الآخر بالألفاظ الجميلة ، فيقول الناس عن الرجل الذى يفوق الرجال : إنه نابغة ، وعبقرى ، ونسيج وحده . كما يقولون عن الخلق إذا ارتقى فى مدارج الكمال : إنه الكمال المطلق ، والشرف الباذخ .

بهذا اتضح مرادنا من « شذوذ المتنبى » فنحن نريد أن نحصى عليه بعض عيوبه ، وأن نعد عليه من ذنوبه : نريد أن نحاسبه . فهل يتفق هذا المنحى مع ماالندفع فيه أهل جيلنا من إطرائه إطراء لايشوبه تنقص ؟ هل يوافق هذا المنحى إحياء ذكرى المتنبى لمرور ألف عام على وفاته ؟

رأينا الناس فى مصر وغيرها قد طلعوا علينا بمجالس جلسوها ، ومحافل أقاموها ، وكتب أصدروها ، فى شأن المتنبى ؛ ولا تكاد تجد فيها إلا الإطراء والاندفاع فيه ، والتحبيذ والتقصى له : فالمتنبى شاعر العربية ، وهو شاعر الحكمة وشاعر النفس المتوثبة ، والهمة التى لا تعرف الانخذال ، بل هو شاعر الحياة ، هو الشاعر الخالد ، والشاعر الذى لم تلد الأجيال مثله . . .

قد تجتمع فى امرئ صفات من الكمال ، وقد تتعدد هذه الصفات تعددا ظاهرا ، ولكن الإنصاف والنقد الصحيح ، يوجبان على الناقد ألا يغفل المعايب

إذا هو استقرأ المحاسن ؛ فان فى فحوى عمله إشعارا بخلو ممدوحه من العيوب ، وهو أمر أجمع الناس على استحالته فيما خلا الله سبحانه وتعالى .

لقد هالنى أن رأيت معاصرىّ قد نسُوا أول شرط من شروط النقد ، وهو وزن الحسنات بالسيئات ، وهم حين كانوا ينقمون هذه الخصلة ، كانوا يلصقونها بالمتقدمين إلصاقا ، ويعلم الله أن المتقدمين يضربون لنا بحديثهم عن الرجال أرقى مثل للنقد ، وأشرف منزع له ؛ ولكننا نرميهم بدائنا الذى تجلى فى إحيائنا لذكرى المتنبى !

طغى على أفهامنا خطأ أن إحياء الذكرى بمثابة التأبين للميت ، أو التكريم للحى ، وأنه لا يجتمع فى الذوق أن يدفعنا الإعجاب بالرجل إلى إحياء ذكراه ، ثم نشوب ذلك بذكر مآخذ عليه . هذه هى الفكرة التى طغت على أدباء العصر فى هذه السنة التى استنوها ، ولكنهم سجلوا فيها على أنفسهم عيبا لاصقا .

إن الذى أفهمه من إحياء الذكرى هو جملة معان تتسامى وتتلاحق فى نفس المحيين لهذه الذكرى : أولها الاعتراف بالوجود لهذا المحتفل به ، ثم الإحساس بأنه جدير أن يشغل الناس بالحديث عنه ؛ فحين نحتفل بالمتنبى اليوم بعد مرور ألف عام عليه ، نعترف بأن المتنبى كان من رجال العهد الماضى الجديرين بأن نحس بوجودهم ؛ فكم كان عصره يموج بالناس ، ويعج بالأحياء ؛ ولكن المتنبى من بينهم فى باب الشاعرية هو الذى استرعى أبصارنا . وشغل أفكارنا ، فنحن نخصه من بين عشَرائه وأهل زمانه بأن نفرده بالحديث . وهذا المعنى من التكريم سام تتطال إليه الأعناق فلا يناله إلا مثل المتنبى .

تكريم المتنبى قد تم فى عقد المجالس . وجمع المحافل ، وإصدار الأعداد الخاصة من المجلات فى الحديث عنه ؛ ولكن ذلك لا يمنع أن يكون ذلك الحديث جاريا على أصول النقد ، مستوفيا لشروطه .

إلى جانب هذه المعانى فى إحياء الذكرى ، معنى آخرُ أعوَدُ على المحتفلين بها : هو تصوير ما تهيأ لهم من أسباب الفهم والحكم ، والدلالة على ما وصلوا إليه فى مراتب الأدب من منزلة يغتبطون بها ، فهم يقولون لمن سيرى مجهودهم

فى تمحيص حياة المحتفل به : إننا قد وصلنا إلى هذا الحد من البحث والتنقيب واستشفاف الحقائق من وراء الحجب ، وإنطاق الآثار بما أضمر فيها أصحابها من معانٍ ودلالات ، يعرضون ذلك مدلـَّـين به ، وبما صار لهم من صبر فى البحث ونفاذ فى شعابه ، وهم إذا أرادوا أن يمثلوا عصرهم أتم تمثيل ، نَحَوْا جانباً أحكام السابقين وآراءهم فى أقوال المحتفل به ، ثم أقبلوا على هذه الأقوال يفهمونها بفكرهم الجديد ، واستعدادهم المهيَّأ بغير وسائل القدماء ، فابرزوا صورا من الفهم ، وجلَّوا طرفا من الاستدلال ، وحكموا أحكاما أدَّتهم إليها أسباب لم تتهيأ لغيرهم ؛ فتزيد بذلك ثروة الأدب ؛ ونجد عن المتنبى ـ مثلا ـ صورتين جليتين واضحتين : صورة انطبع فيها العصر القديم بماله وما عليه ؛ وصورة أظهرت عصرا يختلف عن القديم فى كثير من مظاهره ؛ ثم إذا جرى الخلف على سنة السلف ، وجاء عصر ممتاز عن عصرنا ، وصار لجيله فهم غير فهمنا وحكم غير حكمنا ، وكان له استقلال غير استقلالنا ـ رأينا صورة ثالثة ، ولا شك أن هذه ثروة تتضاعف للأدب فينمو على مر الأيام وبذل الجهود .

من أجل ذلك أردت أن أتناول من المتنبى ناحية لا ينكرها أحد ، ولا يستطيع أن يدفعها عن المتنبى متعصب له ، مهما بلغ به تعصبه ؛ تلك هى شذوذه ولم أرد أن أحده بقول أو فعل ، بل سأجعله عاما يتناول جميع حالاته . سأتناول شذوذ المتنبى : فى خلقه ، ورأيه ، وعبارته ، وما أدعى أنى بذلك سأخلق بحثا لم يتناوله الأقدمون ، ولكنى أرى أن الانصاف للتاريخ ولنفس المتنبى لا يكون إلا بجمع عيوبه إلى محاسنه ؛ ووزن فضائله بنقائصه .

أسباب الشذوذ فى المتنبى :

حياة المتنبى فى متناول كل أديب ليس فيما روى عنها بُعْد عن أى مطلَع ؛ لأن حياة المشهورين تبرز فى المتداوَل من الكتب ، وما كان فى زاوية منها بعيدة عن الأنظار حيناً ما ، قد أظهره تتبع الناس لأخبار هؤلاء المشهورين وتقصيهم لمجرى حياتهم ، فلنطمئن إلى أن كل ما يروى عن المتنبى من حياته وشعره ومأثور كلامه ، فى متناول كل يد الآن ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون

ذلك المروى ليس بالمثابة التى تظهرنا على المتنبي طفلا وغلاما ويافعا ومراهقا ؛ كما أننا لا نطمع منها أن تبرز لنا بيته ونصيب أمه وأبيه من الذكاء وحالهما من الثروة ، وكيف تهيأت لهما تنشئته على ما يريدان له من الثقافة .

هذا السبب أو النقص فى حياة المتنبي ، ليس نقصا طارئا فى الأدب العربى خصت به حياة المتنبي مصادفة واتفاقا ؛ ولكنه شىء يعم الأكثرية من الذين يهمنا معرفة حياتهم بالتفصيل ؛ فأبو تمام ، والبحترى وغيرهما من شعراءَ وكتاب بل ملوكٍ وسلاطينَ ، يعوزنا ما يحتاج إليه البحث الحديث من تفصيل لحياتهم الأولى ، أليس هذا الغموض هو الذى أساغ لبعض الحاقدين على المتنبي أن يدعى أن أباه كان سقاء ، وأنه انتقل به من الكوفة إلى الشام ؟

أو ليست هذه التهمة نفسها ، أو ذلك النبز بعينه ، هو الذى رمى به أبو تمام حين قالوا : إنه كان يسقى الماء بالجرة فى جامع عمرو بالفسطاط ؟ وإن فى اختيار سقاية الماء حرفة لكل مجهول الحرفة ، لَمعنى يدل على أن هذا المدّعِى حين أراد قبولا لدعواه ، واستساغة لتهمته ، التمس الحرفة الشائعة الكثيرة الرواية فى تلك العصور ، حين لم تكن وسيلة إلى الماء إلا تناوله من مجاريه بالقربة ، وتوزيعه بعد ذلك فى الأنحاء القريبة والبعيدة ؛ فلاشك أنها حرفة كثيرة المحترفين ، لا يخلو منها بلد من بلاد الله إذ ذاك ، ولا بد أنها كانت من الكثرة والشيوع بحيث كانت وهان أصحابها على الناس ، فصارت دعواها مقبولة فى كل إنسان لا تعلم حرفته بالتحقيق . ثم حملت مع ذلك هذا النقص الذى جره شيوعها وكثرتها وهوانها على الناس . ومن هنا دخل الشاعر إلى هجاء أبى الطيب بقوله :

أى فضل لشاعر يطلب الفضـــل من الناس بُكرةً وعشيّا ؟

عاش حيناً يبيع بالكوفة المـاء ، وحينـــا يبيع ماء المُحَيّا !

من أجل هذا الغموض فى حياة المتنبي الأولى لا نستطيع أن نستنبط أو نعلل ما صار إليه فى مستقبل أمره ، كما جرت عادة الباحثين فى أيامنا . ولو أن هذه الحياة كانت مبسوطة أمامنا ، ميسرة لنا نراها رأىَ العين ، ما استسغنا أيضا

أن نكون كهؤلاء الذين يؤمنون الإيمان كله بصلة النبوغ بها ، وانتماء الانغمار إليها ؛ لسنا من هؤلاء المؤمنين بتلك النظرية التى يبالغ أهل جيلنا فى تطبيقها . يقولون كما يقول بعض الأطباء : « قل لى ماذا تأكل ؛ أقل لك من أنت » فأدباؤنا يقولون : « قل لى ماذا قرأت ، وماذا حفظت ، ومن هم أستاذوك وخلطاؤك ؛ أقل لك من أنت »

قد يروعك من أصحاب هذا الرأى ضخامة الأساس الذى يبنون عليه حكمهم : « إن المرء صنيعة البيئة » وقول سبنسر : « كل شىء يصيب المادة يترك فيها أثرا لا يزول » فهم يفخمون فى مقدار استنباطهم على قدر ما لنظريتهم من ضخامة فى الصدق؛ فهناك الاستعداد ، والفطرة التى فطر الله الناس عليها . ولو بنينا أسباب النبوغ أو التخلف على الفطرة وحدها ، لكنا أقرب إلى الصواب ، لأن الاستعداد سبب أقرب من البيئة ، فمطاوعة النتائج له أقرب إلى العقل من مطاوعتها للبيئة .

وإنى لأذكر خطأ آخر وقع فيه الكيميائيون قديما ، فَشَقُوا وأشقَوا الناس معهم ؛ هذا الخطأ مبنى على نظرية صادقة متينة الأساس، واضحة النهج ؛ ولكن الصلة بينها وبين ما بنى عليها ينقصها شىء غاب عن أذهان المفكرين ، فضاع من أجله جهدهم ، وفنِىَ نشاطهم ومالُهم فى تحقيق هذا الاتصال ، الذى ظل تنقصه حلْقة واحدة لو أنها وصلت بين طرفيه لا تصل تفكيرهم وتحقق حلمهم .

تلك هى نظرية الكيمياء الخيالية « كيمياء الذهب » التى زعموا فيها إمكان تحول بعض المعادن الدنيئة إلى معدن الذهب النفيس ، قالوا : إن كل معدن يتكون من ذرات مختلفة العناصر ، بنسب يترتب على اختلافها اختلاف تلك المعادن ، فالنحاس يتركب من ذرات إذا تغيرت نسبتها كان من نتائج ذلك تكون الذهب ، وهذه النظرية صادقة يؤيدها التحليل الحديث ، ولكن العقدة فى التحليل والتركيب ، فإذا تيسر لنا ذلك ، حصلنا على الذهب الوهاج ! ! وفى هذا التحليل والتركيب تحللت قوى القدماء ، وركبتهم الهموم التى اغتالت عقولهم، واستنفدت مادتهم ؛ كذلك نحن فى وصل حياة الناس ببيئتهم ينقصنا اعتبار ذلك السر الذى بيد الله مفتاحه ؛ وهو الذكاء الموهوب الذى لا نصل إلى وزنه وبيان كمه وكيفه .

فلست بطائر مع الذين يقولون : إن انتماء المتنبي إلى (جعفى بن سعد العشيرة) من قبائل اليمن ، ونشأته فى (محلة كندة) ، وسفر أبيه به إلى الشام ، وانتقاله به نى باديتها وحضرها ، ومدرها ، ووبرها ، وإسلامه إلى المكاتب ، وتردده بين لقبائل - لا أقول إن هذا هو السبب وحده فى أن كان المتنبى بهذه المثابة التى ذكروها عنه من النبوغ فى اللغة ؛ فربما لا نجد فى البدو الذين لزموا البادية فى أيامه ، ونشأوا بن خيامها ، من يدانى المتنبى فيما صار إليه من فضل ، ولكن شيئا آخر يكون ول فى مقام الاستدلال ، هو موهبته الطبيعية الفطرية ، هو الذكاء الذى ركبه لله فى نفسه ولا ندرى مأتاه : أهو وراثى من أحد أبويه ، أم من كليهما ، أم هبة خاصة لا علاقة لها بالوراثة ؛ ذلك هو السبب الجوهرى الذى لو أدركنا كنهه وعرفنا قياسه ، لأمكننا أن نحكم صادقين بما كان له من آثار عظام فى حياة الرجل .

وعلى هذا نقيس القول فى همة المتنبى ، وطموح نفسه ، وبعد غاياته ، وكبره لذى ضاق به سِلْخُه ، بل ضاق به رحب الدنيا فى عينيه ؛ هنا مصداق قولنا ؛ أين الصلة بين سقاية الماء وحقارة شأنها ، وبين هذا الطموح الذى لا حد له ؟ وأى صلة بين ركوع السقاء وانحناء صلبه دائما ، ونضوحه بعرق القربة ؛ وبين هذا لكبر الذى لم نعرف مثله عن ملوك عصر المتنبى ؟ أليس هذا الاختلاف بين بيئته وما نشأ عنها ، والتضاد بين الأسباب ومسبباتها ، دليلا على صدق ما نقول ، ن أن هناك أسبابا خفية خاصة بكل أحد من النـاس ، هى التى يرجع إليها ختلافهم وقد اتحدت بيئتهم ، وتشابهت تربيتهم ، بل تحدرت بهم أصلاب واحدة ، وأرضعتهم لبان ثدى واحد .

إذن كان المتنبي همام النفس طموحا ، متكبرا لا حدّ لكبره ، نزاعا إلى الإغراب فى كل ما يعتقد ويقول ؛ نؤمن بذلك ولكنا لا نجهد أنفسنا فى تعرف سبابه إلا بقدر لا جزم معه .

— ٢ —

آن أن نحصى نواحى شذوذ المتنبي فنقول : إنها هى من نواحى نبوغه أو هى طراف هذه النواحى

فمن نواحى نبوغه علو همته وطموح نفسه . وما يستنكر على أحد الهمة والطموح ، ولكن المستنكر فيها أن يحاول بهما امرؤ فى مثل نشأة المتنبى ووضاعة بيئته ، وصولا إلى الحكم والولاية لأمور الناس ، وذلك ما قاله المتحرجون من المبالغة أو تصديقها فى شأن المتنبى . ومهما يكن من تعدد الولايات فى أيامه ، أو تحققها لغير ذوى الأهلية لها ، فإننا نعد تطلع المتنبى لها شذوذاً أو خروجا على المألوف فى عرف الناس . نعم وثب خصى دَمِيتْ أذنه فى يد النخاس ، وكان للفلسين أثر فى تقديره يوم بيع . ولكن بين موقف كافور فى يد النخاس ، وتربعه فى دست الملك حدثت أمور وجرت أقدار صار معها تحقق هذا الحلم أمرا جائزاً ، فكافور الخصى تنقل فى خدمة سيده الإخشيد وساعده ذكاؤه ونفاذه فى الإخلاص لسيده ، واطمئنان هذا السيد إلى جانبه ، وارتياحه إلى خضوعه ـ على أن سما قدره حالا على حال وطبقا عن طبق ، ولم يكن فى انتقاله فى تلك المراتب طفرة تستغرب ، حتى صار الخصى معلم ابن الاخشيد ، فوصيّه ، ولعله لم يُرَد لهذه الوصاية إلا حين أمن أولو الشأن جانبه ؛ فى غفلة هؤلاء واستنامتهم إليه ، استطاع أن يصبح بين يوم وليلة صاحب الأمر ، المستبد به دون سيده ؛ وقد دب استبداد كافور بالأمر دبيباً خفياً ، وسرى سريانا بطيئاً ، فكان كدبيب الغذاء فى الأعضاء ، أو دبيب الملال فى مستهامين إلى غاية من البغضاء . يدلك على ذلك أنك لم تجد نكيرا من أحد ، ولا ثورة من عامة ، ولا حركة من جيش ؛ فمهما تصورنا المصريين نياما عن حقوقهم ، معطلين لأمر مملكتهم ، لم يفتنا أن لتناسب الحالات التى تنقل فيها كافور ، وانتهائها انتهاء طبيعياً أو كالطبيعى إلى توليه أمر البلاد ـ أثراً فى قبولهم لتلك النهاية التى ترى البون شاسعا بينها وبين بدايته

وينبغى أن نفهم أن قلب مملكة أو الوثوب إلى ولاية ليس أمرا سهلا ، بل هو من أصعب الأمور ، ويكفى أنه لا يتم إلا مصحوبا بالثورة والدم والهرج والمرج ، مهما تجمعت له أسباب ومكنت منه مؤهلات . وما نطيل بذكر ما يحتاج اليه هذا الأمر من عصبية تمتد إلى عهود سابقة وينضم اليها حقوق مهضومة فى

هذا التراث المطلوب ، حتى يكون للأعوان صلابة فى هذا الحق الذى يريدون ، ووجاهة فى دفع المغتصب الذى يزعمون .

أفلا يكون المتنبي بعد ذلك شاذاً فى طموحه ، خارجا عن مألوف الناس فى طلبه ، حين ظن أن الملك يستفاد بهذه الأزمة الرثة ، ويبنى على هذه الأسس الواهية ، وحين خيل له أن جماعة من أوشاب الناس وأفنائهم يهيج بهم الجوع فى الصحراء ، فيطمعهم المتنبي بالشبع فى ولايته ، فيخرج بهم من حدود صحرائهم ، وما هى إلا انتباهة من أمير حمص ، وثلة من جنوده المرابطين ، حتى يبذعرّ هذا الجمع ، ويقع المتنبي فى يد لؤلؤ ، فيكون منه البكاء والشكاية المرة والاعتذار الصبيانى حين يقول لهذا الأمير :

تُعَجِّلُ فِيَّ وُجُوبَ الحُدُودِ ... وَحَدِّى قُبَيْلَ وُجُوبِ السُّجُودِ

ومنها يتوجع من القيد ويذل بالاستعطاف :

أَمَالِكَ رِقِّى ، وَمَنْ شَأْنُهُ ... هِبَاتُ اللُّجَيْنِ وَعِتْقُ العَبِيدِ

دَعَوْتُكَ عِنْدَ انقطاعِ الرَّجَا ... ءِ ، وَالمَوْتُ مِنِّى كَحبلِ الوَرِيدِ

دَعَوْتُكَ لما بَرَانِى البِلَى ... وَأَوْهَنَ رِجْلَىَّ ثِقْلُ الحَدِيدِ

ولنقف وقفة قصيرة عند ذله هذا! واعتذاره فنقول : إن طلب الملك غالبا يصحبه صلابة فى العود ، وشدة فى الشكيمة ، واستحصاد فى المرة ، يقوى أركانها فى النفس وجاهةُ الفكرة التى دفعت الثائر إلى ثورته ؛ حتى لا يكاد يعدل عن طلبه بين السيف والنطع . هذا شأن الثائرين الجادين الذين نبا بهم الحظ فى الوصول إلى ما يريدون ، ولم يخنهم فى أنفسهم ، ولا فى إيمانهم بفكرتهم ، فبذلت لهم آمال دون آمالهم ، وسيقت إليهم رغائب بدل رغبتهم ؛ فلم يعدلوا عنها وآثروا أن يموتوا فى سبيلها .

هذا هو شأن الثورة فى طلب الملك إذا كانت مدعومة بالحق أو شبهه . وليس فى قصة المتنبي أمارة من ذلك . اذاً فقد كان المتنبي شاذا فى طلب الملك .

أما إذا ساير نامن يقول إنه ادعى النبوة وأتى الناس بقرآن يقول فيه . « والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفى أخطار . امض على سننك ، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين . فان الله قامع بك زيغ من ألحد فى الدين ، وضل عن السبيل » فأمر المتنبى فى هذه الحال هين علينا ، لا نعيا بالتماس التوجيه لهذه النزعة ولا نحاول ربطها بالهمة أو الطموح : إذ أن كل ما يعد من باب الطموح فهو موصول بالعقل ، مؤيد بالفكرة ، وإن كان إلى حد بعيد ، وعلى جانب من التأييد واهٍ ضعيف . فأما دعوى النبوة ـ بعد ما كان من دخول الناس أفواجا فى دين الله ، وبعد ثلاثة قرون لا تزيد دين محمد إلا تأييداً وتمكينا ـ فإن شأن المتنبي يسهل علينا جدا ولا نجد مشقة فى الحكم عليه . هو مجنون حتما إن كان قد صح منه هذا . أما الذين اتبعوه ـ إن صح أن قد اتبعه أحد ـ فهؤلاء إنما اتبعوه للعبث به والسخرية منه وانتظار مصيره . وهم أول الأمر وآخره من أولئك الضلال ، الفارغى اليد من الأعمال ، الذين ربما طمعوا فى أن يكون لهم معه غنم من سطو ، أو عدوان على سرب آمن .

ورأينا أن نستبعد على المتنبى هذه النزعة ، بل نقول : إن أعداءه صوروا شذوذه فى طلب الولاية بهذه الصورة ، نكاية به أو التماسا لعذر أنفسهم إذا هموا بقتله أو قتل أتباعه ، ولكن شأن المتنبى وأتباعه كان أهون من كل ذلك .

* * *

ومما شذ فيه المتنبى ، كبره وتعاظمه ، وليس الكبر شذوذا دائما ، فإن من الناس من يحسن منهم ذلك ويكون مألوفا للناس منهم . بل منهم من لا يحسن به التواضع كما يحسن به الكبر . وهؤلاء هم الملوك الذين ارتفعوا فوق مراتب الناس ، وقد جرت العادة باحتجابهم وتركهم المشى فى الأسواق ، وألف الناس منهم قلة القول وتجنب الهذر ، فلو أن أحدهم حضر الأسواق وابتذل نفسه فى خلاط العامة لكان ذلك منه شذوذا ، كما يكون شذوذا من أمر الرجل من السوقة ، أن يتشبه بالملوك فيحتجب ويترفع عن أنداده أو من هم فوقه .

وإنما عددنا كبر المتنبى الذى أثر عنه شذوذا ، لأننا لا نجد له من حياته ومنزلته

بين الناس ما يبرره ، ويوجد للمتنبى شبهة فى التمسك به .

لم يكن المتنبى من الثراء بحيث لا يكون فى جلسائه أثرى منه ، ولم يكن من العلم بحيث لا يكون منهم من هو أعلم منه ، ولم يكن من الشاعرية بحيث تزل جميع الأقدام عن موقفه ، ولكنه كان متكبرا على كل جليس ، شامخا بأنفه على كل ذى جاه أو منزلة ، وقد يكون للمتنبى شبهة إذا تكبر على هؤلاء ، ولكن ما شبهته إذا تكبر على الملوك ؟ ما شبهته فى أن يخالف سنة الشعراء فى حضرة سيف الدولة ؟ فقد كانوا جميعا يقبلون البساط بين يديه و يقفون للإنشاد ، فأما المتنبى فلم يكن ينشده إلا جالسا وهو متقلد سيفه . وقد لاحظ ذلك بعض الحاضرين مرة حين كان المتنبى ينشد قصيدته :

لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ ما تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِى العِدَا

فقال : لو أنشدتها قائما لأسمعت الناس . فقال له أبو الطيب : أما سمعت أولها؟ يريد أن هذه عادته ، ولا سبيل إلى تغيير العادة ، فاستحسن هذا الجواب منه وعد من بدائعه .

ولنقف أمام هذه القصة فهى فى نظرنا ـ مضمومةً إلى غيرها ـ دليل تكبره لا كبره ، وآية تكلفه لا طبعه ، لو كان هذا طبع المتنبى للزمه فى حضرة كافور ، فقد كان يقف للإنشاد ، وما أذله إلا حرصه وطمعه أن ينال ولاية منه ، وإلا فقد كان سيف الدولة أولى بالهيبة ، لفحولته وعزة نفسه وشجاعته . فاذا كان المتنبى قد جرى على مألوف الناس حين أنشد كافورا وهو واقف ، فقد شذ عنه حين فعل ما كان يفعل بحضرة سيف الدولة . كذلك كان شاذا ، حين أبى مدح غير الملوك ، فلم يُصغِ لإلحاح أبى القاسم بن عباد ، حين ألح عليه فى زيارته وعاهده أن يشاطره ماله ، ولكن العظمة التى تخيلها المتنبى لنفسه جعلته يأنف من مدح ابن عباد . والشذوذ قد يحمل صاحبه على الامتناع من ورود الماء على شدة الظمأ ، فليس الكبر فى مثل هذه الأحوال كبرا ، ولكنه خطرات من الوساوس وخيال من الوهم ، يصور لصاحبه العظمة ، مصحوبة بركوب الرأس ، وتنكب الطريق .

وقد شذ المتنبي فى شجاعته ، والشذوذ فيها يسميه علماء الأخلاق تهورا ، وهو مذموم قدر امتداح الشجاعة ، وهو دليل على الرعونة إذا دلت الشجاعة على الوقار والثبات . شذ المتنبي فى شجاعته فيما نعلم شذوذين ، أحدهما حين ثبت مع سيف الدولة فى ستة من الجنود فتمكنوا من اختراق صفوف الأعداء والنجاة . هذا شذوذ إلى حد ، شذوذ أدركته الروية آخر الأمر ، وإلا فقد كان ينتهى بالجنون إذا ثبت لهؤلاء الأعداء حتى يصيبه الردى . وما من العقل استدعاء الموت بمثل هذه المواقف . وقد يكون لسيف الدولة مبرر فى موقفه ؛ فهو صاحب الملك ، لا عار عليه أن يبذل فى سبيله نفسه ، لأن بالملك حياةَ نفسه ، فأما هذا الضيف الطارئ ، الذى يتمرس بمعاناة الحروب ويتفكه باللقاء ، فهو إذا حارب فلغير عداوة سابقة أو ثأر قديم ، وإنما يحارب مجاملة لصاحبه وإظهارا لقوة قلبه ، فموقفه تمثيل من أول خطواته إلى آخرها ، لذلك كان شذوذا من المتنبي غير مقبول أن يثبت وقد انهزم قوادا الجيش وانحاز أبطاله .

أما ثانى الموقفين ، فهو موقفه حين عاد من فارس ، وحقائبه بُجْرٌ بالأموال ، التى أفادها من عضد الدولة وابن العميد ، وفى طريقه إلى الكوفة أعداء له ، أو أعراب أول صفاتهم قطع الطريق ، فلم يُصْغِ إلى نصح الناصحين ، ولا استمع إلى إرشاد المرشدين ؛ بل نطق خَلْفاً من القول ، ودل على غرور مابعده من غرور ، حين قال وقد ذكّر بيأس بنى ضبة ، وعداوة فاتك بن أبى جهل منهم « لو أن مِخصرتى هذه ملقاة على الفرات ، وبنو ضبة مُعْطشون بخِمْس ، والماء يلمع كبطون الحيات ، ما جرؤ لهم ظِلفٌ ولا خُفٌّ أن يَرِدَه » ثم سار على هداية هذه الضلالة من رأيه ، حتى لقى حتفه كما قدّر النصحاء . وقد كان يقدر له الفرار فالنجاة ، لولا ضلالة أخرى ، وخرق جديد عرض له ، أبى معه إلا أن يكون - من بين الشعراء - صادقا فيما يدعى ، حين هم بالفرار فذكره غلامه بقوله :

فالخيلُ وَاللّيلُ وَالْبَيْـدَاءُ تَعْرِفُنِى   وَالسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

فثبت وقال : « قتلتنى . قتلك الله ! » وقاتل حتى قتل .

شذوذ المتنبي في أقواله :

كلامنا فى هذا الشذوذ يتناول ثلاثة مناح : الفكرة ، اللفظ المفرد ، التركيب . ولسنا ندعى أن كل ما كان من شذوذ المتنبي فى هذه النواحى كان متكلفا متصنعا ومجتلبا اجتلابا ، بل نؤمن بأن بعض ذلك وقع منه بغير تعمد ، مثل انتحائه ناحية التقسيم المنطقى والتحديد الفلسفى بكلمة « أول ، والثانى » فى قوله :

الرَّأىُ قَبْلَ شجَاعةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ ، وَهِىَ المحَلُّ الثَّانِى

أليست هذه لغة المنطق وتقسيم الفلسفة ، وهى لا شك رطانة فى الشعر ، إذا قيست إلى تلك الصياغة العربية ، التى صاغها البحترى فى ذات المعنى ، حين قال :

وَيَوَدُّ العَـدوُّ لو تُضْعِفُ الجَيْـــشَ عَلَيْهِمْ وَتَصْرِفِ الآرَاءَ

نعم هذا المعنى هو ذاك ، ولكن الشاعر المطبوع يأتى به نتيجة بلا مقدمات ، أما الشاعر المصنوع فانه يأتى به كما ترى محدودا بأول وآخر .

كذلك خذ مثلا تعليله فى قوله :

ولذا اسمُ أَغْطِيَةِ العُيُونِ جُفونها من أنها عَمَلَ السُّيُوفِ عَوَامل

فهو يعلل باللام ، ثم بمن فى سياق سقيم ، لا تألف مثله فى شعر الشعراء ، أو خذ مثلا استعماله لمشتقات فعل الكون ، التى أكثر منها الفلاسفة وأهل المنطق ، كقوله :

إنْ كان مِثْلُكَ كَانَ أو هُوَ كَائِنٌ فَبَرِئْتُ حينئذٍ مِنَ الإِسْلاَمِ

لم تلفت الصاحبَ بن عباد فى البيت إلا كلمة حينئذ ، فقال : إنها هنا أنفر من عنز مُـقْات ، وأنا موافقه فيما رأى ولكنى أقول : إن أس الثقل فى كلمتى كان وكائن .

هذا وأمثاله فى شعر المتنبي شذوذ غير مقصود ، لأن الرجل تأثر فيه بدراسة الفلسفة ، وترديد ألفاظها وأساليبها . ومهما يحاول المرء لعبارته الرقى فهو مأخوذ بأساليب لا يستطيع الخلاص منها ، لكثرة دورانها على لسانه وطروقها لسمعه .

أما الشذوذ المتعمل الذى كان يقصد به الإغراب ، ويروى فيه عن تلك الروح المتمردة على النظام ، النافرة من العادة ، فذلك كثير فى كلامه .

فمن ذلك استعماله الكلمات التى هى من التوغل فى الغرابة بحيث قل أن تجدها فى شعر جاهلى من شاعر معروف بعنجهيته ، وليس معقولا أن تكون هذه الكلمات وردت فى شعر المتنبى ، من فرط علمه باللغة وإحاطته بغريبها ومألوفها ، حتى اشتبها عليه واستويا فى نظره . ولكن الشذوذ هو الذى جعله يحرص على جمع تلك الكلمات وتفريقها فى شعره ، حتى يلتفت الناس إليه . ويشغلوا به ، ومن ذلك كلمة ابتشاك بمعنى كذب فى قوله :

وَمَا أَرْضَى لِمُقْلَتِهِ بِحُلْمٍ إِذَا انتبهت ْتَوَهَّمَهُ ابْتِشَاكا

قال الثعالبى : « لم أسمع فى هذا اللفظ شعرا قديما ولا محدثا سوى هذا البيت »

ومن ذلك كلمة التوراب بمعنى التراب فى قوله :

أَيَفْطِمُهُ التَّوْرَابُ قَبْلَ فِطَامِه ويأكله قبلَ البلوغِ إلى الأكْلِ ؟

قال الصاحب : « ومن أطمِّ ما يتعاطاه ، التفاصحُ بالألفاظ النافرة ، والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء ، وغذِىّ لبن ، لم يطأ الحضَر ، ولم يعرف المدر . فمن ذلك كلمة التوراب . وليس ذلك سائغا لمثله وهو وليد قرية ومعلم صبية » .

أريد أن أنبه الذين ظنوا أن مرجع غرابة المتنبى بدويته ونشأته ، فاندفعوا يحكمون أسباب الربط بين النشأة والمصير . أريد أن أنبههم إلى أن هذا إنما كان من المتنبى تكلفا ظاهرا ، حكم به قبلنا الذين عاشروه ، فلم يستسيغوا أن يكون علمه باللغة ، ونشأته بين أهلها داعية إلى ما كان منه من هذا الإغراب ، فالصاحب يقول فى مناسبة استعمال المتنبى لآخاء جمعا لأخ فى قوله :

كُلُّ آخائِهِ كِرامُ بنى الدُّنْـــيَا وَلَكِنَّهُ كريمُ الكرامِ (١)

---

(١) يلاحظ أن البيت ورد فى الديوان « كل آبائه » ولعل ما علق عليه الصاحب رواية أخرى للبيت

لو وقع الآخاء في رائية الشماخ لاستثقل فكيف بأبيات منها :

قَدْ سَمِعْنَا ما قلتَ في الْأَحْلَامِ وَأَنَلْنَاكَ بَدْرَةً في المنَامِ

والكلام إذا لم يتناسب زَيَّفته جهابذته وَبَهْرَجته نقاده »

ومن شذوذه الذي عرف به أكثر مما عرف باستعمال الغريب ، ذلك التعقيد في الأساليب ، والالتواء في التعابير ، مما يسميه علماء البلاغة تعقيدا لفظيا ، إن كانت الجناية فيه على اللفظ ، ومعنويا إن كانت الجناية على المعنى . وهذا الشذوذ في المتنبي ، لا يكاد ينكره معجب به ، متعصب له ، مهما احتال لذلك والتمس العلل بكبر عقله ودقة فهمه .

هذان النوعان من التعقيد ، عرفا في العربية من شعراء عرفوا بالشذوذ ، وإن شذوذهم لا يقاس إلى شذوذ المتنبي . ألسنا نعثر بأمثلة من ذلك للفرزدق في قوله :

وَمَا مِثْلُهُ في الناس إلاَّ مُمَلَّكاً أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُه

وقوله :

إلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ من مُحَارِبٍ أَبُوهُ، وَلاَ كَانَتْ كليبٌ تُصَاهره

وقوله :

تَعَشَّ فإِنْ عاهَدْتَنِى لاَ تَخُونُنِى نكن مثل من يا ذئبُ يَصْطَحِبَانِ

وما أدعى أنى استقصيت ما أثر عن الفرزدق من ذلك ؛ ولكنى لا أكاد أعد له غير ما ذكرت إلا بيتا أو بيتين ، والفرزدق معروف بالشذوذ كما قلنا ، أليس هو الذي أكثر من الغريب عامداً حتى قالوا : إنه « أحيا في شعره ثلث العربية » ؟ أوليس هو الذي شذ في سرقاته فكان يغتصب الشعر من قائله ويتهدده إذا ادعاه بعد ؟ أوليس هو الذي يقول في ذلك : أحسن السرقات سرقة لا توجب حداً ؟ يريد سرقة الشعر واغتصابه .

ولسنا في صدد الحديث عن الفرزدق حتى نعد نواحي شذوذه ؛ ولكنا نقول : إنه لما كان شاذا تجلى شذوذه في تعقيده ، كذلك المتنبي شذ كثيراً ، فعقد كثيرا ،

وارتاح إلى حيرة الناس فى فهم شعره، وكثرة سؤالهم له عن مراده، ولم يستطع كتمان الغبطة بهذا؛ فقال:

أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِى عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ القومُ جرَّاها وَيَخْتَصِمُ

سيقول المحتجون للمتنبى ما شاءوا وشاءت لهم فلسفتهم، سيقولون: إن هذا كان من المتنبى فرط ذكاء، وفرط امتلاء بالمعانى، وفرط حقد على الأيام، وإنه شِنشِنة أخزم، وجمجمة موتور، ونفثة مصدور. ولكنْ، بعضَ هذا أيها المعجبون! وهوناً ما أيها المخدوعون بتمويه هذا الرجل وشعبذته، فهذا الرجل كان يسهر فى تعويج هذا الكلام وتشويه هذا النظام، حتى يلتوى على الناس فيسهروا من جرائه، ويشقَوْا بدائه. وإلا فأى حال نفسية أو داع (مهما اشتد) يحمل قائلا على أن يقول:

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فى أُحادِ لُيَيْلَتُنَا المنوطةُ بالتَّنَادِى؟

فهو يتجاوز حدود اللغة، فيستعمل صيغة أحاد وسداس الدالتين على توارد المعدود على العدد المصوغة منه، فى معنى العدد، فيريد من أحاد واحدة فقط، ومن سداس ستة فقط، وهو غير ما شرطوه فى استعمال هذه الصيغ، ثم يحذف همزة الاستفهام الداخلة على أحاد، وأصلها أأحاد، وهو كما قالوا ضرورة؛ ولكنها محتملة. ثم هو يريد من وراء كل هذا التعقيد أن هذه الليلة المتصلة بيوم القيامة تجمع ليالى الدهر كله، وكل ليلة من ليالى الدهر: أهى واحدة أم ست ليالٍ فى كل ليلة، فتكون الليلة سبع ليال أى أسبوعا.

وبعد، فاسمع الجلبة التى أثارها المتنبى حول بيته: قال الصاحب بن عباد: وهذا من عنوان قصائده التى تحير الأفهام، وتفوت الأوهام، وتجمع من الحساب ما لا يدرك بالارتماطيقى، والأعداد الموضوعة للموسيقى. وقال الواحدى: وقد أكثروا فى معنى هذا البيت ثم لم يأتوا ببيان مفيد يوافق اللفظ. وإن حكيت ما قالوا فيه طال الكلام. وقال الشيخ ناصيف اليازجى شارح ديوانه: ولعمرى ليس مثل هذا مما يدخل فى فضيلة ناثر أو شاعر، وإنما يصح التكلم به فى مقام

الإلغاز والتعمية ، لا في مقام المدح والتشبيه ، ثم هو ـ على ما فيه من غموض المغزى وبعد التأويل ـ لا يخرج عن تجشم عرَق القِربة في استنباط الغرض من معنى قوله:

مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ لَيْلِي لاَ صَبَاحَ له ... كأَنَّ أَوَّلَ يَوْمِ الْحَشْرِ آخِرُه

والفرق بين التعبيرين ظاهر .

وأي داع يدعو إلى كد الأذهان ، بَلْ إلى رَضّ الأبدان في فهم قوله :

وَكُلُّ شَرِيكٍ في السُّرُورِ بِمُصْبَحِي ... أَرَى بَعْـدَهُ من لاَ يَرَى مِثْلَهُ بَعْدِي

المصبح هنا مصدر ميمي بمعنى الإصباح ، والمعنى : إذا عدت إلى أهلي ، فسروا من عودتي إليهم، وسررت بلقائهم ،فإني لا أزال منغصا لفراق ابن العميد: لأني رأيت بابن العميد رجلا لم ير هؤلاء مثله ، لأنه لا نظير له في الدنيا ، ولا يغرنك قولنا هذا في بيان البيت ؛ فالوصول إليه عويص . أكثر الشراح من الأخذ والرد فيه .

ولا نطيل بذكر شذوذ المتنبي في هذا الباب فهو أمر شغل الناس طويلا في غير جدوى إلا حل رموز ، وتفسير رطانة .

حقيقة المتنبي

وبعد فهل كان المتنبي إلا شاعرا له محاسنه ومساويه ، فأما ما كان وما يكون حوله من دعاوى وخصومات ، فذلك شيء جسّمه الوهم وبالغ فيه ، لما كان عليه المتنبي من شذوذ في أطواره كلها ، والناس قديما متعلقون بالغرائب ، مندفعون وراء العجائب ؛ فهم إذا سمعوا بمخلوق شاذ الخلقة حجوا إليه. وبذلوا الجهد في تطلع طِلعه ، وبحثوا عن أصله وفرعه ، فلولا ما سمعناه عن المتنبي من كبره على ضيوفه ، وشموخه بأنفه على قصاد حضرته ، حتى يتخذ مجلسه أعلى من مجالسهم ، ولا يرد سلاما على قادم أو منصرف منهم ، لولا ذلك وأمثاله ما عنانا المتنبي أكثر من غيره من الشعراء ، وآية ذلك أنك ترى أكثر الحديث عنه يدور حول غرابته ، وأنواع شذوذه .

حكى لي صديق ، قال : إنه كان يوما ما من صرعى الإعجاب برجل شاذ ، هو طالب ، قضى عشر سنوات أو تزيد في أربع فرق دراسية ، وكان على كثرة الرسوب

والسقوط شامخ الأنف ، مصعر الخد ، ناظرا فى عطفيه ، قال صاحبى : وكنت أنا أحد هذه الطبقات التى مرت بهذا الطالب ، فملكتنى صلابة هذا الرسابة (إن صحت هذه الصيغة)وكنت أتفرس فيه ، وأتعرف مأتى هذه الصفاقة ، التى جعلته ضحوكا مستهينا بهذا الإخفاق ، كأنما شغله معنى أسمى من النجاح ، وغاية أكبر من نيل الشهادة فكنت (بنوع من البله) أكبر فيه هذا المعنى، وهذا الغرض الذى بدا لى أنه تعلق به ، وأقيس نفسى إليه فأجدنى متهما نفسى بالتقصير ، عاضا أصابع الندم ، لأنى خرجت من امتحان الحساب مثلا ولم أحل جميع مسائله ، وربما كان الذى فاتنى مسألة أو بعض مسألة . على حين يترك صاحبنا ورقة الإجابة بيضاء ، ويخرج يفتل شاربه ، ويسير فى حوش المدرسة . كأنه حضرة الناظر ، حين يتمشى معجبا بآثار نظامه ، وإحكام ترتيبه ، قال صاحبى : خرجت من المدرسة ، وخرج غيرى من الطبقات العشر التى مرت بهذه الصخرة الصماء ؛ وكنا نجلس على بعض القهوات، حول هذا الراسب الذى لا يذوب ولا ينحل كبره ، وكأننا نحن الراسبون وهو الناجح ، نجلس كما يجلس خلق الله . أما هو فيتصدر المجلس ، ولا يزال يحتج على سخونة الماء ، ورداءة البن ، ويستدعى صاحب القهوة وعمال المقصف والندل ، كأنما هو أمير من الأمراء ، سمح فجلس على قهوة فى باب الخلق يوما ما ، والسر العجيب أن كان هؤلاء يصيخون لإشارته، ويجيبون نداءه ، وربما طلبت أنا كوب الماء ، أو فنجانة القهوة التى سأدفع فيها قرشا مثل قرشه ، فلا يجاب طلبى إلا بعد حين، وبعد طول إلحاح ، وإذا جلسنا حول هذا الأخ فإنه يستسيغ أن يحجب وجهه عن جليسه بصحيفة يقرؤها الساعة والساعتين ، لا يهتم أن يحيي صاحبه القادم عليه بكلمة ، أو يرد على خطابه ولو بإشارة ، وإذا فرغ من الصحف ظل ناظرا فى السماء ، كأنما ركب رأسه خطأ ، فكان ذقنه فى حذاء جمجمته عرضا ، وأما شفته السفلى (وقد صيرها مشفرا بما أطال من مطها) فقد برزت نحو إصبعين عن شفته العليا ، فهو دائما «مبوز» وقد بلغ من كبره أن كان تنفسه كله زفرات وشهقات؛ فلا بد أن تسمع صوت نفسه خارجا وداخلا ، وصاعدا وهابطا .

قال صاحبى : لم يكن فى هذا المخلوق حسن يجذب إليه الإخوان ، ولا أدب

يجمع حوله الأخدان، ولا شيء مما يروق الناس فى الناس، ولكنها الغرابة والشذوذ أسَرَانى حينا، حتى فككت قيودهما عن نفسى، وسئمت منظر هذا المخلوق، ولكن غيرى لا يزال واقعا فى الأسر يجالسه ويتعلق به، ويروى غرابته وأمثلة شذوذه معجبا؛ لأنه لم يسأم بعدُ ذلك الشذوذ.

هذا شأن الناس مع كل شاذ، يجعلون العجب به فى موضع السخرية منه، والالتفافَ حوله بدل الانصراف عنه.

وأقول: لو أن شعر المتنبى أُلقىَ إلى خالى الذهن من أطواره وأحواله، لكان حكم الناظر فيه، أن المتنبى رجل من الناس، وشاعر من الشعراء، أجاد المدح أو بالغ فيه، ووصف الحروب فأبدع فى وصفها، وهجا فأمضّ وأفحش، ولكنه تغزل فكبا، ودل على خشونته وتنطع، وله إلى جانب ذلك كثير من حوشية فى الألفاظ، وتعقيد فى الأساليب.

هذا هو المتنبى، ولكن الطبول التى قرعها لنفسه، وردد الناس صداها فى عصره وبعده، هى التى ألقت فى رُوع الناس أنه شاعر لا كالشعراء، وإنسان لا كالأناسىّ.

محمود مصطفى

المرأة فى شعر المتنبى

بقلم حسن علوان

المدرس بالمدرسة الخديوية

(١) **الشعر والتاريخ :**

يرى جماعة من الأدباء ، أن يكون تراث الشاعر من الشعر ، صورة تعبر عن حياته ، وقصة تحكى تاريخه . يقرؤه الأديب فتمر على صفحات ذهنه الحوادث التى أحاطت به ، والأمانى التى كانت تعتلج فى صدره ، والمؤثرات الضاحكة أو الباكية التى لابسته . يمر به كل أولئك كما تمر أطياف القصة على سَبيبة (١) الخيالة ، كأنك تقرأ الشاعر فيوحى إليك شعره بما هو الحق من خلقه ونفسه وحياته . فإذا انطوى الشعر على عاطفة مشبوبة ، وقلب مسّته لوعة الحب ، فالشاعر فى نظرهم عاشق مدلّه ، وغزله يعبر عن الحق ، ولا ينطق عن الباطل . وإذا تحدث الشاعر عن الندى والجود ، وأفاض مزهّداً فى حب المال ، مرغّبا فى شراء الحمد والثناء ، فهو كريم معطاء ، لا يعلق غبار الشح بثيابه ، ولا يحوم طائف التقتير حول مائدته . وهذا رأى مقبول إلى حد غير بعيد ؛ لأن الشاعر لو عرف أن التاريخ من ورائه يرصده ، ويثبت فى صحائفه كل حركة من حركاته ، ويدون فيها ما قدمت يداه فى غدوه ورواحه ـ لنظر فى مرآته ، ونظم من صور الحياة ما يبدو له فى وجهها ، فاستوحى الحقيقة ، ونكب عن الكذب والبهتان ، واستبقى لنفسه من الحياة الصاخِبة الزائلة ، حياة أخرى مستقرة خالدة .

بيد أن كثيرا من الشعراء ، لم يفطنوا لعين التاريخ الساهرة ، وميزانه العدل ،

---

(١) السبيبة : الشقة الرقيقة . والمراد لوح الخيالة .

فانحرفوا عن جادّة الحق ، وصدروا عن غير ما يدور فى نفوسهم ، وما تنطق به حياتهم ، وانحدروا فى أودية الخيال الكاذب ، الذى لا تجمع خيوطه من لباب الحقيقة ، ولا يبنى هيكله من معدن النفس ، فجرّحهم التاريخ ، وصبغ بالزور والدعوى الكاذبة مآثرهم .

(٢) أبو العتاهية بين الشعر والتاريخ :

إن شعر أبى العتاهية ، يحدثنا عنه ، أنه كان يدعو الناس إلى تحرير أنفسهم من رقّ المال ، ويقرر أنه لا يملك منه إلا الذى ينفق فى وجوه الخير ، وأنه ليس يملك ما يحبسه منه ويضن به ، لأنه لم ينفقه فى مبرّة ، أو يجتن منه ثمرة ، ويستحث ذوى الثراء على المبادرة إلى الإنفاق فيقول :

إذا المرء لَمْ يُعْتِقْ من المالِ نفسَه تملَّكَه المالُ الذى هو مالِكُهْ
ألا إنما مالى الذى أنا مُنفِق وليس لى المال الذى أنا تاركُهْ
إذا كنتَ ذا مال فبادرْ به الذى يحقُّ ، وإلا استهلكته مهالكُهْ

هنا تثور حميّة التاريخ ، ويغيظه كذب أبى العتاهية ، فينشر على الناس له صحيفة سوداء مسطرة بالحرص والشح ، ويقول لهم : (إنه حبس(١) فى داره سبعا وعشرين بدرة (أو أربعمائة وخمسة آلاف جنيه) لا يأكل منها ولا يشرب ولا يزكّى ، وكان دائم الحرص دائم الجمع ، شحيحا على نفسه ، لا يشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد ، وكان له خادم أسود طويل ، كأنه محراك أتون ، يجرى عليه كل يوم رغيفين لا يشبعانه . واستشفع الخادم لدى أبى العتاهية ، بأعز أصدقائه ، لعله أن يزيده رغيفاً فأبى ، حتى أهلكه الجوع ، وكفنه فى إزار وفراش خلق) فلو ضاع سجلّ الزمان ، وسيرَ الرجال من يد التاريخ ، وبقى للناس دواوين الشعراء لقدّسوا أبا العتاهية ومجّدوه ، للأريحيّة والمروءة التى تنفجر من شعره ، وتتدفق من ثنايا قريضه .

---

(١) راجع أخبار أبى العتاهية فى الجزء الثانى من الأغانى .

(٣) تحكيم التاريخ فى الشعر :

من أجل هذا ، فإنى لا أميل إلى الإسراف فى الاعتماد على قضايا الشعر ، فى دراسة الرجال ، واستنباط أحكام منها ، تكون دستوراً للرأى ، أو رائدا للحقيقة . كما أنى لا أميل إلى أن تتنازعنا الشكوك ، وتتجاذبنا الظنون ، فيما نقرأ من شعر السالفين فيغطى سوء الظن على دَرْك ما فيه من مقاصد تهدى إلى الحق ، وتنير طريق البحث . وإنما أدعو إلى الرجوع إلى التاريخ ، واستلهام البيئة التى درج الشاعر فيها ، ومعرفة العوامل التى ألهمته ، ثم يقوم تراثه من الشعر بعد ذلك ، مقام الشاهد على ما تنطق به حوادث الزمان والمكان ، فان استبهمت صحائف التاريخ ، وعميت مسالك بيئة الشاعر ، والتبست علينا حياته فلم نستطع إلى حقيقة أمره سبيلا — استضأنا بنور العقل ، واستنجدنا بروح العصر ، فنميز زيف القول من خالصه .

وقد يكشف الشعر عن ناحية من نواحى الشاعر ، ويشف عن بعض ماطوته خفايا الأمور ، وملابسات الحياة ، فى حناياصدره ، فلم يتجاوب فى الهواء صداه ، ولم تتناوله أقلام المؤرخين ، ولكن ذاع سرُّه فى تضاعيف السطور ، وسطعت رائحته من أكمام القصائد ، كما تلمح ذلك من بعض مطالع أبى الطيب ، فى مدح كافور ، فإنها تنم عن سخرية ، وتعريض خفى ، وإن لم يكن أحد دوّن أن المتنبى عقب اتصاله بكافور قد برم به ، أو سخر منه ؛ لأنه كان إذ ذاك موصولا منه بأمل ، ومحبا له لرجاء يحققه ، وغاية ينشدها ، كما يظهر ذلك من قوله :

أُغَالِبُ فيكَ الشَّوْقَ، وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ وأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهجْرِ، والْوَصْلُ أَعجبُ
أَمَا تَغْلَطُ الأَيَّامُ فِىَّ بِأَنْ أَرَى بَغِيضاً تُنَائى ، أَوْ حَبِيباً تُقَرِّبُ ؟

وقوله :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ
وَلِلّهِ سِرٌّ فى عُلاَكَ ؛ وَإِنَّمَا كَلاَمُ العِدا ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَيَانِ

فإن من يدرس حياة كافور ، وكيف توصل إلى حكم مصر ، ويقرأ هذه الأبيات ، يكاد يوقن أن المتنبي يخفى فيها أشد العجب ، من ارتقاء مثل كافور إلى الملك ، واستوائه على عرش مصر . وقد تكون فى الشاعر نزعة قوية إلى الشعر فى جهة خاصة ، فيعرض إليها من المؤثرات ما يخمد نارها ، ويطفىء أنوارها ، ويُطغِى عليها سواها من نواحى القول ؛ إلا أن جمراتها المطمورة تحت تراب المؤثرات ، قد ترسل ومضات باهتة فى ظلام الحوادث ، ينفذ على ضوئها المتبصر إلى الوقوع على جديد فى شاعريته ، ما كان ليظهر بالنظر الطائر ، والدرس السّريع .

حكم التاريخ على شعر المتنبى :

والمتنبي من أولئك الذين صدق التاريخ ما سجل الشعر لهم من صفات كثيرة . فإن شعره ينبئك أن الحقد الذى كان يأكل صدور أولئك الذين ساموه فلا يسمون إليه ، قد جر عليه ويلات كثيرة ، وجرّعه غصص لم . وأن نفسه الطموح وروحه الوثاب ، طوّحا به فى كل قُطر ، وعرّضاه نول المهالك . وأن معايشته للملوك والأمراء ، طارت بنفسه فوق مستوى منْ اصره من الشعراء ؛ وأن انغماره فى حومة الوغى ، ووقوع الطعان والكفاح الغلاب فى أفق ناظريه هيّأ له دقة الوصف ، وأمدّاه بفيض من المعانى والتخيل ، ندرَه على إخراج صور فنية عالية ، تمتنع على من عداه . وأن تمرّده على عصره ، ندا به إلى التمرّد على شعره ، فأرسله كما يهوى ، لا كما ينبغى . وأنه بشعره بنى صرح الذى بلغ به أسباب المجد ، وشحذ السيف الدى سقاه كأس المنون . ذه الأمور كلها تتدافع إلى ذهن من يتفحص شعر أبي الطيب ، وتعلق بخاطر ن يقرأ تاريخ أبى الطيب ، فقد أدى التاريخ شهادته عليها طبق الشعر ، وأثبت رقيعه فى ذيلها .

فى شعر المتنبى صور مختلفة ، ملائمة لألوان نفسه ، تمثله أحسن تمثيل : فى بريائه وطموحه ، وتعسفه واضطرابه ، وركوبه رأسه ؛ إلا أن ناحية أخرى من

شعره ، لا نملك القول فى أنهـا كانت صدى لما يجيش بالنفس ، أو تصويراً لما يلتهب فيها من عاطفة ، ولهذا كانت مزاجا من الصبابة والتصابى ، والرقة والجفوة، والتعمل والطبع ، تلك هى ناحية المرأة ، أو ناحية التغزل بالمرأة ، وهى ناحية لا نكاد نعثر على شاعر من شعراء العربية أغفلها ، حتى المتصوفين والمتشائمين منهم: فهى من النواحى الجديرة بالنظر فى دراسة الشاعر . ونحن لا نستطيع القول . المتنبى عاش حياته ، لم ينبض فؤاده بخفقات الحب ، ولم تسكن المرأة فى شعاب قلبه ، وهو شاعر مرهف الحس ، مكتمل الانسانية ، عظيم الرجولة . غير أن التاريخ أثبت للمتنبى من الصفات التى لازمته من حداثته إلى أن لقى حتفه ، ما شغل باله ، وامتلك زمام لبه ، فلم ينفذ إلى قلبه سحر المرأة ، ولم تلتهب فيه عواطف الغرام ؛ لأن نزوعه إلى المجد ، وتطلعه إلى الرياسة لم يدع للمرأة سلطانا على قلبه ، ولم يشبّ فيه عواطف الهوى ولوافح الصبابة . هـذا إلى أن أبا الطيب كان من ذوى المبادىء ، سنّ لنفسه سياسة خاصة ، وجمع كل جهوده على تحقيقها فعاش يبتغى إليها الوسائل ، ومات ولم يفز منها بطائل ، عاش مشغوفا بالإمارة منهوما بالملك ، طلبه فى البادية فعز فيهـا طلابه ، وازدهته الخيلاء فى حضرة سيف الدولة فردّه على أعقابه ، وخُيِّل إليه أن فى كافور غفلة تتيح له أن ينتزع منه ولاية ، فرأى فى الأستاذ داهية الدواهى ، ثم غادر مصر يجرر أذيال الخيبة ، ويلتمس النجاة فى جنح الظلام ، وتيه الفيافى والقفار ، إلى أن رمت به الأقدار شريداً بين العراق وفارس ، حتى اغتاله الناقمون عليه والموتورون منه .

هذه الحياة الصاخبة الجامحة المفزّعة ، أبت على المتنبى أن يصغى إلى الحب ، وأن يستجيب إلى صوت العاطفة ، فلم يكن الغزل الصميم من الأغراض التى تشغل باله ، أو تحوك فى صدره .

غزل المتنبى بين العاطفة والتقليد :

وما أثر من غزل المتنبى ، إنما قاله محافظة على عمود الشعر ، وإيثاراً لأسلوب القدامى . لأن اقتفاءه أثر أبى تمام ، ومقامه فى البادية ، وتعصبه للعرب ، حبّبَ إليه اتباع سنن الشعراء الأقدمين . ولقد كان معظم حساده من العلماء والشعراء

يودون أن يحيد المتنبى قيد شعرة عن عمود الشعر المأثور ، فيهجموا عليه بالنقد والتجريح ، ويأخذوه بالزراية والتقبيح . ومَن أحقّ من المتنبى بإحياء سُنة العرب فى شعرهم ، وهو العربى لحماً ودما ، والبدوى ثقافة ورواية ، والمتنبى فى ظل دولة بنى حمدان العربية . لهذا كله كان يصطنع الغزل اتباعا لسنن المتقدمين لااستجابة للعاطفة ، ولا تلبية لدواعى النفس . والشعراء ـ إلا قليلا منهم ـ جرَوا على هـذه السنة فى بدء القصائد بالغزل ، حتى التزم الشعر العربى منذ وجد إلى عهد غير بعيد طريقة واحدة . ولا يخالف هذا الرأى ما ألف من شذوذ المتنبى ، فان هذا الشذوذ كان فيما يعمد إليه من الغموض والإبهام ، أو الخروج على قانون الصرف والإعراب ، لكنه كان فى الغالب محافظاً على اتباع النظام المأثور للقصيدة والخضوع إلى أحكام هذا النظام .

تلون غزل المتنبى على حسب ظروف حياته :

على أن هذه الحياة المعقدة الملونة ، أثرت فى غزل المتنبى ، وصبغته بألوانها ، كما صبغت سائر شعره ، فغزله فى صباه ، ليس كغزله بعد أن اكتمل عقله وتم نضجه ، وغزله فى مدح من يحبهم و يرضى عنهم ، يختلف عن غزله فى مدح من يزدريهم ويشنؤهم ، وإنما سيق إلى مدحهم مدفوعا برغبة الحصول على المال ، و دفع الأذى عن نفسه ، فالمتنبى فى غزله ، هو المتنبى فى سائر شعره ، فيه الغث السمين ، وفيه الذوق السليم ، والخاطر السقيم ، وفيه المعنى الشريف ، والفكر الدقيق ، والمنهج الواضح ، وغزله فى مدح سيف الدولة الحمدانى ، وعضد الدولة بويهى ، كان أقل قدرا وأكثر سقطا وسخفا من الغزل الذى قاله فى مدح كافور وأبى العشائر وأبى شجاع فاتك ، ومن إليهم من طبقة الأمراء أوالقواد الذين كانوا أقرب إلى نفسه ، وأدنى إلى مرتبته . فاذا أردنا أن نلتمس العلة لذلك أيناه فى شبابه كان يتطاول الى ما يجول فى ذهنه من المعانى ، فتقصر عن تحديدها قوالب اللفظ ، لأن ملكة النظم لم تسلس قيادها له ، ومسالك التعبير لم تذلل لقريحته ولسانه ، وقد يرفع نفسه إلى ما وراء مقدورها . ويكلف سجيته ماليس

فى طبعها ، من التأنق فى الخطاب ، وتوخى مواضع الإحسان والإعجاب ، فيقع له من السفساف ما لا يتصور أن يصدر مثله من أقل الشعراء.

والمتنبى فى صباه قد ضم ثيابه على الغرور ، وأعجب كل الاعجاب بما يبدو من خاطره ، فلا يسمح أن ينظر فيه بنقد أو تغيير ، فجاء الكثير من شعره مستغلق المعنى ، خفى الغرض ، لا لأنه كان عميق الخيال ، دقيق الفكر ، بل لأنه ضعيف التأليف ، مضطرب التعبير . ولهذا قال الواحدى : « لو طرح المتنبى شعر صباه من ديوانه لكان أولى » وسأقدم لك بينة من هذا الشعر تدعم ما أرى ، ولن ألجأ إلى ما شاع من شذوذ المتنبى . وما اشتهر من إبهامه على ألسنة الأدباء ، لأستجرك إلى التصديق ، وأبعث فيك النفور منه ، ولكن ها هى ذى أبيات فى صدر قصيدة مدح بها على بن منصور الحاجب ، واستجادها السامعون ، وأجيز عليها بدينار واحد من الممدوح ، لأنه لم يكن من الذين يستطعمون الشعر ، أو يتذوقون حلاوته. والمعنى الذى تدور عليه هذه الأبيات هو (أنه فداء الحسان اللائى رحلن عنه يخطرن فى جلابيب الحرير ، وجعلن وجناتهن الوردية تسلب عقله وقلبه ، فأسرن الشجاع الجرىء الذى كان ينهب الناس ، فأصبح نهبا لهؤلاء الحسان . إنهن يحيين بوصالهن ، ويقتلن بهجرهن ، ويظهرن غرائب الدلال ، وقد أردن أن يقلن لى وهن مرتحلات : تفديك نفوسنا ، ولكنهن خفن عين الرقيب ؛ فأشرن إلى ذلك بوضع أيديهن على صدورهن . لقد كنت أخشى على ثغورهن أن تذوب من حر أنفاسى ، فلما ارتحلن عنى . ذبت من الشوق إليهن) هذا موجز قصته فى هذه الأبيات :

بأَبِي الشُّمُوسُ الجَانِحَاتُ غَوَارِبَا ... اللَّابِسَاتُ مِنَ الْحَرِيرِ جَلَابِبَا !
الْمُنْهِبَاتُ عُقُولَنَا وَقُلُوبَنَـــا ... وَجَنَاتِهِنَّ النَّاهِبَاتِ النَّاهِبَا
النَّاعِمَاتُ ، القَاتِلَاتُ ، الْمُحيِيَا ... تُ ، الْمُبْـدِيَاتُ مِنَ الدَّلَالِ غَرَائِبَا
حَاوَلْنَ تَفْـدِيَتِى ، وَخِفْنَ مُرَاقِبًا ... فَوَضَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ فَوْقَ تَرَائِبَا
وَبَسَمْنَ عَنْ بَرَدٍ خَشِيتُ أُذِيبُـهُ ... مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِى ، فَكُنْتُ الذَّائِبَا !

وهى خواطر شاب يغريه من المرأة جلبابها ، ووجناتها ونعومتها ، لم يبتكر فيها جديداً ولم يجاوز بها نوازع الشباب ، والافتتان بجسم المرأة واحمرار وجناتها ، تمر منها على أفكار سطحية . لا تَنِدُّ عن أذهان من تعودوا نظم الكلام ، وصبه فى مسالك البحور والقوافى ، ولا تهب منها ريح الخيال الرائع . لا تسمع فيها خفقات قلب محب ، أو عاطفة نفس حساسة . وهى أبيات خمسة فيها سِلع رخيصة لا تروج فى سوق الشعر ، ولا يقبلها ذوقه ، فإن الثقل والابتذال يجثمان منها على صدر القارىء من (جلابيا ، وكنت الذائبا) وإن إبهام المعنى ، وكدّ الذهن فى الوصول إليه ، يذهب بصبره حينما يقرأ :

المنهباتُ عُقُولَنَا وَقُلُوبَنَا وَجَنَاتِهِنَّ النَّاهِبَاتِ النَّاهِبَا

وإن تكرار ، منهبات ، وناهبات ، وناهبا ، فى بيت واحد يبغّضُ إليك الشعر وصناعته ، وقراءته وكتابته ، ولولا أن مثل هذه الأبيات تتوشح باسم المتنبى ، ويحيط بها هالة من صيته وجلاله - لما رُزقت بقاء ، ولذهبت كما يذهب الزبد جفاء . ولقد كنا نلتمس المعاذير للمتنبى فى مثل هذا الإسفاف والالتواء والغموض والإبهام ، لو أنه حاول معنى دقيقا ، أو عالج خيالا عميقا ، فاستعصى عليه اللفظ ، ونفر منه البيان ، ولكن ، أى عذر لمن يُرَدد هذه المعانى التافهة ، ويلقى عليها الغموض بسوء أدائه ، وضعف أسلوبه ؟

تأثير أبى تمام فى غزل المتنبى :

ولقد أساء المتنبى فى شبابه إلى شعره ؛ لاتباعه سنن أبى تمام ، وتوخى طريقته ، وترسم آثاره ، والطبع على غراره . لأن شهرة أبى تمام فى هذا العهد قد طبقت الآفاق ، وملأت سمع الزمان ، ومنزلته بين أهل اللغة والأدب فى هذا العصر ، لا يطمح إليها إلا كل بعيد الهمة ، فسيح أفق الأمل ، كالمتنبى . ومن ذا يتعلق بأذيال الشهرة ، ويركب إليها ظهر كل شموس وذلول غير المتنبى ؟ لقد كان أبو تمام يتحذلق فى أسلوب الخطاب ، ويرسل فيه صوت الطبل ؛ خصوصا فى مطالع القصائد .

وكان مولعا بالتنقيب عن حوشيّ الألفاظ ، والبحث فى زوايا الإعراب ، فيثير منها الصيغ الشاذة ، والتراكيب الجافية ، ثم يتخذ من البديعيات والزينة اللفظية مراهم تلين هذه الجفوة ، وتخفف من وقع هذه الكزازة ، فأراد المتنبى أن يكون كذلك ، حتى يقول الناس : إن أبا تمام بعث من مرقده ، فى أسلاخ المتنبى وأجلاده ، فاشتد طلبه للصنعة اللفظية ؛ اقتداء بأستاذه . إلا أن المتنبى لم يكن فى سجيته قبول هذا المسلك ، لما كان عنده من بداهة الخاطر ، وحدة البادرة ، فأضرّ به التكلف والتعمل ، وسنعرض عليك صوره غزلية من قصيدتين متحدتين فى الوزن والرويّ ، ترى فيها مقدار ما أساء المتنبى إلى طبعه ، وأزرى بشاعريته ، حينما قسرها على التقليد ، وهبط بها فى مهوى المحاكاة :

قال أبو تمام يمدح أبا المغيث موسى ، بعد هجائه : —

أَقَشيبَ ربعهمُ أراك دريسا ... وقِرَى ضيوفك لوعةً ورسيسا
ولئن حُبستَ على البلى ـ لقداغتدى ... دمعى عليك إلى الممات حبيسا
قِدماً ، كأن أُميْمَ كانوا ساكنا ... لك ، والعماليق الألى ، وجَديسا
وأرى رسومك موحشات بعدما ... قد كنت مألوف المحل أنيسا
وبلاقعاً ، حتى كأن قطينها ... حلفوا يمينا أخلقتك غموسا
أترُى الفراق يظن أنى ذاهل ... عنه ، وقد لمستْ يداه لميسا
رُود ، أصابتها النوى من خُرَّدٍ ... كانت بدور دجُنَّةٍ وشموسا
بيض يُدِرْنَ عيونهن إلى الصبا ... فكأنهن بها يدرن كئوسا
وكأنما أهدى شقائقَه إلى ... وجناتهن ضحَى أبو قابوسا
قد أوتيت من كل شيء بهجة ... ودَدًا ، وحسنا فى الصبا مغموسا
لولا حداثتها ، وأنى لا أرى ... عرشا لها ، لظننتها بلقيسا

ماذا تسمع من هذا الشعر ، وماذا ترى ؟ تسمع قعقعة ولا ترى طحنا ، يطرق سمعك جرس « دريسا ، وريسا ، وبلاقعا ، والعماليق الألى ، وجديسا ، وبدور دجنة ، وشموسا » . فتظن أنك تسمع شيئا ، فإذا سكن هذا الطنين حول

مسمعك ، فلن تجد شيئا . وكان أبو تمام رجلا فخلا ، زاخر البحر . لا يعظم عليه أن يقيم لك الدنيا ويقعدها بألفاظه ؛ إذا كان ممدوحه لا يملأ نفسه ، ولا يدخل فى قلبه ، وهذا أبو المغيث ، قد لطّخه أبو تمام بهجائه ، وأقذع فى تجريحه ، ثم عنّ له أن يسترضيه ويمدحه ؛ ليُصلح من نفسه ، ويستل من ضغنه . فدق عليه طبول الألفاظ ، ورعود الأساليب ؛ لأن المعانى لا تصدقه ، والخيال لا يواتيه . ولقد أراد السيد المتنبى أن يعارض أبا تمام فى هذه القصيدة فى مدح محمد بن زريق الطرَسوسى فقال :

هَذِى ، بَرَزْتِ لَنا ، فَهِجْتِ رَسِيسَا ... ثُمَّ انْثَنَيْتِ ، وَمَا شَفَيْتِ نَسِيسَا
وَجَعَلْتِ حَظِّى مِنْكِ حَظِّى فِى الكَرَى ... وَتَرَكْتِنِى لِلفَرْقَدَيْنِ جَلِيسَا
قَطَّعْتِ ذَيَّاكِ الخُمَارَ بِسَكْرَةٍ ... وَأَدَرْتِ مِنْ خَمْرِ الفِرَاقِ كُئُوسَا
إِنْ كُنْتِ ظَاعِنَةً ـ فَإِنَّ مَدَامِعِى ... تَكْفِى مَزَادَكُمُ ، وَتُرْوِى العِيسَا
حَاشَا لِمِثْلِكِ أَنْ تَكُونَ بَخِيلَةً ... وَلِمِثْلِ وَجْهِكِ أَنْ يَكُونَ عَبُوسَا
وَلِمِثْلِ وَصْلِكِ أَنْ يَكُونَ مُمَنَّعاً ... ولمثل نَيْلِكِ أَنْ يَكُونَ خَسِيسَا
خَوْدٌ جَنَتْ بَيْنِى وَبَيْنَ عَوَاذِلِى ... حَرْباً ، وَغَادَرَتِ الفُؤَادَ وَطِيسَا
بَيْضَاءُ يَمْنَعُهَا (تَكَلَّمَ) دَلُّهَا ... تِيهاً ، وَيَمْنَعُهَا الحَيَاءُ تَمِيسَا
لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِى عِنْدَهَا ... هَانَتْ عَلَىَّ صِفَاتُ جَالِينُوسَا

ما كان أغناك يا أبا الطيب عن التردى فى حفرة التقليد ، لقد أصبحت غرابا وأنت قطاة ، إن لك من حدة الذهن ، وسجية النفس ، وسرعة الخاطر ما يلبسك ثوب الشاعر ، فكيف تسير فى فيافى أبى تمام ، وتسرى فى دجاه ، وهو الذى لقح الشعر فى زمانه بلقاح الفساد ، وأفشى فيه جراثيم الصناعة ، لقد طرت فى جوه فلم ترتفع إلى سمائه ، وإن كنت فى قصيدتك أبين منه شاعرية ، وآنسَ

لفظا ؟ ولكنك أسففت وتفلسفت ، فسقطتَ وجاوزت حد المألوف فى نظم الكلام ، حينما قلت : « خسيسا ، وتَميسا ، وجالينوسا » ولقد كنت سخيفا السخف كله ، فازريت بعبقريتك وحكمتك حينما قلت :

حَاشَا لمثلكِ أن تـكونَ بخيلةً ... وَلِمثلِ وجهكِ أن يكونَ عبُوسَا
وَلِمِثلِ وَصلِكِ أن يكونَ مُمَنَّعًا ... وَلِمثلِ نيلِكِ أنْ يكُونَ خَسِيسَا

أى « شويعر أو متشاعر » ـ كما يقول المتنبى ـ يعظم عليه أن ينظم مثل هذا الكلام فى فتوره وفسولته وتفاهته ؟ .

وإنا لنغمط المتنبى حقه ، إذا قلنا : إن كل غزله فى صباه ضربت عليه الصناعة والتعمّل رواقا ستر بهاءه ، وذهب بجماله ، أو قلنا : إن كل غزل جال بخاطره فى صباه لم يفصح عنه لفظه ، أو لم تتحمله عبارته فسارت فيه الظنون . تخبط فى بيداء الحدس والتخمين . وإن لأبى الطيب فى الشباب لغزلاً ، لايدرك مداه فى السلاسة والانسجام ، وتصوير إحساس النفس وعواطفها ، تصويرا صادقا ؛ لأنه تحاشى فيه التقليد ، وَسارَ وراء طبعه ، فجاء مثلا كاملا للفصاحة والفن ، كقوله :

عَزِيزٌ إسًامَنْ دَاؤُهُ الْحَدَقُ النُّجْلُ ... عَيَاءٌ بِهِ مَاتَ الْمُحِبُّونَ مِنْ قَبلُ
فَمَنْ شاءَ فَلْيَنْظُرْ إلَيَّ ، فَمَنْظَرِى ... نَذِيرٌ إلَى مَنْ ظَنَّ أنَّ الْهَوَى سَهْلُ
وَمَا هِىَ إلاَّ لَحْظَةٌ بَعْدَ لَحْظَةٍ ... إذَا نَزَلَتْ فِى قَلْبِهِ رَحَلَ الْعَقْلُ
جَرَى حُبُّهَا مَجْرَى دَمِى فِى مَفَاصِلِى ... فَأَصْبَحَ لِى عَنْ كُلِّ شُغْلٍ بِهَا شُغْلُ
سَبَتْنِى بِدَلٍّ ذَاتُ حُسْنٍ ، يَزِينُهَا ... تَكَحُّلُ عَيْنَيْهَا ، وَلَيْسَ بِهَا كُحْلُ
كَأَنَّ لَحَاظَ الْعَيْنِ فِى فَتْكِهِ بِنَا ... رَقِيبٌ تَعَدَّى ، أوْ عَدُوٌّ لَهُ دَخْلُ
وَمِنْ جَسَدِى لَمْ يَتْرُكِ السُّقْمُ شَعْرَةً ... فَمَا فَوْقَهَا ، إلاَّ وَفِيهَا لَهُ فِعْلُ
إذَا عَذَلُوا فِيهَا ، أَجَبْتُ بِأَنَّةٍ : ... حُبَيِّبَتَا ، قَلْبَا ، فُؤَادَا ، هَيَا جُمْلُ

كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكِ سَدَّ مَسَامِعِى ... عَنِ الْعَذْلِ، حَتَّى لَيْسَ يَدْخُلُهَا الْعَذْلُ
كَأَنَّ سُهَادَ اللَّيْلِ يَعْشَقُ مُقْلَتِى، ... فَبَيْنَهُمَا فِى كُلِّ هَجْرٍ لَنَا وَصْلُ
احِبُّ الَّتِى فِى الْبَدْرِ مِنْهَا مَشَابِهٌ ... وَأَشْكُو إِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

ألا ترى أنك حينما تقرأ هذه القطعة ثم تقرأ القطعة السينية السابقة ، تزعم أن المتنبى قد لبس بردين ، وتقمص شخصيتين ، وأنه فى القطعة الأولى من سُرَّاق القوافى ، المتطفلين على موائد غيرهم ، والمنتحلين للصبابة والغرام ، وأنه من الذين يقيمون هيكل القصائد من أحجار صماء ، لاحياة فى جسمها ، ولا ماء فى وجهها ؟ هذا إلى فساد المعنى ، واضطراب المبنى ، وغثاثة اللفظ ، وسقم الأداء . وهو فى القطعة الثانية محب تجده صادق الحب ، يصدر عن معين النفس وفيض الخاطر . وينساب منه القول ، انسياب العذب الزلال الصافى على حصباء كالدرر ، فهذى ساحرة بصفاتها ، وتلك فاتنة ببياضها . وقد أجرى قصة هذه الأبيات حول اللحاظ الفاتكة ، والأحداق القاتلة ، التى أصابته فأردته ، وامتزجت نصالها بلحمه ودمه ، فاصبح أسيرا لها ، مشغولا بها عن سواها ؛ حتى احتل السقم كل جزء من جسمه ، وأصبح اللحظ شديد السطوة ، قوى الشِّرة ، كأنه الرقيب يقتحم المنزل ، ويهتك الستر على حين غفلة ، أو العدو تثير الريبة حفيظته ، وتبعث نقمته ، وهو إلى هذا العذاب الذى يلقاه من سهام طرفها ، لا يسمع فيها لوم عاذل ، أو قول كاشح ، ولكن الأنين الذى ينبعث من أعماق قلبه ، وصميم نفسه ، يهتف بفؤاده وبحبيبته ؛ لأن كليهما ممتزج بالآخر امتزاجا ، لا يفصله عذل أو ملام ، فكأنها سيطرت على كل حواسه ، فسدّت عن العذل مسامعه ، وحالف السهد مقلته ، وهو لم يذكر لك منها غصن البان ، والردف الثقيل ، والخصر النحيل ، ولم يذق رضا بها ولم تطربه منها وسوسة السوار والخلخال ، إلى غير هذه الأوصاف الجسمية التى تقرؤها لأدعياء الشعر ، كأنهم يصفون دمى الشمع فى حانوت مثال ، ولكنها ألوان النفس ، وخفقات القلب ، ورواية الحب العف البرىء ، ساقها فى لفظ حر وعبارة مصقولة ، هى السحر أو أعذب ، لا ترى

فى قوافيها قلقا ولا ضعفا ، ولا فتورا ولا نفورا . فعلى هذا نستطيع بحق أن نقول : إن المتنبى يسف ويسف ، ويتخبط فى غزله ويضعف . إذا حاول الصنعة أو جنح إلى التقليد ، ويسمو ويجيد ، ويقوى ويستقيم ، ويأسر ويبتكر ، إذا أطلق لسجيته العنان ، وجرى وراء خاطره . ومشى فى ركاب طبعه .

ليقل من شاء : إن الحب لم يخامر قلب المتنبى ، وليقل من شاء : إنه كان غير مفتون بالمرأة ؛ بل إنه كان يزدريها ويزنها وزن المتاع الرخيص ، ولكن ليس لأحد أن ينكر أنه فى أحيان كثيرة يصنع من الغزل ما يحملك بعد قراءته ، على أن توقن بأنه الفن والابتكار ، وغاية القدرة على الصقل والإخراج ، حتى لتظن أنه ممزوج بروح العاطفة ، وأن شاعريته سمت به عن جو الصبابة والغرام ، إلى سماء الوحى والإلهام ، وما علينا إذا كان المتنبى أحب أو لم يحب ، ما دمنا نقع فى كثير من غزله على أدق تصوير للعاطفة ، وأرق ما يفيض به شعور المحبين .

وقد تتجاذبه الصنعة المتكلفة والطبع النقى ، فترى له فى بيتين متتاليين حنظلة إلى سكرة ، أو حصاة إلى جوهرة ، على أنه مما يدعو إلى العجب أن يتوج المتنبى كثيرا من غرر قصائده وطرائف غزله بطلاسم ومعميات ، ولعل هذه الظاهرة سرت اليه من تأثره بأبى تمام كما نوهنا : اقرأ البيت الأول من القصيدة التالية واقرأ البيت الثانى منها ، فلن تجد بينهما قرابة أو صلة ، فالأول لغز مقفل ،لا رابطة بين عروضه وضربه ، ولا قوة فى نسجه وسبكه ؛ على حين ترى البيت الثانى يهتز فرحا ومرحا فى شطره الأول ، و يتماسك رصانة وجزالة فى البيت الثانى ، وبينهما رباط قوى ، من اتصال متين ، ومعناه فى لفظه يرغمك على أن تسمعه ، ومالى أطيل عليك القول فى الشرح والتعليق ، وتلك أبياته التى أعنى :

جَلَلاً كمَا بِى فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ ... أَغِذَاءِ ذَا الرَّشَإِ الْأَغَنِّ الشِّيحُ ؟

لَعِبَتْ بِمِشْيَتِهِ الشَّمُولُ ، وَغَادَرَتْ ... صَنَمًا مِنَ الْأَصْنَامِ ، لَوْلَا الرُّوحُ !

مَا بَالُهُ ؟ : لَا حَظْتُهُ فَتَضَرَّجَتْ ... وَجَنَاتُهُ ، وَفُؤَادِىَ الْمَجْرُوحُ

وَرَمَى ، وَمَا رَمَتَا يَدَاهُ ، فَصَابَنِي سَهْمٌ يُعَذِّبُ ، وَالسِّهَامُ تُرِيحُ
قَرُبَ الْمَزَارُ وَلاَ مَزَارَ ، وَإِنَّمَا يَغْدُو الْجَنَانُ ، فَنَلْتَقِي ، وَيَرُوحُ
وَفَشَتْ سَرَائِرُنَا إِلَيْكَ وَشَفَّنَا تَعْرِيضُنَا فَبَدَا لَكَ التَّصْرِيحُ
لَمَّا تَقَطَّعَتِ الحُمُولُ تَقَطَّعَتْ نَفْسِي أَسًى ، وَكَأَنَّهُنَّ طُلُوحُ
وَجَلاَ الوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِنًا حَسَنُ الْعَزَاءِ ـ وَقَدْ جُلِينَ ـ قَبِيحُ
فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ ، وَطَرْفٌ شَاخِصٌ وَحَشًا يَذُوبُ ، وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ
يَجِدُ الْحَمَامُ ، وَلَوْ كَوَجْدِي لاَنْبَرَى شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الحمَامِ يَنُوحُ

إنه فى البيت الأول يريد أن يقول ، ليكن تبريح الهوى و ما يلقى العاشقون من جهده وأذاه شديداً عنيفا مثل ما ألقى منه ، وإلا فليس فيهم عاشق مثلى . أفتظنون هذا الرشأ الذى أحبه يتغذى كما تتغذى غزلان الصحراء بنبات الشيح ؟ كلا ، إنه يأكل من قلبى ويتغذى بفؤادى حتى أنحلنى وأمرضنى ، فانظر أى مناسبة بين مصراعى هذا البيت ، وأين موضعهما من بداهة أبى الطيب ؟

ولا يفوتنا ـ قبل أن نغادر غزل المتنبى فى صباه ـ أن نذكر له قدرته على تصوير مواقف الوداع ، وعبث الشباب ، ولوعة الغرام ، تصويرا دقيقا ، يجمع شتى المعانى فى بيت واحد ، و يطويها تحت كلمات قليلة ، وينتقى لها من الألفاظ الموسيقية ما يلائم طبع الموقف الذى يصوره ، ويصوغها فى مقاطع مرقصة ، ونبرات تهز المشاعر وتنعش النفس ، تقرؤها فكأنك تمر على قصة طويلة ذات فصول وأحداث ، فتؤمن بان المتنبى فى مثل هذه الأبيات شاعر روائى ، ومصور موسيقى ، يحكى أن المتنبى برح به الحب ، وأذوى عوده الوجد ، حتى انبرى جسمه ، واصفر وجهه ، فلما بصرت به محبوبته على هذه الحال ، أنكرت ما به ، وجزعت لمصابه ، وتساءلت فى غيظ وإشفاق : ترى ، من الجانى المتجرم الذى صيره إلى ما أرى ، وأصابه بما أذهلنى ؟ ثم أرسلت من فؤادها زفرات مستعرة حرّقت كبدها جزعا عليه

ورحمة به ، فاجابها المتنبي فى ذلة وانكسار ، وقد أنكر جزعها ، واستشفع بحاله اليها : إن من جنى على السقم والنحول هو من يعجب لحالى ، و يشفق مما بى ، هو أنت يا قاتلتى! إن بدع المتنبي وإعجازه يسوق اليك هذه القصة كاملة فى بيت واحد:

قَالَتْ ـ وَقَدْ رَأَتِ اصفِرَارِى ـ مَنْ بِهِ ؟ وَتَنَهَّدَتْ ، فَأَجَبْتُهَا : الْمُتَنَهِّدُ !

وقد أراد مرة أن يحكى امتناع ظبيته عليه ، ونفورها منه، وأنه إذا ضاق ذرعا بقنصها فنفر منها ، وانتبذ مكانا بعيدا منها ، دنت منه لتخدعه ، وتوقعه فى شركها ؛ فإذا هم أن يدنو منها نفرت هى منه وهربت من بين يديه ، فاذا أراد مداعبتها أجفلت وجفت ، واذا هم أن يقبلها أبت وامتنعت . هذه الصورة العابثة الماجنة الحائرة المستهتَرة يصورها لك المتنبى فى قوله :

أَنْأَيْتُهُ فَدَنَا ، أَدْنَيْتُهُ فَنَأَى جَمَّشْتُهُ فَنَبَا ، قَبَّلْتُهُ فَأَبَى !

أرأيت جرس المقاطع ، وحسن المطابقة والمقابلة ، كيف وقع فى موضعه وحل فى مكانه ؟ وكيف اختار أرق الألفاظ وأسهلها على السمع ، ليصور بها موقف العبث واللهو ، وكيف أنها تطرب و ترقص من لا يرقص ؟

هات الراسمة وخذ متحابين فى موقف وداع ، فيد إلى يد تقبض كل منهما على الأخرى بحرارة وتحرق ، وعين إلى عين ، تقرأ كل منهما فى الأخرى لوعة البين وتباريح الفراق ، وهات أشعة « إكس » لترى بها كيف تصطلى الأحشاء بنار الغرام، ثم هات منديلك وامسح عن عين كل منهما عبرة تترقرق ، ودمعة تتحدر ، هات كل أولئك ، فلن تبلغ فى دقة تصوير الموقف ما بلغ المتنبى بقوله :

فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ ، وَطَرفٌ شَاخِصٌ وَحَشًا يَذُوبُ ، وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ

هناك من المعانى ما يدور فى كل خاطر ، ومن الأشباح ما يقع أمام كل ناظر ، ولكن لأبى الطيب افتنان ومهارة ينفثان السحر فى معانيه البدهية ، فيجعلها جديدة طريفة ، شديدة الوقع ، عذبة اللحن فى أذن السامع كقوله :

نُعْجٌ مَحَاجِرُهُ ، دُعْجٌ نَوَاظِرُهُ   حُمْرٌ غَفَائِرُهُ ، سُودٌ غَدَائِرُهُ

ما ذا فى هذا البيت ، غير أنها بيضاء المحاجر ، سوداء النواظر ، حمراء القناع ، فاحمة الشعر ؟ ولكن الجمال فيه جاء من السبك الحسن والموسيقى البديعة .

غزل المتنبى فى مدائح سيف الدولة :

اذا سمعت أن سيف الدولة رفع أبا الطيب مكانا عليا ، لم يبلغه سواه من الشعراء ، وأنه أفاض عليه الخير وأغدق عليه من العطاء ، وأنه ترك غرائزه تتنفس بالتيه والخيلاء ، فكان ينشده جالسا ويلزمه فى حله وترحاله ، ويقاسمه طعامه وشرابه ، ويشهد سراءه وضراءه ـ ظننت أن الفنّ والإجادة والطبع ، والقدرة على التصرف بأزمة الكلام ، لزمت شعر أبى الطيب فى هذا العهد وعلى الأخص غزله ونسيبه ، فإذا مضيت فى قراءة مدائح سيف الدولة سبق إلى ذهنك خواطر ثلاثة : ـــ

« أولها » التحرر من الغزل فى مطالع معظم مدائحه ، والهجوم على المديح فجأة فى كثير منها .

« ثانيها » ظهور الصنعة والتكلف ، والخروج إلى ما وراء الطبع والسجية فى هذا الغزل القليل ، وصوغه من الألفاظ ذات الطنين ، التى لا تشتف منها معنى رقيقا أو خيالا عميقا ، ولا تدرك فى جرسها اتساقا أو انسجاما .

الخاطر الثالث : دوران الألفاظ البدوية ، فى كل غزل تقدم مدح سيف الدولة وهذه الألفاظ لا تكاد تراها بتلك الكثرة إلا فى شعر الجاهليين : كالطلل والركب ، والربع والرسم ، والسحاب والرياح ، والوحش والآرام ، والظاعنين والدمن والعرصات والأكوار . وهذه الملاحظات التى تبدو للقارىء فى مدائح أبى الطيب لسيف الدولة ، تدعو إلى النظر ، والتماس العلة ، لأن أبا الطيب ـ كما قلت ـ من الذين يؤثرون النسج على منوال الشعر المأثور ، وهو الذى يقول « إذا كان مدح فالنسيب المقدم » فما باله يجنح عن طريقه ، ويميل عن مبدئه ؟ لحق أن أبا الطيب لم يكن قرير العين ، ينام ملء جفونه عن شوارد القوافى ـ كما

يزعم - وهو فى صحبة سيف الدولة ؛ ذلك بانه كان يقف بباب سيف الدولة ، عند اتصال المتنبى به ، أفاضل العلماء والأدباء والشعراء ، وكلهم حاقد عليه ، لمكانته من الأمير ، وكلهم ملتمس للهنات والسقطات فى شعره ؛ هذا إلى أن سيف الدولة نفسه كان أديبا شاعرا ، وأن كثيرا من أهل بيته كانوا أدباء وشعراء ، ومنهم من كان يفوق المتنبى فى شعره أحيانا ، ويعرض لشعره بالنقد والتزييف ، كأبى فراس ، فكانت هذه الأمور كلها تحمل المتنبى على كد ذهنه ، وشحذ قريحته ، والمبالغة فى التحرى ، وقسر الألفاظ على ما لا تحتمل من المعانى ، وضغط المعانى تحت ماتكره من الألفاظ ، فتنقلب سجيته صنعة وتكلفا ، ويتورط فيما كان يتوقاه ويدل الناس على عيبه ، ويمهد لهم سبيل نقده . وكان خصوم المتنبى يرغبون فى إحراجه ، فيعمدون إلى الاقتراح عليه أن يمدح سيف الدولة لحادثة تطرأ ، أو أمر يحدث ، فلا يسعفه الزمن ، ولا تنيله القريحة مايريد ، من غزل أو تشبيب ، فيدعو هذا وذاك إلى المديح رأساً ، أو التعرض لذكر الحرب أو الطرد ، أو التعريض بحقد خصومه عليه ، فيعرض مكرها عن الغزل والمديح ، إلى الغرض المقصود . ولقد كان أبو الطيب مفتونا بالبداوة ، شديد الاعتزاز بالعروبة ، وكان سيف الدولة هو الباقى من فلول القوة العربية ، وعليه تعقد الآمال ، وبه يناط الرجاء فى إعادة ما اندثر من مجد قومه ، والتسلط على ما تمزق من ملكهم ، فكان المتنبى يشوق فؤاد سيده بذكر الصحراء وما إليها ، مما يرتبط بقومه ، ويتصل بعهدهم السالف . ليبعث فيه حمية العصبية ، فيذكر الدمن والأطلال ، والركب والآرام ، فلم يوفق المتنبى لارضاء الفن ، لأن المؤثرات التى كانت تحيط به ، وضعته تحت عوامل ترضى الظروف ، وتغضب الشعر ، وتدل على القدرة على نظم الكلام ، وطول البال وسعة الاطلاع على مفردات اللغة ، ولكنها لا تدل على روح شاعر أو طبيعة موهوب ، فأين تشبيبه فى مدح الأمير أبى الحسن بن طغج ، قبل أن يتصل بسيف الدولة ، وقبل أن ينتشر فى الآفاق صيته حيث يقول : —

دِيَارُ اللَّوَاتِى دَارُهُنَّ عَزِيزَةٌ ... بِطُولَى القَنَا يُحْفَظْنَ ، لا بالتمائمِ
حِسَانُ التَّثَنِّى ، يَنْقُشُ الوَشْىُ مِثْلَهُ ... إِذَا مِسْنَ فِى أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ

وَيبسِمْنَ عَنْ درٍّ تقلَّدنَ مثله كأَنَّ التَّرَاقِ وُشِّحَتْ بالمبَاسمِ

أين هذا من غزله فى مدح سيف الدولة حيث يقول :

بلادٌ إذَا زَارَ الحِسَانَ بِغَيْرِهَا حَصَى تُرْبِهَا ثَقَّبْنَهُ لِلْمَخَانِقِ

سَقتنِى بِهَا القُطْرُبُلِيَّ مَلِيحَةٌ عَلَى كَاذِبٍ مِنْ وَعْدِهَاضَوْءِصَادِقِ

سُهَادٌ لأَجفَانٍ ، وَشَمْسٌ لِنَاظِرٍ وَسُقْمٌ لأَبْدَانٍ ، وَمِسْكٌ لِنَاشِقِ

وَأَغْيَدُ يَهْوَى نفسَهُ كلُّ عاقلٍ عَفِيفٍ ، وَيَهْوَى جِسْمَهُ كلُّ فَاسِقِ

فى أول بيت من القطعة الأولى ، يتغنى بأن ديار من يحبهن عزيزة منيعة ؛ تحميها الرماح الطويلة ، لا التمائم والعوذ ، فهـذا معنى شريف فى لفظ ظريف ، وسبك رصين .

وفى البيت الأول من القطعة الثانية ، حيث يمدح سيف الدولة ، يتغنى بأن هذه البلاد إذا حمل حصاها إلى النساء الحسان فى بلد آخر ، جعلنه قلائد ؛ لحسنه ونفاسته . فأين هذا المعنى من الذى قبله ؟ وأين التعقيد والالتواء والخفاء فى هذا البيت ، من وضوح أبلج مثل غرة الصبح ، وأشهر من شمس النهار فى البيت الذى قبله ؟ وأين الخيال الرائع والأنوثة الفاتنة ، والانسجام العـذب الذى يلقاك حينما تقرأ :

حِسَانُ التَّثَنِّى يَنقُشُ الْوَشْىُ مِثْلَهُ إِذَا مِسنَ فِى أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ

وَيَبْسِمنَ عَنْ دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مِثْلَهُ كَأَنَّ التَّرَاقِى وُشِّحَتْ بِالْمَبَاسِمِ

ألا ترى أن « التثني والوشى والدر والتراقى والمباسم » كلمات خلقت للغزل وصيغت من معدن الرقة . فإذا وضعتها إلى جانب ما فى الأبيات الأخرى من « قطر بلى وكاذب وناشق وعاقل وفاسق » أيقنت أن المتنبى غير شاعر فيها وأنه يصدر عن غير طبع . وأكثر ما قال فى سيف الدولة من غزل لايخلو كما قلت من الألفاظ البدوية كقوله :

ذِكْرُ الصِّبَا وَمَرَاتِع الآرَامِ جَلَبَتْ حِمَامِى قَبلَ وَقْتِ حِمَامِى

دِمَنٌ تكاثَرَتِ الهمومُ علَىَّ فى عرَصاتها كتكاثُرِ اللُّوَّامِ
وَكَأَنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَقَفَتْ بِهَا تبكِى بعَينَىْ عُرْوَةَ بْنِ حزَامِ

ومما يسترعى النظر ، أن غزله فى مدح ابن العميد كان سخيفا ، فقد كان يعلم أن ابن العميد أديب شاعر ، وكان هذا العلم يخرجه من طبعه ، إلى التكلف الممقوت ، والصناعة الرخيصة .

وكان يمدح عضد الدولة أيضا مكرها متكلفا ؛ لكراهته الفرس .

وإليك قصيدة قالها يمدح سيف الدولة ، وهو فى الكوفة ، بعد عودته من مصر ، وهى قصيدة تفيض رقة وسلاسة وحمية واشتياقا ، لأن البعاد أثر فيه ، والأيام نالت منه ، والغربة هذبت من شموسه وهى :

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوٍ يَا رَسُولُ ؟ أَنَا أَهْوَى ، وَقَلْبُكَ الْمَتْبُولُ !
كُلَّمَا عَادَ مَنْ بَعَثْتُ إِلَيْهَا غَارَ مِنِّى وَزَادَ فِيمَا يَقُولُ
أَفْسَدَتْ بَيْنَنَا الأَمَانَاتِ عَيْنَا هَا وَخَانَتْ قُلُوبَهُنَّ الْعُقُولُ
تَشْتَكِى مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْ قِ إِلَيْهَا ، وَالشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ
وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قلبَ صَبٍّ فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ
زَوِّدِينَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكِ مَادَا مَ فَحُسْنُ الْوُجوهِ حَالٌ تَحُولُ

إن ذكرى الماضى وما عانى المتنبى فى غربته ، ذللت من جموحه وأذلت عواطفه ، فصاغ ألحانه فى هذه القصيدة من ذوب القلب ، وخلاصة الشعور ، وصميم النفس .

« وخلاصة القول »

١ — أن شعر المتنبى سجل لتاريخه ، صورة لنفسه ، إلا غزله ؛ فإنه كان ألوانا على حسب الظروف والأحوال ، ولم يؤثر أنه وقع فى شرك الغرام أو لبى داعى الصبابة .

٢ -- كان المتنبى فى صباه يقلد غزل أبى تمام فى أحيان كثيرة ، فيتكلف و يسخف ، فاذا ما سار وراء طبعه رأيته يرق و يلطف .

٣ — للمتنبى فى صباه قدرة على تصوير الوداع ولوعة الغرام وعبث الشباب تصويرا دقيقا لم يسبق إليه ، وكان يعتصم بالموسيقى والفن إذا لم يسعفه المعنى الدقيق و الخيال العميق .

٤ — كانت المنافسة الشديدة بينه وبين الشعراء فى بلاط سيف الدولة تحمله على الصنعة والتكلف فيقع فى التعقيد .

٥ — إن العطاء الجزل ، وخلو الجوله فى مصر ، جعل غزله فى كافور من حر القول ، وخير القريض ، فلما رحل إلى خراسان أعاده الخصوم من الشعراء إلى التكلف .

وكنت أود لو أجد الوقت والذهن المستريح ، لأكتب فى غزل المتنبى خيرا من ذلك ، ولكنه جهد المقل ، وبضاعة المكدود .

حسن علوان

إِلَى أَبِى الطَّيِّبِ

بقلم

محمد يوسف المحجوب

المدرس بمدرسة محمد على الملكية الأميرية للبنات

مِنْ عَالَمِ الْخُلْدِ نَحْوَ الْعَالَمِ الْفَانِى — أَشْرِقْ ، وَأَسْعِدْ بِوَحْيٍ مِنْكَ تِبْيَانِى

وانْثُرْ عَلَى مُهْجَتِى سِحْرَ الْقَرِيضِ ؛ فَمِنْ — صَفِىٌّ لَحْنِكَ قَدْ أَصْفَيْتُ وِجْدَانِى

أَشْرِقْ عَلَىَّ ؛ فَأَنْتَ النُّورُ يَغْمُرُنِى — وَأَنْتَ مَشْرَعُ آمَالِى وَتَحْنَانِى

عَلَّمْتَنِى الْمَجْدَ فِى الدُّنْيَا فَعِشْتُ بِهِ — هَيْمَانَ : أَهْوَاهُ ـ فَتَّاكاً ـ وَيَهْوَانِى (١)

أَلْهَمْتَنِى الْحُبَّ فِى الدُّنْيَا فَرُحْتُ بِهِ — مُرَدِّداً لِأَغَارِيدِى وَأَلْحَانِى

عَلَّمْتَنِى : كَيْفَ أَجْزِى النَّاسَ وُدَّهُمُ — بِمَا أَرَادُوا ، عَلَى شَكٍّ وَإِيمَانِ (٢)

وَكَيْفَ أُسْكِنُ سِرِّى مَوْضِعاً عَجَزَتْ — عَنْ أَنْ تُسَاوِرَهُ رَاحِى وَنَدْمَانِى (٣)

وَكَيْفَ أَغْنَى عَنِ الْأَوْطَانِ إِنْ جَحَدَتْ — قَدْرِى الْأَصَاحِيبُ مِنْ أَهْلٍ وَأَوْطَانِ (٤)

إشارة إلى قول أبى الطيب :

(١) : ولا تحسبن المجد زقا وقينة — فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

(٢) : ولما صار ود الناس خبا — جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه ؛ — لعلى أنه بعض الأنام

(٣) : وللسر منى موضع لا يناله — نديم ، ولا يفضى إليه شراب

(٤) : غنى عن الأوطان ، لا يستفزنى — إلى بلد سافرت عنه إياب

وَكَيْفَ أَصْدَى، فَلَا يَهْفُو الْفُؤَادُ إِلَى وِرْدٍ يُكَدِّرُهُ تَغْيِيرُ مَنَّانِ (١)
وَكَيْفَ أَمْنَحُ مِنِّى الْخَوْدَ سَاعَتَهَا وَكَيْفَ أَنْأَى وَأُعْلِى (بَعْدُ) بُنْيَانِى (٢)
وَكَيْفَ أَلْقَى زَمَانِى غَيْرَ مُكْتَرِثٍ مَادَامَ يَصْحَبُ رُوحِى فِيهِ جُثْمَانِى (٣)

✡ ✡ ✡

يَا «أَحْمَدَ» الْقَوْمِ آثَارًا، وَأَبْعَدَهُمْ شَأْوًا، وَأَخْلَدَهُمْ فِى عُمْرِهِ الثَّانِى
مَرَّتْ بِكَ الْأَلْفُ، لَمْ يَنْسَ الزَّمَانُ وَلَا أَبْنَاؤُهُ وَحْىَ غَيْثٍ مِنْكَ هَتَّانِ
وَمَا السُّنُونَ ـ وَإِنْ طَالَتْ ـ بِمَاحِيَةٍ ذِكْرَاكَ. أَنَّى، وَأَنْتَ الْهَادِمُ الْبَانِى؟
هَدَمْتَ مَجْدَ أُنَاسٍ كَانَ غَرَّهُمُ زَيْفٌ مِنَ الْجَاهِ لَمْ يُدْعَمْ بِأَرْكَانِ
فَرُحْتَ تُصْلِيهِمُ بِالْقَوْلِ مُنْصَلِتًا أَقْوَى وَأَفْتَكَ مِنْ مَشْبُوبِ نِيرَانِ
حَتَّى تَرَكْتَ وُجُوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً وَالْقَوْمَ فِى حَيْرَةٍ أَوْ مَسِّ شَيْطَانِ! (٤)
سَلْ مَنْ مَدَحْتَ، وَسَائِلْ مَنْ هَجَوْتَ، وَمَنْ رَثَيْتَ، كَيْفَ مَضَى كُلٌّ بِعُنْوَانِ:
أَبْقَيْتَ بِالْمَدْحِ مَجْدًا لِلْأُلَى مُدِحُوا أَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ مِنْ عَرْشٍ وَتِيجَانِ
وَبَاءَ بِالْعَارِ مَنْ كِلْتَ الْهِجَاءَ لَهُمْ فَسَالَمُوكَ عَلَى خِزْىٍ وَخِذْلَانِ!
وَفَازَ بِالْخُلْدِ مَنْ صُغْتَ الرِّثَاءَ لَهُمْ فِى رَائِعِ الْقَوْلِ، مِنْ دُرٍّ وَعِقْيَانِ

إشارة إلى قول المتنبي: —

(١): وأصدى، فلا أبدى إلى الماء منة وللشمس فوق اليعملات لعاب
(٢): وللخود منى ساعة، ثم بيننا فلاة، إلى غير اللقاء تجاب
(٣): لا تلق دهرك إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن
(٤): لأتركن وجوه الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدم

فَكَيْفَ يَنسَاكَ دَهْرٌ قَدْ تَرَكْتَ بِهِ فَيْضًا مِنَ الشِّعْرِ يَسْقِى كُلَّ وِجْدَانِ؟
وَمَا السِّنُونَ إِذَا مَارُحْتَ تَحْسُبُهَا؟ أَلْفٌ كَمَامٍ ـ إِذَا مَرَّتْ ـ وَأَلْفَانِ.

✡ ✡ ✡

نَمُرُّ بِالزَّمَنِ الْبَاقِي، فَنَحْسَبُهُ يَفْنَى، وَمَا نَحْنُ إِلاَّ الْجَانِبُ الْفَانِي!
الدَّهْرُ أَبْقَى ـ عَلَى الذِّكْرَى ـ وَأَخْلَدُ مِنْ جِسْمٍ، يُطَالِعُنَا فِي زِيِّ إِنْسَانِ!
جِسْمٌ يُضِيءُ إِلَى حِينٍ، وَيَفْجَؤُهُ غُولُ الفَنَاءِ، فَيُمْسِي رَهْنَ أَكْفَانِ
مَنْ ذَا يُخَلِّدُ رُوحَ الْمَرْءِ، إِنْ فَنِيَتْ دُنْيَا الجُسُومِ، وَرَاحَتْ طَيَّ نِسْيَانِ؟
الشِّعْرُ يَذْكُرُهَا، وَالشِّعْرُ يَنْشُرُهَا، وَالشِّعْرُ يُضْفِي عَلَيْهَا ظِلَّهُ الْحَانِي،
وَيُسْمِعُ الدَّهْرَ وَالْأَجْيَالَ آيَتَهَا فَيَّاضَةً بِشَجِيِّ اللَّحْنِ فَتَّانِ..!

✡ ✡ ✡

الشِّعْرُ كَالدَّهْرِ ـ إِنْ أَبْدَعْتَ آيَتَهُ ـ كِلَاهُمَا فِي سِجِلِّ الْخُلْدِ صِنْوَانِ!
مَا الْحُسْنُ؟ مَا الرَّوْضُ؟ مَا الأَزْهَارُ بَاسِمَةً؟ مَا الطَّيْرُ سَاجِعَةً فِي ظِلِّ أَغْصَانِ؟
مَا الْجَدْوَلُ السَّلْسَبِيلُ الْعَذْبُ مُطَّرِدًا؟ مَا الدَّوْحُ؟ مَا الرَّوْحُ مِنْ وَرْدٍ وَرَيْحَانِ؟
مَا هَذِهِ كُلُّهَا ـ إِنْ رُحْتَ تَطْلُبُهَا ـ إِلاَّ إِذَا شَفَّ عَنْهَا رُوحُ فَنَّانِ؟
وَمَنْ، سِوَى الشَّاعِرِ الْمَوْهُوبِ، يُبْدِعُهَا لَحْنًا، يَفِيءُ إِلَيْهِ اللاَّغِبُ الْعَانِي؟؟.

✡ ✡ ✡

يَا نَابِهَ الذِّكْرِ، صَوَّرْتَ الْحَيَاةَ بِمَا يَظَلُّ مُعْتَلِجًا فِي كُلِّ وِجْدَانِ:
إِنْ نَنْشُدِ الْحِكْمَةَ الوَضَّاءَ جَانِبُهَا نَظْفَرْ بِهَا مِنْكَ، فِي حِذْقٍ وَإِتْقَانِ
وَإِنْ تُطَالِعْ فُؤَادًا خَالِجَةٌ، وَجَدَتْ لَدَى بَيَانِكَ عَنْهَا خَيْرَ مِعْوَانِ

أَدْرَكْتَ سِرَّ وُجُودٍ كُنْتَ تَقْطَعُهُ وَثْباً ، وَغَيْرُكَ فِيهِ الْعَاجِزُ الْوَانِى
عُمْرٌ ، تَمَنَّيْتَ أَنْ لَوْ نِلْتَ مُدَّتَهُ فِى غَيْرِ جِيلٍ زَنِيمِ الْأَصْلِ خَوَّانِ[1]
لَمْ يُمْهِلُوكَ بِهِ ، فَاغْتَالَ جَاهِلُهُمْ حَيَاةَ فُصْحَى وَأَجْيَالٍ وَأَزْمَانِ . . !
لَكِنْ . بِحَسْبِكَ مَا خَلَّفْتَ مِنْ أَثَرٍ نَحْيَا بِهِ بَيْنَ أَغْصَانٍ وَأَفْنَانِ
وَيَسْتَقِى وِرْدَهُ الْفَيَّاضَ فِى شَغَفٍ وَلَهْفَةٍ ، كُلُّ صَادِى الرُّوحِ ظَمْآنِ . .

✡ ✡ ✡

قُمْ ؛ تُبْصِرِ الشَّرْقَ رَاحَ الْيَوْمَ مُحْتَفِلاً يَشْدُو بِذِكْرَاكَ : مِنْ شَامٍ لِبَغْدَانِ
وَفِى حِمَى مِصْرَ ، كَمْ دَارٍ ، لَكَ احْتَشَدَتْ جُمُوعُهَا الْغُرُّ ، مِنْ قَاصٍ وَمِنْ دَانِ
وَفِى رُبَى الْغَرْبِ ؛ حَيْثُ الصَّحْبُ صَافِيَةٌ حَيَاتُهُمْ ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَعِيدَانِ
مَا كَرَّمُوكَ بِهَا ، لَكِنْ لِأَنْفُسِهِمْ قَدْ كَرَّمُوا ، وَأَقَامُوا خَيْرَ بُرْهَانِ !
أَلَسْتَ مَانِحَ فُصْحَاهُمْ نَضَارَتَهَا بِمَا ضَرَبْتَ بِهِ فِى كُلِّ مَيْدَانِ ؟ ؟

✡ ✡ ✡

أَوْفَى وَأَكْرَمُ دَارٍ ، بَاتَ يُسْعِدُهَا صَفِىُّ نَبْعِكَ فِى قَوْلٍ وَتِبْيَانِ
« دَارُ الْعُلُومِ » عَتَادُ الشَّرْقِ ، مَنْ نَهَضَتْ بِالْمُسْتَفِيضِينَ : مِنْ شِعْرٍ وَعِرْفَانِ .
تُكَرِّمُ الْيَوْمَ فِيكَ الْمَجْدَ ، يَنْفُثُهُ أَبْنَاؤُهَا الصِّيدُ : مِنْ قُسٍّ وَحَسَّانِ
« صَحِيفَةً » ، هِىَ أَصْفَى مَا تُقَدِّمُهُ ؛ حَتَّى يَكُونَ اللِّقَا فِى الْعَالَمِ الثَّانِى .

محمد يوسف المحجوب

إشارة إلى قول المتنبي :

(١) وقت يضيع ، وعمر ليت مدته فى غير أمته من سالف الأمم

اســـتدراك

لسبب خارج عن إرادتنا وقعت الأخطاء الآتية ، فتداركناها هنا :

ص	س	خطأ	صواب
١٩	٥	حسداً	حسّدًا
٢٥	١١	القضَم	القضِم
٢٥	٢٠	النصال	النِّصال
٢٩	١٠	هو ان	هوان
٣٠	٣	فلَم	فلِمْ
٣١	٤	صُامت	صَامت
٣٢	١٠	تفلح	تُفلح
٣٤	١٢	يذبحَون	يذبحُون
٣٨	١٢	زَياد	زِياد
٤١	١٤	إذَ	إذًا
٤٤	٢١	الخ	المخ
٤٥	١٨	عد و	عدوّ
٥٨	١٠	النبوع	النبوغ
٦٢	١٤	بأنفسِ	بأنفسٍ
٧٢	١	الرعدوالبرق	البرق والرعد
٩١	١٦	الإخشيدى	الإخشيد
٩٤	١	بعُده	بَعْده
٩٥	٩	تعده	تُعِدُّه
٩٨	١٤	إحسانهْ	إحسانَهُ
٩٩	٤	يعده	يعد
٩٩	٤	يشرف	تشرف
٩٩	٩	والرّفهنية	والرَّفهنية
٩٩	١٧	نزاع	نزوع
٩٩	١٩	ويم	وأمٌّ
٩٩	٢٠	وأكرم	وأكرَمِ
١٠٠	٤	شرقيّ	شرقىّ
١٠١	٨	فليسَمَد	فليُسْمِد
١٠١	١٨	عقال	عُقّال
١٠٣	٧	إذ أقيسوا	إذا قيسوا
١٠٤	٢٠	وشكى	وشكا
١٠٨	١	فإذا	فلما
١٠٨	٣	أحاطه	حاطه
١٠٩	٤	كافور	كافورًا
١٠٩	١٢	وشعرُ	وشعرِ
١٠٩	١٧	المواضيع	المواضع
١١١	٥	الأيام	الأنام
١١٢	٩	شخصية	حيثية
١٥٢	١٢	جيش	جيشين
١٧٣	١٣	الرواية	الدوران
١٩٣	٣	والمتنبى	والمتفيء
١٩٦	٢٣	وريسا	ورسيسا

فهرس العدد الرابع من السنة الثانية